

تَنْزِيلُ الْأَنْبِيَاءِ

عَمَّا نَسَبَ إِلَيْهِمْ حِثَّ آلِهِ الْأَغْيَاءِ

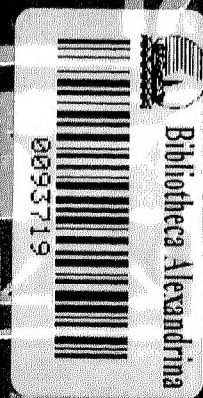
تأليف

أبي الحسن علي بن أحمد السجستاني الأموي - المعروف بابن عمير

مُتَقَبِّق

الدكتور محمد رضوان الدارسة

أستاذ الأدب القديم في جامعة دمشق



دار الفكر
دمشق - سورية

دار الفكر للمطبعة
بيروت - لبنان



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَنْزِيلُ الْأَنْبِيَاءِ
عَمَّا نَسَبَ إِلَهُمُ حَتَّى أَلْهَ الْأَغْيَاءِ

تَرْغِيْلُ الْأَنْبِيَاءِ

عَمَّا نَسَبَ إِلَيْهِمْ حُثَالَةُ الْأَغْيَاءِ

تأليف

أبي الحسن علي بن أحمد السبتي الأموي - المعروف بابن حمير

محقق

الدكتور محمد رضوان الدايّة

أستاذ أدب الأندلس والمغرب في جامعة دمشق

دار الفكر
دمشق - سورية

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

الكتاب ١٨ .
الطبعة الأولى ١٤١١ هـ = ١٩٩٠ م



جميع الحقوق محفوظة
يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل
والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق
إلا بإذن خطي من دار الفكر المعاصر

لبنان - بيروت - ساقية الجزير ، خلف الكارلتون ، س . ت ٥١٤٩٧
ص . ب (١٣٦٠٦٤) هاتف (٨٦٠٧٣٩) تليكس : LE 44316 FIKR

مُقدِّمةُ التحقيق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[١]

يتميز هذا الكتاب بعنوانه، كما يتميز بموضوعه الذي اجتهد مؤلفه في استيفائه وبلوغ المراد منه؛ وكتبه بحماسة، وصدق؛ ولكن من خلال مطالعة تاريخية وتوثيقية دقيقة، ومن وراء منهج علمي عقلي واع.

ولم أجد في المكتبة العربية المخطوطة والمطبوعة، ولا فيما سجله بروكلمان في تاريخه غير أربعة عناوين في هذا المقصد:

أحدها: كتاب الشريف المرتضى (أبي القاسم علي بن الحسين البغدادي المتوفى سنة ٤٣٦ هـ) واسمه: «تنزيه الأنبياء»^(١).

والثاني: هذا الكتاب الذي تقدمه للقراء.

والثالث: كتاب السيوطي «تنزيه الأنبياء عن تسفيه الأغبياء».

والرابع: تنزيه المصطفى المختار عما لم يثبت من الأخبار والآثار لأحمد الوفاي المتوفى ١٠٨٦هـ^(٢).

وكتاب الشريف المرتضى، وكتابنا هذا يتقاربان ويدوران في فلك واحد

(١) كتاب تنزيه الأنبياء للسيد الشريف المرتضى، طبع في المطبعة الحيدرية في النجف الأشرف

(٢) ذكره البغدادي في إضاح المكنون ١: ٣٢٩؛ ولم يذكر في كتبه الباقية.

عدا ما أضافه الشريف في كتابه من حديث عن «الأئمة»؛ وهو حديث خارج عن موضوع الأنبياء وتنزيههم؛ فإذا فصلنا ذلك من كتابه؛ اقترب أحد الكتابين من الآخر اقتراباً كبيراً.

أما كتاب السيوطي فيتعلّق بقضية من قضايا التنزيه؛ وهو رسالة صغيرة ألفها نتيجة حادثة (كلام) وقعت بين اثنين، ورد في شغب أحدهما ذكر اتّخاذ الأنبياء عليهم السلام الرعي عملاً أو مهنة. واختلفت الفتوى في ذلك الشغب (الكلام) الذي صدر. فتصدّى السيوطي وألف تلك الرسالة قال: «والسبب في تأليفه - يعني كتابه - أنه وقع أنّ رجلاً خاصم رجلاً فوق بينهما سبّ كثير، فكدف أحدهما عرض الآخر، فنسبه الآخر إلى رعي المِعْزَى، فقال له ذاك: تنسبني إلى رعي المعزى؟ فقال له وإلّا القائل: الأنبياء رعو المعزى، أو: ما من نبي إلا رعى المِعْزَى! وذلك بسوق الغزل بجوار الجامع الطولوني، بحضرة جمع كبير من العوام؛ فترافعوا إلى الحكّام، فبلغ قاضي القضاة المالكي فقال: لو رُفِعَ إليّ لضربتُ بالسياط» قال السيوطي: «فسئلت: ماذا يلزم الذي ذكر الأنبياء مستدلاً بهم في هذا المقام؟

فأجبت بأن هذا المُستدِلّ يعزّر تعزيز البالغ، لأن مقام الأنبياء أجلّ من أن يُضرب مثلاً لآحاد الناس، ولم أكن عرفت من هو القائل ذلك؛ فبلغني - بعد ذلك - أنه الشيخ شمس الدين بن الحمصاني إمام الجامع الطولوني، وشيخ القراء، وهو رجل صالح في اعتقادي. فقلت: مثل هذا الرجل تُقالُ عثرته، وتُغفر زلّته، ولا يعزّر لهفوة صدرت منه، وقال: إنّ هذا القائل لا يُنسب إليه في ذلك عثرة ولا ملام، وإن ذلك من المباح المُطلق: لا ذنب فيه ولا أثم، واستُفتي على ذلك من لم تبلغه واقعة الحال فخرّجوه على ما ذكره القاضي عياض في (مذاكرة العلم) لأجل ذكر لفظ الاستدلال في الجواب والسؤال.

قال السيوطي: «فخشيت أن تشرب قلوب العوام هذا الكلام فيكثروا من استعماله في المجادلات والخصام، ويتصرّفوا فيه بأنواع من عباراتهم الفاسدة،

فيؤدّيههم إلى أن يمرقوا من دين الإسلام فوضعت هذه الكراسة نصحاً للدين وإرشاداً للمسلمين...»^(٣).

فوضع كتاب السيوطي - أو رسالته - كان لسبب مخصوص، وهي تدور حول مسألة بعينها؛ مما يجب فيه توفير الأنبياء وتنزيههم.

[٢]

وعنوان الكتاب الذي نقدّمه اليوم محققاً هو: (كتاب تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء؛ ومجموع نُكّت ما خُصّ به نبينا صلى الله عليه وسلم من الكرامات ليلة الإسراء عند لقاء الكليم وما كان بينهما من المراجعة والمحاورة في أمر الصلاة).

وقد جعلت العنوان مختصراً منه، حتى تبقى له صفة العنوان؛ ولأنّ موضوع الكتاب الأصلي هو الكلام في تنزيه الأنبياء؛ أمّا سائر العنوان فيشير إلى فقرة (أو فصل قصير) أضافه المؤلف إلى كتابه زيادة في بيان ما خُصّ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكرامات.

واعتمدت في نشر الكتاب على نسخة محفوظة في مكتبة الأسد الوطنية (كانت محفوظة في المكتبة العثمانية بحلب برقم ٦٤٣) تقع في ٦٦ ست وستين ورقة من القطع المتوسط، وفي آخر هذه النسخة:

«كمل بحمد الله ومَنّه وَحُسْنِ توفيقه؛ ووقع الفراغ من تحريره على يد الفقير الخاطيء المذنب الرَّاجي عفو ربّه الكريم إسحاق بن محمود بن ملكونه (غير معجمة: ملكويه؟) بن أبي الفياض الشايرخواستي البرجردي. غفر الله له ولوالديه ولجميع أمة محمد برحمته الواسعة؛ وذلك في الخامس عشر من صفر

(٣) تنزيه الأنبياء عن تسفيه الأغبياء، تأليف جلال الدّين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١ هـ) تحقيق الدكتور خالد عبد الكريم جمعة وعبد القادر أحمد عبد القادر - مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع - الكويت - ١٤٠٨ / ١٩٨٨ ص ١٥ - ١٦.

سنة ست وأربعين وست مئة بالقاهرة المحروسة المعزّية .
والأصل الذي انتسخ منه كان مقابلاً بأصل المؤلف - رحمة الله عليه - .
والحمد لله وحده ، وصلواته على نبيّه محمد وآله وصحبه وعترته الطيبين
الطاهرين» .

وعلى غلاف الكتاب أسماء عدد من المؤلفات والرسائل التي ضمّها ذلك
المجلد ، وهي بالنّص :

« - وفيه طبقات الفقهاء للإمام العلامة أبي إسحاق الفيروز أبادي رحمه
الله - وفيه مختصر من رسالة الاحتجاج للإمام الشافعي رضوان الله عليه تصنيف
الحافظ العلامة أبي بكر بن ثابت الخطيب البغدادي رحمه الله - وفيه نصرة
القولين للإمام الشافعي رضي الله عنه تصنيف أبي العباس بن القاص الطبري
رحمه الله - وفيه القول في حقيقة القولين تصنيف الإمام حجة الإسلام أبي حامد
محمد بن محمد بن محمد الغزالي رحمة الله عليه» .

الراجي منه العفو والغفران إبراهيم بن الملاّ أحمد بن الملاّ محمّد الشهير بابن
الملاّ العباسي الحلبيّ خدام الحديث النبوي وأهله» وبعده : «تحريراً في محرم
الحرام ٩٩٧» - وسنعرّف بصاحب المخطوطة فهو من أهل العلم والفضل - .
وحلّى المؤلف في صفحة الغلاف بهذه العبارة «تأليف الشيخ الإمام الفقيه
المرحوم أبي الحسن علي بن أحمد السبتي الأموي ، عُرف بابن حُمير» .

[٣]

في جملة الأصول التي اجتمع عليها جمهرة المسلمين ، وكما لخص
البغدادي في (الفرق : ٣٤٣) : «أنهم قالوا بعصمة الأنبياء عن الذنوب ؛ وتأولوا
ما روي عنهم من زلّاتهم على أنها كانت قبل النبوة» .

وفي الفرق الإسلامية من أجاز على الأنبياء الصّغائر من الذنوب
وهم أكثر المعتزلة ؛ على أنهم يُقرّون أنها من الصّغائر التي «لا يستقرّ لها

استحقاق عذاب وإنما يكون حظه تنقيص الثواب». وروى الشريف المرتضى في تنزيه الأنبياء عن أبي علي الجبائي المعتزلي قوله إن [الذنب] الصغير يسقط عقابه بغير موازنة؛ قال: فكأنهم معترفون بأنه لا يقع منهم ما يستحقون به الذم والعقاب.

وقالت الشيعة الإمامية: لا يجوز على الأنبياء شيء من المعاصي والذنوب كبيراً كان أو صغيراً لا قبل النبوة ولا بعدها؛ كما قرر الشريف في التنزيه في مقدمة كتابه (ص: ٣).

ونخرج من هذا - ومثله ممّا لا ضرورة إلى الاستفاضة فيه - إلى أنّ جمهرة المسلمين، في كل عصر، ينزهون الأنبياء، ولا يجيزون عليهم إلّا ما يليق بهم. وقد دار كتاب الشريف المرتضى، كما دار كتاب مؤلفنا ابن حمير الأموي السبتي في هذا الإطار: أعني تنزيه الأنبياء عمّا لا يليق بهم؛ واجتهد ابن حمير في التوسّع في تقديم أخبار الأنبياء التي كانت مجالاً لأولئك الجاهلين أو ذوي النيات السيئة، أو أولئك المؤرّخين الضّعاف والقصاصين الذين يعتمدون على الإثارة والإغراب دون أن يتّقوا الله تعالى في الكلام على أنبيائه المكرّمين.

[٤]

ذكر المؤلف في مقدمة كتابه السبب الذي حدا به إلى تأليف هذا الكتاب، وبَيَّن أنه ألفه بناءً على رغبة بعض الطلبة (متابعي الدّراسات الشرعيّة والنقلية عامّة) لاستدراك أوهام قد تقع في الأذهان من أخطاء وأوهام ودسائس تصدر عن فئات معيّنة: «من عُثاء الفرق المضلّين من أوباش المعطلة الضالّين وأرذال اليهود والنّصارى، ومقلّدة المؤرّخين والقصاص المجازفين الجاهلين بحقيقة النبوة»؛ وقصد المؤلف إلى إرشاد القارئ إلى معرفة حقيقة النبوة، وبيان ما يجوز على الأنبياء وما يستحيل، وما يجب من توقيرهم، وتدقيق النظر في استخراج مناقبهم، ومعرفة ما أوجب الله على الناس من التفقه في القرآن لتوحيد الله تعالى وتنزيهه، ووصف أنبيائه الذين اصطفى بالصدق والعصمة والتنزيه من

الخطأ والخط، وما جاؤوا به من شعائر العبادات، وأخبروا به من المغيبيات، وما وعظوا به، والنظر في الفرق بين الحلال والحرام والأمور المشتبهات... ووقف المؤلف عند قضايا يستغلها الملاحدة وضياع النفوس من القصصين والمؤرخين (ونضيف اليوم إليهم بعض كتاب القصة والرواية والمسرحية الذين يسوؤهم تاريخ الأنبياء وصدق الرسالات) إلى غير هؤلاء ممن يصح التحذير منهم والتنبية على آرائهم الفاسدة وعقائدهم. ونبه إلى الخطأ؛ أو الأخطاء التي يقع فيها المرء عن جهل أو عن نفاق حين يقصد إلى أقوال وأفعال للأنبياء قد يتخيلها مثالب في حقهم، فإذا فعل فإنه يهلك ويهلك من حيث لا يشعر. على أن في الأدباء المعاصرين من أجاد الكتابة - مسرحية وقصة وشعراً - في هذا المجال، عن علمٍ ونفاذٍ واستيعابٍ لحقيقة الحضارة العربية الإسلامية والتراث العريق مثل علي أحمد باكثير وعبد الحميد جودة السحار ومصطفى صادق الرافعي وعلي الجارم وعزيز أباظة وعمر أبو ريشة وغيرهم.

[٥]

قسم المؤلف كتاب «تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حُثالة الأغبياء» إلى مقدمة عامة وعدد من الفصول؛ وربما تخلل الفصل استطراد له علاقة بموضوع الكتاب^(٤). وكل فصل يتعلّق بقصة أو خبر لنبي من أنبياء الله تعالى. أما المقدمة فهي بسطٌ لسبب - أو أسباب - تأليف الكتاب وبيانٌ لمعنى نزاهة الأنبياء، وتعريفٌ بالثغرات العقيدية أو غيرها التي دفعت أولئك الأشخاص إلى أن يقعوا في الأخطاء الفظيعة في حق الأنبياء الكرام. وأما الفصول فإنها تتابعت لتعالج أحوال بعض الأنبياء ممن كانوا غرضاً للكلام، ولم يكن المؤلف يغادر الفصل قبل أن يستوثق من إزالة كلّ وهمٍ وكلّ لبس، وبعد مناقشة علمية عقلية متأنية دقيقة، وبأسلوب منطقيّ، وعبارات مفهومة سهلة مُسطّرة بقلم أديب بارع في أناةٍ خبيرٍ مُدقّق.

(٣) وقد عنون المؤلف لكل استطراد أو إيضاح بكلمة (فصل) أيضاً.

وقد يلمح القارئ بعض المفردات الشديدة الوقع، أو البالغة الحماسة وهذا صحيح، ولكن المؤلف لم يعتمد على إحياء الألفاظ المشعة للوصول إلى الإقناع، على أنه لم يكن يوفر المفردة المناسبة في لحظة الحماسة لتعبر عن خطورة الموقف، أو لينفس المؤلف عن قلمه وهو يذكر ترهات أولئك الجاهلين أو المفسدين، كقوله في المقدمة:

«... ثم قيض الله لتلك الحكايات في هذا الوقت المنكوب شرذمة من المقلدة المنتمين إلى الوعظ والتذكير، فتراهم ينتقلون من المزابل إلى المنابر فيطرحون الكلام في وظائف التوحيد، ومزعجات الوعد والوعيد، وأقسام أهل الدارين في الدرجات والدركات، ويخوضون في أحوال الأنبياء عليهم السلام، ويتمندلون بأعراضهم على رؤوس العوام والطعام ولا مشفق على دين الله تعالى، ولا محتاط على أغمار المقلدة، ولا زاجر ذا سلطان، حتى كأننا ملة أخرى...» إلخ.

وتتناول الفصول الرئيسية في الكتاب مسائل، أو قضايا في سيرة الأنبياء المكرمين: داود، وسليمان، ويوسف، وسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم آدم، ونوح، وإبراهيم، وعزير، وأيوب، ويونس، وموسى، عليهم السلام.

(وأضاف إلى ذلك كلاماً عن السيدة البتول مريم العذراء، وكلاماً آخر في إخوة يوسف عليه السلام).

وقد كشفت كتابة المؤلف - رحمه الله وأثابه كل خير - عن معرفة بعلوم القرآن، والحديث، وبسطة يد في التفسير وما يتبعه، ومعرفة واسعة باللغة والأدب والأخبار، والسير، والتواريخ، ونفوذ في أمور الفقه، والأصول، والعقائد؛ وقدرة على المناقشة، وإتقان الأخذ والرد، والاستقراء والاستنتاج العلمي العام، والفقهية والأصولية.

[٦]

وفي كتاب «تنزيه الأنبياء» هذا إشارات قليلة تضيف إلينا معلومات يسيرة عن المؤلف وعصره؛ فقد ذكر أبا بكر بن العربي الإشبيلي الأندلسي (المتوفى ٥٤٣) وعبارته توحى أنه ألف كتابه وأبو بكر بن العربي حيّ.

وذكر (طلبة الأندلس)؛ وأكثر ما ترد العبارة في أدبيات عصر الموحدين (القرن السادس، والسابع).

وذكر الفقيه، أبا العباس أحمد بن محمد اللخمي، وهو كما يُرجَّح من علماء الأندلس. ووجدت في كتاب الذيل والتكملة لابن عبد الملك نحو عشرة ممن يكونون بأبي العباس ويسمَّون بأحمد بن محمد اللخمي، ولا مُرَّجَّح أو دلالة على المقصود فيهم؛ إلى نحو ذلك العدد ممن تسمَّى بأحمد ابن محمد اللخمي، وأغفلت كنيته.

وأورد شعراً لأبي إسحاق الإلبيري، ولم يعرفه المشاركة آنذاك، ولم يترجم له ابن بسَّام في (الذخيرة).

والمؤلف الذي نصَّ عنوان الكتاب على أنه أمويّ سبتيّ، ممَّن أدركوا عصر الموحدين، وكانوا من علماء العُدوتين: الأندلسية والمغربية. ويرجع عندي أن أحد أجداده غادر الأندلس إلى أقرب مقرّ في المغرب في مدّة اضطهاد الأمويّين أو إهمالهم، وخصوصاً في قرطبة، على الرغم من التفاف أولي الأمر الجدد في قرطبة وإشبيلية حول «هشام المؤيد» أو الحصري الأموي المزعوم. فهو سبتي أندلسي أمويّ أقول هذا على وجه الاستنتاج والاستدلال بالقليل الذي عرفته عن المؤلف.

وإذا كانت المعلومات عن المؤلف ومضات سريعة لا تُنيرُ السبيل فإنَّ هذا الكتاب يشفّ عن عالم بارع متقن، مُتفَنٌّ في علوم شتى قادر على إدارة الكلام على وجوهه المختلفة.

تذييل

ظفر الملحق الذي أضافه المؤلف رحمه الله بتعليق لطيف من أحد مالكي النسخة على الورقة (٦١/ب)؛ والمعلق أحد علماء زمانه في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين؛ واسمه كما ذكره على الصفحة المذكورة، وعلى ورقة الغلاف عند العنوان هو: إبراهيم بن أحمد بن محمد؛ وتمامه مع ألقاب أفراد أسرته، ونسبته كما سجلها بخطه: «إبراهيم بن الملاء أحمد بن الملاء محمد الشهير بابن الملاء، المحدث الحلبي العباسي».

ترجم المحبي في خلاصة الأثر لإبراهيم، وأبيه أحمد، وأخيه محمد بن محمد. ونبه إلى أنهم من أسرة علم وفضل. وقد كان أبوه وأخوه من علماء العصر، وكان جدّ والده قاضي قضاة تبريز ويُعرف هذا بـ منلا حاجي، فاشتهر بيته في حلب ببيت المنلا (وتنبه الزركلي - رحمه الله - إلى أنّ إبراهيم المذكور يكتب الملاء هكذا بلا نون).

وأما أبوه أحمد فقد ترجم له المحبي في خلاصة الأثر (١: ٢٧٧) وأثنى عليه بغزارة المعرفة، وجودة التأليف، وحسن الشعر وقال فيه «كان واحد الدهر في كل فن من فنون الأدب» وكانت وفاته سنة ١٠٠٣.

وترجم المحبي لأخيه محمد (المتوفى ١٠١٠) في الجزء الثالث ص ٣٤٨ وذكر عدداً من مؤلفاته ونبذة من شعره.

وأما إبراهيم (وترجمته في خلاصة الأثر في ١: ١١) فقد تتلمذ على أبيه وعلى غيره من علماء العصر، واشتغل بالعلم، وحج بعد الألف ثم رجع إلى حلب وانعزل عن الناس ولزم المطالعة والكتابة والتلاوة للقرآن كثيراً. وذكر له المحبي عدداً من الكتب.

وكانت وفاة إبراهيم سنة ١٠٣٢ (كما في الزركلي) وقال المحبي إن وفاته كانت حول سنة ١٠٣٠.

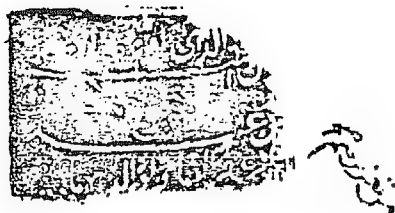
و فسر القول في العلم بالظاهر في قوله
 قصصنا في العباس في القاص الطويل
 وفي القول في حقيقة القول في قصصنا في العلم
 أي ما في قوله في القاص الطويل في قوله



صورة غلاف الكتاب
(وفيه عناوين الكتب المحفوظة في المجلد، وأولها كتاب تنزيه الأنبياء)

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ
 أَكْبَرُ اللَّهُ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ الَّذِي قَطَّنَا بِأَقْدَارِهِ وَطَوَّرَنَا بِأَحْضَانِهِ
 وَرَتَّبَ صُورَنَا فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ وَمَنْ عَلَّمَنَا بِالْعَقْلِ السَّالِمِ وَهَدَانَا إِلَى
 الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ وَفَيَّضَ لَنَا مِنَ السَّادَةِ الْإِيمَانِ الْمُوْتِدِّ بِوَاضِحِ الْبُرْقَانِ
 الْمُعْصِيِّ مَنْ مِنْ كُلِّ صَفِيرٍ وَكَيْفٍ مِنَ اللَّيْمِ وَالْعُضَيَّانِ سَمْعَةٍ مَنْ يَرَى
 مَا جَعَلَ الْإِيمَانَ الْمُرْسِلَ الْإِزَارَ الْمَشْهُورَ دَلِيلًا عَلَى الْإِيمَانِ الْيَقِينِ
 مِنَ الْحَرَامِ وَالْجَلَالِ الْإِتْرَاقِ الْإِمْتِنَانِ الْإِحْصَانِ مِنْهُمْ بِأَعْيُنِ الْبَصَرِ
 وَسَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ وَكَرَّمَ اللَّهُ
 الطَّسْتِ الْطَامِرَ مِنْ عِيدَادِ الْيَوْمِ الَّذِي أَلْهَمَ الْفَضْلَ الْفَضِيلِ
 فَأَتَى قَدْرًا سَمَرَتْ اللَّهُ تَعَالَى فِي أَمَلٍ شَرَحَ بَشَرِ الْمَلِكِ الْخَيْرِ الْمَلِكِ
 بَعْضُ الْبَطْلَةِ الْمُتَحَاطِطِينَ عَلَى الدِّينِ غَيْرَةً مِنْهُمْ عَلَى أَعْرَاضِ الشَّيْءِ الْمُرْجَحِ
 فِي صِفَتِهِ بِسَمْعِ الْكَلَامِ بِقَصَصِ فِرَاتٍ لَمْ يَنْصُرْ مِنْ إِيمَانِهِمْ وَكَأَنَّ
 مِنْ كَلَامِهِمْ وَلَا يَفْقَهُ مِنْ عَصَمَتِهِمْ وَكَرَّمَ أَخْرَافَهُمْ بِأَعْيُنِ الْبَصَرِ
 فَضْلَهُ عَلَى مَنْ سَابَقَ عِبَادَهُ وَكَرَّمَ السُّلْطَانَ اللَّهُ عَلَى سَادَةِ الْمُسْلِمِينَ
 مِنْ عَمَلِ الْكَلَامِ الْخَالِصِ مِنْ أَعْيُنِ الْمَطْلَعِ الْخَالِصِ وَارَادَ أَنْ
 الْهَوَى وَالْخَاصَرِ وَمَقْلَكَ الْخَوَافِ وَالْمَقْصَاصِ الْخَالِصِ وَالْخَالِصِ
 حَقِيقَةُ السُّبْحِ وَمَا جُورَ عَلَى أَنْبِيَائِهِ تَعَالَى وَمَا يَخْتَلِفُ وَمَا يَجِيءُ



عَلَى الْكَافَّةِ وَتَوْقِيرِهِمْ وَدَقِيقِ النَّظَرِ فِي اسْتِخْرَاجِ لُحَاظِهِمْ عَلَى أَيْمِ الْكَمَالِ
وَإِعْجَازِهِمْ فَتَرَكُونَهُ أَوْجِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ التَّقَةِ فِي أَيْمِ الْإِيمَانِ
وَحُجَّتِهِمْ وَتَرَكُونَهُ عَنِ التَّابِصِ وَوَصْفِهِ تَعَالَى مِمَّا حَبَلَهُ مِنْ
نُصَيَاتِ الْكَمَالِ وَالْجَلَالِ وَوَصَفِ أَنْبِيَاءِهِ بِالصِّدْقِ وَالْعَصْمَةِ
وَالْمُتَبَيَّنَةِ مِنَ الْخَطَاةِ وَالْخَطَلِ وَكَذَلِكَ لَمَّا جَاءَهُ مِنْ تَطَايُفِ الْعِبَادَاتِ
وَمَا أُخْبِرُوا بِهِ مِنَ الْمُحِصَيَاتِ وَالْمَوَاطِنِ وَتَوَعُّدِ الْوَعِيدِ وَالنُّظُورِ
سُورَةِ الْفُرْقَانِ مِنَ الْجَلَالِ وَالْإِحْرَامِ وَالْمُسْتَهْبَاتِ لِمَا غَرَّكَ مِنْ الْأَنْفُسِ
الْمُرْقُورِ وَالْحَيْطُوبَةِ ثَابِتَاتِ الْفُهُورِ وَمَا عَسَى أَنْ تَقُولَ فِيمَا قَالِ اللَّهُ
تَعَالَى فِيهِ طَهْرَانِ مَا فِي الْإِنْسَانِ مِنْ شَيْءٍ أَقْلَامُ وَالْحَرَمَةُ مِنْ سِدَّةِ سَجْدَةِ
أَجْرٍ مُبْتَدَأَتْ كَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَهُ وَقَوْلُهُ تَعَالَى وَلَئِنْ قُلْنَا لِسِتْرٍ
بَيْنَ الْبَنَاتِ وَأَوْطَقْتِ بِهِ الْأَرْضَ وَكُلَّهَا لَإِيْسَهُ وَقَوْلُهُ تَعَالَى لَئِنْ
هَذَا لَأَنْزِيلٌ عَلَيْنَا لِيُنذِرَ خَاسِفِينَ وَأَيُّدِي غَدْرٍ دَلَّتْ
قَسْرَ كَيْفَ قَدْ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَطَبَعَ عَلَيْهِمْ جَاطِخَ الْبِقَافِ يَتَكَلَّمُونَ
بِعَنْ هَذِهِ الْوَأَضَاحَاتِ مِنَ الْكَمَالِ لِيُنْذِرَ الْبَرَّاءَةَ الصَّادِعَةَ وَبَعْدَ
لِيُنْذِرَ الْإِنْفِخَالَ لِيُنْذِرَ الْإِنْفِخَالَ لِيُنْذِرَ الْإِنْفِخَالَ لِيُنْذِرَ الْإِنْفِخَالَ
مِنْ سِدَّةِ سَجْدَةِ وَفَلْيَكُنْ الْأَنْفِخَالَ مِنْهَا الْكُورُ يَسْتَعْمِلُونَ فِكْرَهَا
لِيُنْذِرَ الْإِنْفِخَالَ لِيُنْذِرَ الْإِنْفِخَالَ لِيُنْذِرَ الْإِنْفِخَالَ لِيُنْذِرَ الْإِنْفِخَالَ

أَقْرَبَهُمْ مِنْكَ وَأَدْنَاهُمْ إِلَيْكَ مِنْ فِي جَفَّةِ أَنْزَلَكَ
وَرَأَى مِنْ مِيرَاسٍ مُسْتَعْمِلٍ قَتْلَ مِنْ فَرْخَتِهِ مِنْكَ
وَحَلَّ مَا خَفِيَ مِنْ عَقْدِهِ كَتَبَ بِحَلَالِ أَرْهَابِ مَالِكَ
فَالْـ بِشَرِّ الْحَرْثِ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ
لَا أَرَى دَمِي مَالَهُ ثَلَاثَ حَسَنَاتٍ يَجْعَلُهُ كَلِمَةً وَبِشَرِّ كَلِمَةٍ
وَسُئْلٍ عَنْهُ كَلِمَةً وَكَأَنَّ عَلَى نَازِلِ طَالِبِ كَسْرٍ لِلَّهِ فِي
فِي خُطْبَةٍ خُطْبَاهَا دَفَعْتُ الظَّنَّ وَوَضَعْتُ الدُّرَّ وَضَعْتُ
الْمَسَاكِينَ وَتَشَبَّهْتُ بِالْمَدَّاهِ أَقْرَبَ الْبَقِيَّةَ بِالْمَلَا عَيْنَ أَفْهَامِ
الْمَعَالِطِ لِنَفْسِهِ الْمَخَافَةِ مِنْ هَذَا التَّوَابِ عَلَيْهِ فِي رُؤْيَا
رَاجِعَ بِصُرْطِكَ وَسَدَّ لِي مَنَازِلَ وَتَدْرَأُ أَنْكَ الْمَطْلُوبُ وَمِنْكَ
قَالَ اللَّهُ تَعَالَى وَكَفَى لِي آيَتُهُ وَهُوَ الْقِيَمَةُ فَكَرًا يَا رَايَ
يُخَاجِعُ لَكَ وَرَأَى لِي رَيْكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ فَرَعَ إِلَى عَقْلِكَ مِنْ
تَحْمِلَاتِ حَسَنَاتِكَ وَصَيَّرَ لِي حِمْلًا مِنْ أَسْكَرٍ مِنْ أَرْحَامِ أَسْكَرِ النَّاسِ
فَادْرَأِ إِلَى التَّوَكُّلِ قَبْلَ الْمَوْتِ عَطَانَا اللَّهُ وَأَيُّكُمْ مِمَّنْ قَالَ وَفَعَلَ
وَأَمْرًا مِثْلَ بِنَصْلِهِ مِمَّنْهُ وَلا يَجْعَلُنَا مِنْ رِئَاسَةِ الْفَقَائِ بِرَيْعَتِهِمْ
وَلَا تَرَى الْجُدُوعَ فِي عَيْنَيْهِ يَا اللَّهُ الْوَسْوَءُ اسْتَعِيرَ مِنْ جَسَدِنَا
وَنَجْمُ الْوَيْهَلِ وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ وَصَلَّى عَلَى

سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَلَّى وَسَلَامًا
بَلِّغْ مِنْ أَمْرِهِ بِحَسَنَاتِهِ
عِدَّةَ النَّاسِ وَالْأَمْرَاتِ

كمل بحمد الله ومنه وحسن توفيقه ووقع الفراغ من تحرير علي
 الفقير إلى الله الخاطي المذنب الرابح عفو ربه الكريم استحق من محمود
 بن بكوة بن أبي الفياض الشاذلي خواستي البرجسدي عمي رحمه الله والوالد
 والجميع منه محمد بن حمزة الواسع وذلك في الخامس عشر من صفر
 سنة ست واربعمائة وستمائة الف عام من الهجرة سنة الممثلة
 والاصل الذي نسخ منه كان مما لا باصلا من المولود رحمه الله
 والحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وعلمه الطاهر

كِتَابُ تَنْزِيهِ الْأَنْبِيَاءِ عَمَّا نَسَبَ إِلَيْهِمْ حُثَالَةُ الْأَغْيَاءِ

ومجموع نكت

ما خُصَّ به نبيُّنا صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم من الكرامات ليلةَ الإسراء عند
لقاء الكليم، وما كان بينهما من المراجعة والمحاورة في أمر الصلاة
تأليف الشيخ الإمام الفقيه المرحوم أبي الحسن عليّ بن أحمد السبّتي
الأمويّ، عُرِفَ بابن حُمَيْرٍ رحمة الله عليه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ
رَبِّ يَسِّرْ وَلَا تُعَسِّرْ

الحمدُ لله العَليّ العَظيم العَزيز الحَكيم الَّذي فَطَرَنَا بِاِقْتِدَارِهِ، وَطَوَّرَنَا
بِاخْتِيَارِهِ، وَرَتَّبَ صُورَنَا فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، وَمَنَّ عَلَيْنَا بِالْعَقْلِ السَّلِيمِ، وَهَدَانَا
إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَقَيَّضَ لَنَا مِنَ السَّادَةِ الْأَعْيَانِ الْمُؤَيَّدِينَ بِوَاضِحِ
الْبُرْهَانِ، الْمَعْصُومِينَ مِنْ كُلِّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مِنَ اللَّئَمِ وَالْعِصْيَانِ، سَفَرَةً مِنْ خَاصَّةِ
الْأَخْيَارِ الْمُرْسَلِينَ الْأَبْرَارِ الْمَشْهُودِ لَهُمْ بِخَالِصَةِ ذِكْرِ الدَّارِ^(١)، لِيَفْصِلُوا بَيْنَ
الْحَرَامِ وَالْحَلَالِ، وَالتَّرْكِ وَالْإِمْتِثَالِ وَاخْتَصَّنَا مِنْهُمْ بِخَاتَمِ النَّبِيِّينَ وَسَيِّدِ
الْمُرْسَلِينَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ وَعَلَى آلِهِمُ الطَّيِّبِينَ
الطَّاهِرِينَ مِنْ عَهْدِ آدَمَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أما بعد: فَإِنِّي قَدْ اسْتَخَرْتُ اللَّهَ تَعَالَى فِي إِمْلَاءِ شَرْحِ بَعْضِ آيَاتِ
رَغَبٍ فِي إِمْلَائِهَا بَعْضُ الطَّلَبَةِ الْمُحْتَاطِينَ عَلَى الدِّينِ غَيْرَةً مِنْهُمْ عَلَى أَعْرَاضِ
النَّبِيِّينَ لِأَنَّ لَاحَ فِي ضَمْنِهَا بَعْضَ عِتَابٍ لَهُمْ فِي بَعْضِ فَقَرَاتٍ لَا تَغُضُّ مِنْ

(١) فِي مَقْدَمَةِ الْمُؤَلِّفِ إِشَارَاتٌ قُرْآنِيَّةٌ كَثِيرَةٌ، وَهَذِهِ مِنْهَا؛ إِشَارَةٌ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ
ص ٤٦/٣٨ ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذُكِّرَى الدَّارِ﴾ وَوَجَّهَ الْمَفْسُورُونَ مَعْنَى الْآيَةِ عَلَى وَجْهِهِ؛
وَمِنْهَا عَنْ ابْنِ زَيْدٍ: أَيِ يَذْكُرُونَ الْآخِرَةَ وَيَرْغَبُونَ فِيهَا وَيَزْهَدُونَ فِي الدُّنْيَا، وَعَنْ مُجَاهِدٍ.
أَيِ أَخْلَصْنَاهُمْ بِأَنْ ذَكَرْنَا الْجَنَّةَ لَهُمْ.

أقدارهم، ولا تنقص من كمالهم، ولا تقدح في عصمتهم وكريم أحوالهم، بما من الله به من فضله على من يشاء من عباده؛ وذلك لما سَلَطَ الله على سادات المرسلين من غُثاءِ الفرقِ المضلِّين من أوباش المعطلة الضالِّين، وأراذل اليهود والنصارى، ومقلِّدة المؤرِّخين والقصاص المجازفين الجاهلين بحقيقة النبوة، وما يجوزُ على أنبياء الله تعالى. وما يستحيل وما يجب على الكافة من تعزيرهم وتوقيهم، وتدقيق النظر في استخراج مناقبهم على أتم الكمال وأعَمّه، فتراهم يتركون ما أوجب الله عليهم من التفقه في آي القرآن، من توحيد بارئهم وتنزيهه عن النقائص، ووصفه تعالى بما يجبُ له (٢) من صفات الكمال والجلال، ووصف أنبيائه بالصدق والعصمة والتنزيه من الخطأ والخط (٣)، وكذلك ما جاؤوا به من وظائف العبادات، وما أخبروا به من المعيّبات، والمواعظ بالوعيد والوعيد، والنظر في الفرق بين الحلال والحرام والمُستبَهِات إلى غير ذلك ممَّا لا تحويه الرُّقوم، ولا تُحيط به ثاقبات الفُهوم، وما عسى أن أقول فيما قال الله تعالى فيه: ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ الآية (٤)، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾ الآية (٥)، وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا﴾ الآية (٦)، إلى غير ذلك، فترى بهائم قد صرف الله قلوبهم، وطبع عليها بطابع النفاق يُنكِّبون (٧) عن هذه الواضحات من الحكيم البالغة والبراهين الصادعة، ويقصدون إلى أقوالٍ وأفعالٍ لهم

(٢) في الأصل: مما يجب... ودقيق النظر.

(٣) الخطأ: الكلام الفاسد الكثير.

(٤) لقمان: ٢٧/٣١.

(٥) الرعد: ٣١/١٣.

(٦) الحشر: ٢١/٥٩.

(٧) نكَب عن الطريق: عدَلَ عنه. والواضحات؛ هي الطُرُقُ الباردة الواضحة المسالك. ويُقال في عكسها: بُنِّيات الطريق.

يَتَخَيَّلُونَهَا مَثَالِبَ فِي حَقِّهِمْ، فَيَهْلِكُونَ وَيُهْلِكُونَ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ.
فلنذكر الآن ما نذكرُ منها لكونهم يستعملون ذكرها لِتَحْصِيلِ أَغْرَاضٍ
لهم فاسدة، ثم نعطفُ على ما بقي منها فيما بعد إن شاء الله تعالى.

فمنها قِصَّةُ داوود عليه السَّلام مع زَوْجِ أوريا، وقِصَّةُ سُلَيْمَانَ عليه
السَّلام مع زوجة جَرَادَةَ؛ وما كان من قِصَّةِ الجَسَدِ والكُرْسِيِّ؛ وقِصَّةُ يُوسُفَ
عَلَيْهِ السَّلام مع امرأة العَزِيزِ فِي الْهَمِّ والمُراوَدَةِ؛ وقِصَّةُ نَبِيِّنَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ
وَالسَّلَام مع زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ وَزَيْنَبِ بِنْتِ جَحْشِ بْنِ أُمَيَّةَ. فَيَتَأَوَّلُونَهَا تَأْوِيلَ مِنْ
حَلٍّ مِنْ عُنْقِهِ رِبْقَةً^(٨) الشَّرِيعَةِ وَيُثَسِّسُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، ثُمَّ يَنْسَبُونَ بَعْضُ هَذِهِ
الْأَقْوَالِ إِلَى كِبَارِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لِيُؤْمَّوْهُوا بِهَا عَلَى الْعَوَامِّ لَثَلَا يَرُدُّوْهَا
عَلَيْهِمْ وَيَقْدَحُوا فِيهَا، ثُمَّ تَرَاهُمْ يَتَرَدَّدُونَ فِي نَقْلِ تِلْكَ الْخُرَافَاتِ بِالتَّكْرَارِ
عَلَى أَوْجِهٍ مُخْتَلِفَةٍ، تَوَرَّعًا فِي نَقْلِ الرِّوَايَةِ، تَوَرَّعَ الْكَلْبِ الَّذِي يَرْفَعُ رِجْلَهُ
عِنْدَ الْبَوْلِ، وَقَمَّةً فِي أَعْمَاقِ الْحَيْفَةِ! ثُمَّ قَدْ قَبِضَ اللَّهُ لَتِلْكَ الْحِكَايَاتِ فِي
هَذَا الْوَقْتِ الْمُنَكُوبِ^(٩) شِرْذِمَةً مِنَ الْمُقَلِّدَةِ الْمُتَمَتِّعِينَ إِلَى الْإِرَادَةِ، وَالْقَصَاصِ
الْمُدَّعِينَ فِي غَرَائِبِ الْعِلْمِ وَبَوَاطِنِ الْمَعَانِي الْمُتَمَتِّعِينَ إِلَى الْوَعْظِ وَالتَّذْكِيرِ،
فَتَرَاهُمْ يَنْتَقِلُونَ مِنَ الْمَزَابِلِ إِلَى الْمَنَابِرِ فَيَطْرَحُونَ الْكَلَامَ فِي وَظَائِفِ
التَّوْحِيدِ، وَمُزَعَجَاتِ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، وَأَقْسَامِ أَهْلِ الدَّارَيْنِ فِي الدَّرَجَاتِ
وَالدَّرَكَاتِ^(١٠)، وَيَخُوضُونَ فِي أَحْوَالِ الْأَنْبِيَاءِ - عَلَيْهِمُ السَّلَام -
وَيَتَمَنَّدُونَ^(١١) بِأَعْرَاضِهِمْ عَلَى رُؤُوسِ الْعَوَامِّ وَالطُّغَامِ، وَلَا مُشْفِقَ عَلَى دِينِ

(٨) الرِّبْقَةُ: الْعُرْوَةُ فِي الْحَبْلِ يُشَدُّ بِهَا رَأْسُ الشَّاةِ وَنَحْوُهَا؛ فَاسْتُعِيرَ اللَّفْظُ لِلدِّينِ، فَيُقَالُ: خَلَعَ
رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ، إِذَا خَرَجَ عَنْهُ.

(٩) نَكَبَ الدَّهْرُ أَهْلَهُ نَكْبًا وَنَكْبًا: بَلَغَ مِنْهُمْ، وَأَصَابَهُمْ بِنَكْسَةٍ.
(١٠) الدَّرَجَاتُ: جَمْعُ الدَّرَجَةِ، وَهِيَ الْمَرْتَبَةُ مِنْ مَرَاتِبِ أَهْلِ الْجَنَّةِ. وَالدَّرَكَاتُ: جَمْعُ الدَّرَكَةِ،
وَهِيَ الْمَنْزِلَةُ السُّفْلَى مِنْ مَنَازِلِ أَهْلِ النَّارِ؛ ضِدُّ الدَّرَجَةِ.

(١١) يَتَمَنَّدُونَ: هَذَا فِعْلٌ مُشْتَقٌّ مِنَ (الْمَنْدِيلِ)؛ وَالْمَنْدِيلُ يَتَّخَذُ عَادَةً لِلْإِبْتِذَالِ وَالْإِهْمَانِ، وَفِي
الشُّفَا (١٠٩٦): «حَدَّثَنَا الثَّقَةُ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الشَّاشِيَّ كَانَ يَعِيبُ عَلَى أَهْلِ الْكَلَامِ كَثْرَةَ =

الله تعالى، ولا مُحْتَاطٌ عَلَى أَغْمَارِ^(١٢) الْمُقْلَدَةِ ولا زاجِرَ ذَا سُلْطَانٍ حَتَّى كَانَتْنا
مِلَّةً أُخْرَى، ولا نَعَارُ عَلَى ذَمِّهِمْ ولا نَرْقُبُ فِي أَغْراضِهِمْ إِلَّا ولا ذِمَّةً^(١٣).

وَعَرَضُ هَؤُلَاءِ الْفَسَقَةِ فِي سَرْدِ تِلْكَ الْحِكَايَاتِ الْمُرَوِّطَةِ قَائِلُهَا وَنَاقِلُهَا
فِي سُخْطِ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يُهَوَّنُوا الْفُسُوقَ وَالْمَعَاصِي عَلَى بُلْهِ الْعَوَامِّ، وَيَتَسَلَّلُوا
إِلَى الْفُجُورِ بِالنِّسَاءِ، بِذِكْرِهَا لِوَاذًا^(١٤) حَتَّى تَرَى الْمَرْأَةَ تَخْرُجُ مِنْ مَجْلِسِ
الْوَاعِظِ إِلَى مَنْزِلِهِ، فَتَسْأَلُهُ عَلَى التَّفْصِيلِ فَيَزِيدُهَا أَقْبَحَ مِمَّا أَسْمَعُهَا فِي
الْجُمْهُورِ، يَقُولُ لَهَا: هَذَا أَمْرٌ مَا سَلِمَ مِنْهُ عُظَمَاءُ الْمُرْسَلِينَ، فَكَيْفَ
نَحْنُ؟!

فَلا يَزَالُ يُهَوَّنُ عَلَيْهَا مَا كَانَ يَصْعُبُ مِنْ قَبْلُ، ف: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ
رَاجِعُونَ﴾^(١٥)، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾^(١٦).

= خَوْضِهِمْ فِيهِ تَعَالَى وَفِي ذِكْرِ صِفَاتِهِ، إِجْلَالًا لِاسْمِهِ تَعَالَى، وَيَقُولُ: هَؤُلَاءِ يَتَمَنَّدُونَ بِاللَّهِ
عَزَّ وَجَلَّ.

(١٢) أَغْمَار: جَمْعُ غَمَرٍ، وَهُوَ الَّذِي لَمْ يَجْرَبِ الْأُمُورَ (أَصْلُ الْكَلِمَةِ فِي الصَّبِيِّ إِذَا لَمْ يَجْرَبْ،
ثُمَّ قِيلَتْ فِي كُلِّ غَيْرٍ لَمْ تَعْرِكْهُ الْحَيَاةَ).

(١٣) الْإِلَّ: الْعَهْدُ، وَالْقَرَابَةُ. وَالذِّمَّةُ: الْعَهْدُ؛ قَالَ تَعَالَى مُتَحَدِّثًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ: ﴿لَا يَرْفُقُونَ
فِي مَوَافِقٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ [التوبة ١٠/٩].

(١٤) يُقَالُ: لَأَذْ بِكَذَا لِوَاذًا؛ أَيِ لَجَأَ إِلَيْهِ وَعَاذَ بِهِ، وَاسْتَعْتَر.

(١٥) الْبَقَرَةُ: ١٥٦/٢.

(١٦) الشُّعْرَاءُ: ٢٦/٢٢٧.

ذِكْرُ مَا اخْتَلَقُوهُ فِي قِصَّةِ دَاوُودَ(*) عَلَيْهِ السَّلَام

فمن شَنِيعِ تَخَرُّصِهِمْ^(١) في قِصَّةِهِ - عَلَيْهِ السَّلَام - مع امرأة أوريا، وقِلَّةِ مُرَاعَاتِهِمْ مع مَنْ جَعَلَهُ اللهُ تَعَالَى خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ وَشَدَّدَ مُلْكَهُ، وَآتَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَلَ الْخِطَابَ، وَسَخَّرَ لَهُ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ مَعَهُ وَالطَّيْرَ، وَالْآنَ لَهُ الْحَدِيدُ؛ فِيمَا اخْتَلَقُوهُ عَلَيْهِ أَنْ قَالُوا:

إنه أشرف يوماً من كُودٍ كانت في محرابه، فرأى امرأةً تَغْتَسِلُ في حُجْرَتِهَا، فَأَعْجَبَهُ حُسْنُهَا، وَلِينُ جَانِبِهَا، وَرَخَامَةُ ذَلِّهَا^(٢)، فَشَغَفَهُ حُبُّهَا، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ فَأَسْبَلَتْ شَعْرَهَا عَلَى جَسَدِهَا لِيَسْتَتِرَ مِنْهُ، فزادَهُ ذَلِكَ شَغَفًا بِهَا، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَيْهَا يَسْأَلُهَا: مَنْ بَعْلُهَا؟ فَأَخْبَرَتْهُ أَنَّهُ أوريا؛ فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَسَأَلَهُ أَنْ يَنْزِلَ لَهُ عَنْهَا بِطَلَاقِهَا، فَأَبَى، فَأَمَرَهُ بِالْخُرُوجِ إِلَى الْغَزْوِ، وَأَرْسَلَ إِلَى صَاحِبِ الْجَيْشِ أَنْ يُغْزِيَهُ وَيَقْدِمَهُ لِلْقِتَالِ فِي كُلِّ مَأْزِقٍ. ففعلَ صَاحِبُ الْجَيْشِ بِهِ ذَلِكَ مَرَّاتٍ حَتَّى قُتِلَ. فَلَمَّا بَلَغَ دَاوُودَ - عَلَيْهِ السَّلَام - أَنَّهُ قُتِلَ، أَرْسَلَ إِلَيْهَا لِيَتَزَوَّجَهَا فَاسْعَفَتْهُ، فَتَزَوَّجَهَا. وَكَانَ لَهُ مِثْلُ امْرَأَةٍ إِلَّا وَاحِدَةً فَأَتَمَّ بِهَا الْمِثْلَ. فَأَرْسَلَ اللهُ إِلَيْهِ إِذْ ذَاكَ الْمَلَائِكَةُ فَاخْتَصَمُوا عِنْدَهُ. فَأَفْتَاهُمْ بِمَا يُؤُولُ دِرْكَهُ عَلَيْهِ^(٣). فَخَصَمُوهُ^(٤). ثُمَّ قَالَ أَحَدُهُمَا لِلْآخَرِ: قُمْ: فَقَدَ حَكَمَ الرَّجُلُ عَلَى نَفْسِهِ! وَصَعِدَا إِلَى السَّمَاءِ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمَا؛ فَتَفَطَّنَ إِذْ ذَاكَ أَنََّّهُمْ مَلَائِكَةُ وَأَنَّهُ قُتِنَ وَأَخْطَأَ، فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ.

(*) قِصَّةُ دَاوُودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي: تَنْزِيهِ الْأَنْبِيَاءِ لِلشَّرِيفِ الْمُرْتَضَى: ٨٧، وَعِرَائِسِ الْمَجَالِسِ: ٢٧٩، وَابْنِ كَثِيرٍ: ٢: ٢٥٥، وَتَفْسِيرِ الطَّبْرِيِّ ٨٨/٢٣ - ٩٤، وَتَارِيخِ الطَّبْرِيِّ: ١: ٤٨، وَتَفْسِيرِ الْقُرْطُبِيِّ: ١٥: ١٦٥.

(١) تَخَرُّصٌ (وَحَرْصٌ): كَذَبٌ.

(٢) الرِّخَامَةُ: لِينٌ الْمَنْطِقِ، حَسَنٌ فِي النِّسَاءِ.

(٣) يُؤُولُ: يَرْجِعُ. وَالذَّرْكُ: التَّبَعَةُ، أَي: تَرْجِعُ تَبَعُهُ فَنَوَاهُ عَلَيْهِ.

(٤) خَصَمُوهُ: غَلَبُوهُ.

فهذه من أقوالهم أقلّ شناعة وبشاعة ممّا سواها من الأقوال في كتب القصص والتواريخ، وبعض التفاسير الفاسدة!

فصل

والذي ينبغي أن يُعَوَّل عليه في هذه القصة وما يُضاهيها من القصص، ما جاء به الكتاب العزيز، أو ما صحَّح عن الرسول - عليه السلام - من الخبر، وما سوى ذلك فيطرح هو ومُختلقه وراويه إلى حيث أَلَقَتْ رَحْلَهَا أُمُّ قُشْعَم^(٥)!

فصل

فأمّا قصة داوود عليه السلام فهي مذكورة على الكمال مفصلة في قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَضَمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ إلى قوله^(٦): ﴿وَاخْرَجَاهُ وَأَنَابَ﴾.

قال تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَضَمِ﴾ الآية.

اعلم - رحمك الله - أنّ استفهام الله تعالى لِحَلْقِهِ لا يجوز أن يُحمل على حقيقة الاستفهام لوجوب إحاطة علمه تعالى بجميع المعلومات على أتمّ التفصيل، فلم يبق إلا أن يكون الاستفهام هنا بمعنى التقرير والتنبيه لنبيه - عليه السلام - ليتّهيأ لقبول الخطاب، وليتفهّم ما يُلقى إليه من غرائب العلم وعجائب الكائنات. وأمّا أفراد الخضم وهما خضمان، فالعرب تُسمّي الواحد بالجمع والجمع بالواحد على وجه ما، فنقول:

(٥) أي إلى الموت والهلاك! وهذه الكناية ورّدت في معلقة زهير:
فشدّ ولم يَفزع بيوتاً كثيرةً لَدَيْ حَيْثُ أَلَقَتْ رَحْلَهَا أُمُّ قُشْعَمِ
وفي اللسان: أم قشعم: المنية، والحرب.
(٦) الآيات ٢١ إلى آخر ٢٤ من سورة: ص.

«خَصْماً» للواحد والجمع، كما تقول «ضَيْفاً» للواحد والجمع؛ وقال الله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ. إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾^(٧). فَسَمَاهُمْ باسم الواحد وَنَعْتَهُمْ بالجمع في قوله: ﴿الْمُكْرَمِينَ﴾، وكذلك ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾.

ومعنى ﴿تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾: أتوه من أعاليه ولم يأتوه من بابيه، ولذلك فَرَعَ منهم فإنه خاف أن يكونوا لُصُوصاً، أو يكون بعض رَعِيَّتِهِ تَأَرَّوا عليه. والمحرابُ في اللسان: صَدْرُ الْمَجْلِسِ وأَحْسَنُ ما فيه، ولذلك سُمِّيَ مِحْرَابُ الْمَسْجِدِ مِحْرَاباً. وقيل: المحرابُ: الْعُرْفَةُ. وفي فَرَعِهِ منهم - وكانوا ملائكة - دليلٌ على أنه ليس من شرطِ النُّبُوَّةِ أَنْ يَعْرِفَ النَّبِيُّ كُلَّ مَنْ يَأْتِيهِ من الملائكةِ حتى يُعَرَّفَ به، وفيه أيضاً دليلٌ على أن الملائكة يتصوَّرون على صُورِ الْآدَمِيِّينَ بِأَمْرِ رَبِّهِمْ وَقُدْرَتِهِ لَا يَقْدِرْتَهُمْ. وفي تصوُّرهم كذلك عريضٌ من القولِ لَسْنَا الْآنَ لَهُ، لكن الذي يصحُّ منها وَجْهَانِ:

إِمَّا أَنَّهُمْ يَنْسَلِخُونَ مِنْ أَعْضَائِهِمْ؛

أو تنعدم من أجسامهم بالإمساك عن خلق الأعراض فيها ما شاء الله وتبقى ما شاء، ثم يعيدهم إلى مقامهم كما كانوا قبل، فإنه ليس من شرط الحيِّ العالم أن تكثر أجزأؤه ولا أن تقل، فإن العالم منه جزءٌ فَرَدَ.

وأما قوله ﴿لَا تَخَفْ خَصْمَانِ﴾^(٨) ولم يكونا خصمين على الحقيقة، ولا بغى بعضهم على بعض، ولا اتَّفَقَ لهما ممَّا ذَكَرَاهُ شَيْءٌ^(٩)، ففيه دليلٌ

(٧) الدَّارِيَات: ٢٤/٥١ - ٢٥.

(٨) من سورة ص: ٢١/٣٨ - ٢٢: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَضُمِ. إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ. إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾.

(٩) أُجِيبَ أيضاً بعدد من الأجوبة:

- قالوا لا بد في الكلام من تقدير، فكأنهما قالوا: قَدَرْنَا كَأَنَّا خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ. قال القرطبي: وعلى ذلك يُحْمَلُ «إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ =

على أَنَّ الكَذِبَ أَنَّمَا يَقْبَحُ شَرْعاً؛ فَمَنْ أَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى أَنْ يُخْبِرَ بِمَا وَقَعَ وبِمَا لَمْ يَقَعْ فَأُخْبِرَ بِهِ فَهُوَ مُطِيعٌ مِمَّتِلٌ فَأَعِلَ الْحَسَنَ. وَلِذَلِكَ جَازَ لَهُمْ أَنْ يَقُولُوا لِلْمَعْصُومِ: ﴿فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾، وَالشُّطُطُ: الْجَوْرُ، مَعَ عِلْمِهِمْ بِأَنَّ الْمَعْصُومَ يَحْكُمُ بِالْحَقِّ وَلَا يَجُورُ فِي الْحُكْمِ، فَخَرَجَ لَهُمْ هَذِهِ الْأَقْوَالُ إِذْ هُمْ مَلَائِكَةٌ وَسَفَرَةٌ مَعْصُومُونَ، مَخْرَجَ أَقْوَالِ يُوسُفَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - إِذْ أَمَرَ مُنَادِيهِ فَنَادَى^(١٠): ﴿أَيُّهَا الْعِيزُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ وَمَا كَانُوا بِسَارِقِينَ، وَقَوْلُهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لِإِخْوَتِهِ^(١١): ﴿أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا﴾ وَلَمْ يَكُونُوا كَذَلِكَ، وَأَخَذَ أَخَاهُمْ عَلَى حُكْمِهِمْ لَا عَلَى حُكْمِ الْمَلِكِ، وَمَا كَانَ لَهُ أَنْ يَأْخُذَهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ، فَإِنَّ الْمَلِكَ كَانَ يَقْتُلُ السَّارِقَ، وَلَا فِي دِينِ إِخْوَتِهِ فِي شَرِيعَتِهِمْ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَسْتَعْبِدُونَ السَّارِقَ، وَأَخُوهُ لَمْ يَكُنْ سَارِقًا.

وَجَاءَ فِي الْأَخْبَارِ أَنَّهُ كَانَ يَنْقُرُ فِي الصُّوَاعِ وَيَقُولُ: إِنَّ صُوعِي هَذَا يُخْبِرُنِي بِكَذَا وَكَذَا، وَالصُّوَاعُ لَا يُخْبِرُ، حَتَّى قَالَ لَهُ بَنِيَامِينَ أَخُوهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ! سَلْ صُوعَاكَ يُخْبِرَكَ أَخِي أَخِي يُوسُفُ أَمْ مَيِّتَ؟!.

فَنَقَرَ فِي الصُّوَاعِ فَقَالَ: هُوَ حَيٌّ وَإِنَّكَ لَتَرَاهُ وَتَلْقَاهُ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ. فَأَقَامَ اللهُ تَعَالَى عُذْرَهُ فِي كُلِّ مَا أَخْبَرَ عَنْهُ وَفَعَلَهُ بِقَوْلِهِ^(١٢): ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا

= نَعِجَةً﴾ لِأَنَّ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ بِصُورَةِ الْخَبَرِ فَالْمُرَادُ إِيرَادُهُ عَلَى طَرِيقِ التَّقْدِيرِ لِنَبِيِّ دَاوُودَ عَلَى مَا فَعَلَ.

- وَقَالَ الثَّعْلَبِيُّ: قِيلَ كَانَ الْمَتَسَوِّرَانِ أَخَوَيْنِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِأَبٍ وَأُمٍّ. فَلَمَّا قَضَى بَيْنَهُمَا بِقَضِيَّةٍ قَالَ لَهُ مَلِكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ: فَهَلَّا قَضَيْتَ بِذَلِكَ عَلَى نَفْسِكَ يَا دَاوُودُ؟ ثُمَّ رَجَعَ الثَّعْلَبِيُّ الرِّوَايَةَ الْأُولَى أَيَّ أَنْهُمَا كَانَا مُلْكَيْنِ.

- وَقِيلَ: هَذَا مِنَ الْمُلْكَيْنِ تَعْرِيزٌ وَتَنْبِيهُ كَقَوْلِهِمْ: ضَرْبُ زَيْدٌ عَمْرًا وَمَا كَانَ ضَرْبٌ وَلَا نَعَاجٌ عَلَى التَّحْقِيقِ، كَأَنَّهُ قَالَ: نَحْنُ خَصْمَانِ هَذِهِ حَالُنَا!

(١٠) سورة يوسف: ٧٠/١٢.

(١١) سورة يوسف: ٧٧/١٢.

(١٢) يوسف: ٧٦/١٢.

= - قِيلَ فِي تَفْسِيرِ «كَدْنَا لِيُوسُفَ» مَعْنَاهُ صَنَعْنَا، وَدَبَّرْنَا، وَ: أَرَدْنَا.

لِيُؤْسَفَ ﴿ وَمَعْنَاهُ: بِذَلِكَ أَمَرَنَاهُ وَأَرَدْنَا مِنْهُ.

وارتفع الاعتراض على أنه: ما أخبر الملائكة - عليهم السلام - لداود - عليه السلام - إنما كان على جهة التجوز وضرب المثال بأخوة الإيمان، إذ ليس في الملائكة ولادة، وإذا لم يكن ولادة فلا أخوة نسب.

وتسمية النساء نعا جاً لتأنيهن وضعفهن (١٣)؛ ﴿أَكْفَلْنِيهَا﴾ كناية عن نكاحها (١٤) ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ بمعنى غلبنِي (١٥)، وهذا آخر خطاب الخصم، فقال له داود - عليه السلام -: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ ثم قيد الظلم بسؤال النعجة إذ قال لهم (١٦): ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾. وهذا آخر خطابه للخصم.

فصل

اعلموا - أحسن الله إرشادنا وإياكم - أن كل من تكلم في هذه القصة بما صح في حق داود - عليه السلام - وبما لم يصح إنما بنوه على أس هذه الخمس كلمات التي هي: ﴿أَكْفَلْنِيهَا﴾، ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾، ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾، و﴿لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾، ﴿وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾. وهي بحمد

= وفي تفسير القرطبي: وفيه جواز التوصل إلى أغراض بالحيل إذا لم تخالف شريعة، ولا هدمت أصلاً...

(١٣) والعرب تكني عن المرأة بالنعجة والشاة - لما هي عليه من السكون والعجز وضعف الجانب - وقد يكنى عنها بالبقرة والحجرة والناقعة.

(١٤) قيل في التفسير وجوه تقارب.

- قيل أي انزل لي عنها حتى أكفلها.

- وقال ابن عباس: أعطنيها.

- وعنه أيضاً أي تحول لي عنها (اتركها لي)، وقاله ابن مسعود.

- وقال ابن كيسان: اجعلها كفلي ونصيبي.

(١٥) قال ابن العربي: قيل معناه غلبنني ببيانه، وقيل غلبنني بسلطانه لأنه لما سأله لم يستطع خلافه.

(١٦) ص: ٢٤/٣٨.

الله تُخَرِّجُ له على مذهب أهل الحق، بأجمل ما ينبغي له وأكمل، والله المستعان.

فأول ما ينبغي أن نُقدِّم قبل الخوض في هذه المسائل وما يُضاهيها، ثلاث مقدمات.

إحداها: ما صحَّ من إجماع الأمة قاطبةً على عصمة الأنبياء من الكبائر.

والثانية: أنَّ كُلَّ محظورٍ كبيرةً على قولٍ من قال بذلك من أئمة السُّنة، وهو الصحيح، لاتِّحاده في الحظر. وإنما يُتصوَّر كبيرٌ وأكبر بالتحريض على تركها وتأكيد الوعيد على فعل بعضها دون بعض.

والثالثة: شرح هذه الأقوال وما يُضاهيها من القصص الموعود بها على مذهب من قال بتنزيه الأنبياء - عليهم السلام - عن الصغائر، وأنهم لا يُواقعون صغيرةً من الذُّنوب ولا كبيرة؛ وأن غاية أقوالهم وأفعالهم التي وقع فيها العتاب من الله تعالى لمن عاتبه منهم أن يكون على فعلٍ مُباح كان غيره من المباحات أولى منه في حق مناصبهم السَّنية.

وسنبيِّن ذلك في سياق الكلام إن شاء الله تعالى.

فصل

فأمَّا قولة داوود - عليه السَّلام - (أَكْفَلْنِيهَا) فهذا بمعنى: انزل لي عنها بطلاقٍ وأترَّوَّجُها بعدك. وهذا من القول المأذون في فعله وتركه، ومباح أن يقول الرَّجل لأخيه أو صديقه: انزل لي عن رَوجك بإضمار «إن شئت». وهذا بمشابهة من يقول لصاحبه أو أخيه: «بِعْ مِنِّي أَمَتَكَ إن شئت». وهذا قولٌ مباح ليس بمحظورٍ في الشرع، ولا مكروه. ومن ادَّعى حَظْره أو كراهته في الشرع فعليه الدَّليل، ولا دليل له عليه، كيف وقد جاء في

الصَّحِيحُ أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَمَّا وَاخَى بَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ وَبَيْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ قَالَ لَهُ الْأَنْصَارِيُّ: لِي كَذَا وَكَذَا مِنَ الْمَالِ أَشَاطَرْتُكَ فِيهِ، وَلِي زَوْجَانِ أَنْزِلْ لَكَ عَنْ إِحْدَاهُمَا، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَا لَكَ؛ أَرِنِي طَرِيقَ السُّوقِ.

وَوَجْهُ الاستدلال بهذا الحديث قوله بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَنْزِلْ لَكَ عَنْ إِحْدَاهُمَا، فَأَقَرَّهُ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَلَى هَذَا الْقَوْلِ وَلَمْ يُنْكِرْهُ عَلَيْهِ وَهُوَ لَا يُقَرُّ عَلَى مُنْكَرٍ، وَهُوَ الْمَعْلَمُ الْأَكْبَرُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَتَسْلِيمُهُ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْإِبَاحَةُ، لَكِنْ تَرْكُهَا بِمَعْنَى الْأُولَى وَالْأُخْرَى فِي كِمَالِ مَنْصَبِ النَّبُوَّةِ كَانَ أَوْلَى وَأَتَمَّ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَعَزَّيْنِي فِي الْخِطَابِ﴾ أَيُّ غَلْبَنِي فَتَزَلَّتْ لَهُ عَنْهَا، فَهُوَ غَلَبَ الْجِشْمَةَ لَا غَلَبَ الْقَهْرَ لِإِعْظَمِ مَنْزِلَةِ السَّائِلِ فِي قَلْبِ الْمَسْئُولِ، وَلَا غَلَبَ الْجِسِّ بِالْقَهْرِ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ؛ فَإِنَّهُ ظَلَمَ مَنْهِيٌّ عَنْهُ شَرْعاً تَتَحَاشَى عَنْهُ الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كَمَا تَقَدَّمَ.

فَإِنْ قِيلَ: كَانَ دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَلِيفَةً وَصَاحِبَ سَيْفٍ، وَالْمَطْلُوبُ مِنْهُ رَعِيَّةٌ؛ وَمِنْ شَأْنِ الرَّعِيَّةِ هَيْبَةُ الْمُلُوكِ وَالْمِبَادَرَةُ لِقَضَاءِ حَوَائِجِهِمْ لِكُونِهِمْ قَاهَرِينَ لَهُمْ، فَيَقْضُونَ حَوَائِجَهُمْ بِاللَّيْنِ خَوْفاً مِنَ الْعُنْفِ وَالْإِكْرَاهِ؛ وَفِي سُؤَالِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَمْلٌ عَلَى الْمَسْئُولِ مِنْ هَذَا الْبَابِ.

قُلْنَا: صَحِيحٌ مَا اعْتَرَضَتْ بِهِ، إِلَّا أَنَّ هَذَا الْحَمْلَ عَلَى الْمَسْئُولِ لَا يُتَصَوَّرُ إِلَّا فِيمَنْ عُهِدَ مِنْهُ الظُّلْمُ وَالْغَضَبُ مِنَ الْأَمْراءِ وَأَمَّا مِنْ عُهِدَ مِنْهُ الْعَدْلُ وَالْإِحْسَانُ كَخُلَفَاءِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، فَلَا يُتَصَوَّرُ ذَلِكَ فِي حَقِّهِمْ إِذَا مَنَعُوا الْمَبَاحَاتِ وَإِذَا لَمْ يُتَصَوَّرْ ذَلِكَ فِي حَقِّهِمْ مَعَ عَدَمِ الْعِصْمَةِ فَمَا ظَنُّكَ بِالْمَعْصُومِينَ الْمُنْزَهِينَ عَنِ الْخَطَايَا تَنْزِيَةً الْوُجُوبِ كَمَا تَقْدِمُ؟ فَبَطَلَ اعْتِرَاضُ هَذِهِ الْقَوْلَةِ فِي حَقِّ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي هَذَا الْبَابِ.

وأما قوله للخصم: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ﴾ ففيه اعتراض من وجه آخر نتخلص منه ونرجع إلى ما نحن بسبيله.

قالوا: كيف يكون داود - عليه السلام - مَنْ خَلَفَ الله في أرضه ويقطع على الظلم بقول الواحد قبل أن يسمع قول الآخر؟

فالجواب عن هذا يُتَصَوَّرُ من وجهين:

أحدهما: أنه سَمِعَ من الآخر حُجَّةً لا تتخلّصه، فقال للأول: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ أو صدّقه الآخر في قوله، فقال للأول: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾.

والثاني: أن يقول: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ بإضمار «إِنْ كَانَ حَقًّا مَا تَقُول». وهذا سائغ، وأما أن يقول له: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ من غير أن يسمع حُجَّة الآخر، فهذا لا نُسَوِّغُهُ في حقِّ عاقل مُنْصِفٍ، فكيف في حقِّ مَنْ آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب؟!

ألا ترى موقفَ يعقوب - عليه السلام - لما جاءه بنوه عشيّاً ييكون وهم جماعة فقالوا ما قالوا، فقال^(١٧): ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾، ولم يقبل أقوالهم ولا دُموعهم بغير دليل، فكيف يقبل داود عليه السلام قول الخصم من غير حُجَّة حتّى يقول له: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ هذا لا يصحّ في حقه. وأما قوله للخصم: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾، فعنّ به: بَخَسَكَ وَغَبَنَكَ في قولٍ كان غيِّره من المُباحات أولى بك منه. وحَدَّ الظلم في اللسان: وضع الشيء في غير موضعه. وقد قدّمنا أن قول قائلٍ لغيره: أَكْفَلْنِي زَوْجَكَ، ليس بظلمٍ منهٍ عنه شرعاً، فلم يَبْقَ إلّا ما ذكرناه في حقه.

وأما قوله: ﴿وَإِنْ كَثِيراً مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾^(١٨)

(١٧) يوسف: ١٢/١٨.

(١٨) الخُلَطَاءُ: قيل هم الأصحاب، وقيل: الشركاء.

فيخرج البغي مخرج الظلم حرفاً بحرف، فإنه إذا ساغ في اللسان - والمعتاد أن يُسمى مالك الكثير إذا طلب من المُقِلّ قليله ظالماً - فلا غرو أن يُسمى باغياً.

ولو أن رجلاً كان له عبدان مُطيعان له مُستقيمان غاية ما يُمكنهما من وجوه الاستقامة، فأحسن إلى أحدهما وأعطاه ووسّع عليه ورفّه معيشته، ولم يُحسن للآخر بعين ما ألزمه الله ممّا يتعين للعبيد على السادة لسمى العقلاء هذا السيد ظالماً باغياً، من حيث إنه أحسن لأحدهما ولم يُحسن مع الآخر مع تساويهما في الطاعة والنصيحة. والسيد مع هذا التخصيص بالإحسان لأحدهما، لم يأت في الشرع بمحظور ولا بمكروه. بل كل ما فعل معهما مباح له.

فهذا وجه من وجوه التخلص من هذه الأقوال، وأنها مباحة لقائلها وفاعل ما وقع منها من غير أن يلحقه ذم من الشرع ولا ثلب.

وأما قوله: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾، فمقصوده الأكابر الأفراد من المُحسنين المؤثرين، فإنهم يُحسنون في المباحات كإحسانهم في المَشروعات فيتعاونون في العشرة ويتنافسون في الخلطة، كما قال تعالى (١٩): ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

ثم قال: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ فإنهم الكبريت الأحمر. وهذا آخر خطابه للملائكة.

فصل

والذي يكمل به هذا التفسير ويعضده نكتة شريفة، وذلك أن الله تعالى أخبر بما وقع بين داوود - عليه السلام - وبين الخصم من مُحاورَةٍ ومُراجعة،

وَأَنَّ ذِكْرَ التَّكْفُلِ وَالْعِزَّةِ فِي الْخِطَابِ كِلَاهُمَا، وَمَا أَخْبَرَ بِهِ تَعَالَى عَنْ قَوْلِ قَائِلٍ فَلَيْسَ هُوَ فِي الْإِلْزَامِ كَالَّذِي يُخْبِرُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ وَحُكْمِهِ. فَمَنْ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ ظَلَمَ، وَغَلَبَ، وَبَغَى فِي الْمَشْرُوعَاتِ، فَهُوَ ظَالِمٌ، غَالِبٌ، بَاغٍ شَرْعاً. وَمَنْ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: ظَلَمْتُ، وَبَغَيْتُ، أَوْ قَالَ: ظَلَمَ زَيْدٌ وَغَلَبَ وَبَغَى، فَقَدْ يُخْبِرُ عَنْ حَقِيقَةِ شَرْعِيَّةٍ وَعَنْ مَجَازِيَّةٍ عَادِيَّةٍ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي مِثَالِ السَّيِّدِ وَالْعَبْدِ.

وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ هَذِهِ الْأَقْوَالَ الَّتِي وَقَعَتْ بَيْنَ دَاوُدَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَبَيْنَ خَصْمِهِ مِنَ الْمَجَازِيَّةِ الْعَادِيَّةِ، وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ لَمْ يَثْبِتْ بِهَا حُكْمٌ شَرْعِي وَإِذَا لَمْ يَثْبِتْ حُكْمٌ لَمْ تَثْبِتْ طَاعَةٌ وَلَا مَعْصِيَةٌ.

قَالَ تَعَالَى^(٢٠): ﴿وَوَظَنَ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ. فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾.

هَذَا الظَّنُّ مِنْهُ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ عِلْماً، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ ظَنًّا عَلَى مَعْنَى الظَّنِّ الَّذِي هُوَ التَّرَدُّدُ فِي الشَّكِّ مَعَ الْمِيلِ إِلَى أَحَدِ الطَّرَفَيْنِ.

فَإِنْ كَانَ بِمَعْنَى الْعِلْمِ فَهُوَ أَنَّهُ لَمَّا عَلِمَ أَنَّ الْخَصْمَيْنِ مَلَكَانَ وَأَنَّهُ الْمَقْصُودُ بِالْمِثَالِ وَأَنَّهُ قُتِبَ أَيُّ اخْتِبَرَ وَامْتُحِنَ بَعْضُ الْمُبَاحَاتِ، فَعُوتِبَ إِذْ لَمْ يَصْبِرَ فِيهَا صَبْرَ الْمُؤَثِّرِينَ حَتَّى قَالَ مَا قَالَ وَفَعَلَ مَا فَعَلَ ﴿فَخَرَّ رَاكِعاً﴾ يَعْنِي سَاجِداً، فَإِنَّ الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ يَسْمَى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِاسْمِ الثَّانِي ﴿وَأَنَابَ﴾: أَيُّ تَابَ مِنْ ذَلِكَ ظَاهِراً وَبَاطِناً. فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ غَفَرَ لَهُ ذَلِكَ أَيُّ دَرَأَ عَنْهُ الطَّلَبَ فِيمَا رَأَى هُوَ أَنَّهُ ذَنْبٌ فِي حَقِّهِ فَتَرَكَ الْأَوَّلَى كَمَا تَقَدَّمَ.

وَإِنْ كَانَ حُكْمُهُ عَلَى حُكْمِ الظَّنِّ فَيَكُونُ: أَنَّهُ غَلَبَ ظَنُّهُ عَلَى أَنَّ الَّذِي وَقَعَ مِنْهُ فَتْنَةٌ يَتَعَلَّقُ فِيهَا طَلَبٌ؛ إِذْ لِلَّهِ تَعَالَى فِي صَرِيحِ الْعَقْلِ أَنْ يَطْلُبَ مَا شَاءَ وَيَتْرَكَ مَا شَاءَ. فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَا طَلَبَ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ.

شرح قصة سليمان (*) عليه السلام

في آية الفِتنَةِ الكرسيِّ والجَسَدِ (**).

قال تعالى: (١) ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ﴾ ذكر أصحاب المَقالات في أشبه أقوالهم (٢) في هذه القصة، أنَّ سليمان - عليه السلام - كانت له امرأة من كرائمه (٣) اسمها جَرادة، وكان أبوها مَلِكاً من ملوك الجزائر البحريّة، وكان كافراً، فمنهم من قال: إنه خطبها إليه (٤) وتزوَّجها - ومنهم من قال: إنه سبّاها عُنفاً. وكان لها جمالٌ بارع فكان يُحبُّها ويقدمها على جميع نسائه. وكانت عند أبيها تعبدُ صنماً. فلما فقدت ذلك عنده اُكْثِرَتْ (٥) وحزنت وتغيّر حُسْنُها، فسألها عن حالها فأخبرته أنَّ ذلك من وحشيتها

(*) قصة سليمان في: تنزيه الأنبياء، للشريف المرتضى: ٩٢، وعرائس المجالس: ٣٢٢، وابن كثير ٢: ٢٦٧، وتفسير الطبري ٢٣: ١٠٠، وتاريخ الطبري ١: ٤٩٦، وتفسير القرطبي ١٥: ١٩٩.

(**) قال القاضي عبد الجبار الهمداني في تنزيل القرآن عن المطاعن: «وربما قيل في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ﴾ كيف يصح أن يعزل عن النبوة ويصير على كرسيه بعض الشياطين على ما يروى في ذلك؟

وجوابنا أن الذي يروى في ذلك كذب عظيم. والصحيح ما روي من أنه تفكّر في كثرة نسائه ومماليكه فقال - وقد آتاه الله من القوة - إني لأطوّهن في ليلة واحدة فيحملن ويحصل لي من الأولاد العدد الكثير ففعل، ولم تحبل إلا واحدة وألقت جسداً غير كامل الخلقة فحَمِلَ ذلك الجسد إلى كرسيه فتنبّه عنده على أن الذي فعله من التمني كالذنب، وأنه كان من حقّه أن ينقطع إلى الله تعالى فيما يرزق من الأولاد: قلّ أوكثر فأنا ب عند ذلك، وتاب مما كان منه. فأما أن يعزل ويؤخذ خاتم ملكه ويصير إلى بعض الشياطين، وأن يَطَّ ذلك الشيطان نساءه فذلك ممّا لا يجوز على الأنبياء، وقد رفع الله قدرهم عن ذلك.

(١) سورة ص: ٣٨/٣٤.

(٢) أي في أكثرها إمكان قبول؛ أو في أحسن أقوالهم.

(٣) من أزواجه الكريمات. وقيل في اسمها: الأمانة - وهذا كله من مختلفات الرواة، ومن دساتس الإسرائيليات.

(٤) في المخطوط: خطبها له.

(٥) اُكْثِرَتْ له: حزن.

لأبيها، ورَغِبَتْ إليه أن يصنَعَ لها الجُنُّ تمثالَ أبيها حتى تَنظُرَ إليه وتَشْفَى بعض الشِّفاء ممَّا تجدُّ من وَحْشَتِهَا لأبيها، ففعل ذلك لها. فكانت تدخلُ هي وجوارِها في بيت التَّمثال وتسجدُ له وتعبُّده هي وجوارِها خفيةً من سُليمان - عليه السَّلام - ففعلت ذلك أربعين يوماً. فَسَلَبَ الله مُلكه أربعين يوماً.

وقيل أيضاً: إنه كان لها أَخٌ وكان بينَهُ وبينَ رَجُلٍ من بني إسرائيل خصومةً، فسألته أن يحكَمَ لأخيها على خَصْمِهِ فَأَنعَمَ لها بذلك^(٦).

وهاتانِ القِصَّتَانِ على خللٍ فيهما أُسْلِمَ من سيَواهما في حقِّ سُليمان - عليه السَّلام - فَإِنَّهُ يتصور الحقُّ فيهما على وجوهٍ سَنذكرها فيما بعد إن شاء الله تعالى.

قالوا: وكان عُقبَى أمره معها في هذه القِصَّة أَنَّهُ كان إذا دخل الخلاء وضع عندها الخاتمَ تنزيهاً له أن يدخلَ بِهِ^(٧) الخلاء لِمَا تَضُمَّنُ من أسماءِ الله تعالى. فَلَمَّا أراد الله تعالى سَلْبَ مُلكه تمثّل لها على صورةِ سُليمان - عليه السَّلام - شَيْطَانٌ يُسَمَّى صَخْرًا، وأَراها أَنَّهُ خارجٌ من الخلاء فَأَعْطَتْهُ الخاتمَ فطار به ورمَاهُ في البَحْر، فخرج سُليمان - عليه السَّلام - فطلب منها الخاتمَ فَأَخْبَرَتْهُ بما كان من أمره، فعَلِمَ أَنَّهُ قد فُتِنَ من أَجلِها، فخرجَ على وجهه إلى الصَّحراءِ يَبْكِي ويرغَبُ وَيُنِيبُ.

ثم إنَّ الشَّيْطَانَ تصوّرَ على صورةِ جَسَدِ سُليمان - عليه السَّلام - وقعدَ على كُرْسِيِّه الَّذِي كان يقعدُ عليه لِفَضْلِ القِضاءِ بين النَّاسِ، وهو معنَى قوله ﴿وَالْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾ أي جَسَداً مثل جسدِ سُليمان - عليه السَّلام - وبقي يَخْلُفُهُ على كُرْسِيِّه وَيَعِثُ بني إسرائيل غايةَ العَبَثِ بِأحكامٍ فاسدةٍ وأوامرٍ جائرةٍ أربعين يوماً؛ حتى وَجَدَ سُليمان - عليه السَّلام - خاتمه في

(٦) أي أجابها إلى طلبها ووافقها (من قول: نعم).

(٧) في المخطوط «بها» وهو من سهو الناسخ.

بَطْنِ حُوتٍ كَانَ قَدْ التَّقَمَهُ حِينَ أَلْقَاهُ صَخْرٌ فِي الْبَحْرِ. فَلَمَّا فَطَنَ الشَّيْطَانُ
بِذَلِكَ فَرَّ عَلَى وَجْهِهِ، فَجَاءَ سُلَيْمَانُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَأَخْبَرُوهُ بِمَا فَعَلَ الشَّيْطَانُ
بَعْدَهُ، فَأَمَرَ الْجِنَّ بِطَلْبِهِ فَجَاؤُوا بِهِ، فَأَمَرَ أَنْ يُعْمَلَ لَهُ بَيْتٌ مَنْقُوبٌ فِي حَجَرٍ
صَلْدٍ وَجَعَلَهُ فِيهِ وَأَطْبَقَ عَلَيْهِ بِحَجَرٍ آخَرَ وَأَلْقَاهُ فِي الْبَحْرِ فَبَقِيَ فِيهِ إِلَى يَوْمِ
الْبَعْثِ.

وَهَذَا أَسْلَمَ مَا قَالُوهُ فِي قِصَّتِهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَزَادَ فِيهَا الْفَجْرَةَ أَنَّ
الشَّيْطَانَ كَانَ يَقَعُ عَلَى نِسَاءِ سُلَيْمَانَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - . . . وَهُنَّ حُيُصٌ. وَلِذَا تَفَطَّنُوا
أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ سُلَيْمَانُ، وَحَاشَى وَكَلَّا مِنْ هَذِهِ الْوَصْمَةِ الْخَبِيْثَةِ أَنْ يَفْعَلَهَا اللَّهُ
تَعَالَى مَعَ أَنْبِيَائِهِ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - وَكَيْفَ، وَالْأَمَّةُ مُجْمَعَةٌ عَلَى أَنَّهُ مَا زَلَتْ امْرَأَةً
نَبِيٍّ قَطُّ: كَانَتْ مُؤْمِنَةً أَوْ كَافِرَةً. وَخِيَانَةُ امْرَأَةِ نُوحٍ وَامْرَأَةِ لُوطٍ - عَلَيْهِمَا
السَّلَامُ - إِنَّمَا كَانَتْ فِي إِظْهَارِهِمَا الْإِيمَانَ وَإِخْفَائِهِمَا الْكُفْرَ لَا غَيْرَ. وَكُلُّ مَا
ذَكَرُوهُ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ تُجَوِّزُ^(٨) لَهُ عَلَى أَوْجِهِ سَنَذْكُرُهَا بَعْدَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى،
سِوَى هَذِهِ الْقَوْلَةِ الْخَبِيْثَةِ.

وَأَمَّا قِصَّةُ التَّمَثَالِ الَّذِي صُنِعَ لَهَا، وَمَا قِيلَ أَنَّهُ حَكَمَ لِأَخِيْهَا^(٩)، فَيَتَصَوَّرُ
فِيهَا الْجَوَازُ مِنْ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونَ صُنِعَ التَّمَثَالُ مُبَاحاً لَهُ كَمَا كَانَ مُبَاحاً لِعِيسَى - عَلَيْهِ
السَّلَامُ - قَالَ تَعَالَى^(١٠): ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا
فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ فَصَحَّ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ عِيسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - كَانَ يُصَوِّرُ
التَّمَثَالِ بِإِذْنِ اللَّهِ. وَكَذَلِكَ سُلَيْمَانُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - إِذَا صَحَّ أَنَّهُ لَمْ يُحَرِّمْ عَلَيْهِ
فِعْلُهُ فِي شَرْعِهِ. وَالْأَظْهَرُ فِيهِ أَنَّهُ لَمْ يُحَرِّمْ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى^(١١):

(٨) أَي: وَقَعَ لَهُ التَّأْوِيلُ.

(٩) أَصْلُ هَذِهِ الْعِبَارَةِ فِي الْمَخْطُوطِ: «أَوْ مَا قَالَ إِنَّهُ يَحْكُمُ لِأَخِيْهَا». وَقُرَأَتْهَا عَلَى الْوَجْهِ الْمُثْبِتِ.

(١٠) الْمَائِدَةُ ١١٠/٥

(١١) سَبَأُ ١٣/٣٤

﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ﴾ والتَمَاثِيلُ قد تكون على صُورِ
الْأَنَاسِيِّ^(١٢)؛ قال امرؤ القيس^(١٣):

ويا رَبَّ يَوْمٍ قَدْ لَهَوْتُ وَلَيْلَةٍ بَانَسَةٍ كَأَنَّهَا خَطٌّ تِمْشَالٍ!

وَأَمَّا إِنْ عَبَدْتَ هِيَ صَنَمًا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَشْعَرَ بِهِ سُلَيْمَانُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فلا
بَأْسَ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ، فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - عُنُوا بِالظُّوَاهِرِ، وَأَمَرُ الْبَوَاطِنِ
إِلَى اللَّهِ تَعَالَى. وَقَدْ كَانَ الْمُنَافِقُونَ يُصَلُّونَ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ - وَيَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ فِي بُيُوتِهِمْ خِيفَةً مِنْهُ. جَاءَ فِي الصَّحِيحِ عَنْهُ - عَلَيْهِ
السَّلَامُ - أَنَّهُ قَالَ^(١٤): «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»
الْحَدِيثُ... إِلَى قَوْلِهِ: «وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ» يَعْنِي فِيمَا أَبْطَنُوهُ.

وَأَمَّا قَوْلُهُمْ: إِنَّهَا طَلَبْتُ مِنْهُ أَنْ يَحْكُمَ لِأَخِيهَا عَلَى خَصْمِهِ فَقَالَ لَهَا:
نَعَمْ، فَيَجُوزُ لَهُ أَنْ يَقُولَهَا وَهُوَ يُضْمِرُ فِي نَفْسِهِ: إِذَا كَانَ الْحَقُّ لَهُ لَا عَلَيْهِ؛ ثُمَّ
طَيَّبَ نَفْسَهَا بِـ (نَعَمْ) لِكُونَ النِّسَاءِ تَطِيبُ أَنْفُسَهُنَّ بِمِثْلِ هَذِهِ الْمُشْتَبِهَاتِ^(١٥)،
لِضَعْفِ عُقُولِهِنَّ وَجَهْلِهِنَّ بِالْحَقَائِقِ. وَلَا يَجُوزُ فِي حَقِّهِ سِوَى هَذَا، بِدَلِيلِ
أَنَّهُ لَوْ أَضْمَرَ فِي نَفْسِهِ أَنْ يَحْكُمَ لَهُ؛ وَالْحُكْمُ عَلَيْهِ^(١٦)؛ لَوَقَعَ فِي كَبِيرَةٍ
مُحَرَّمَةٍ؛ وَهِيَ أَنْ يَتَوَيَّرَ أَنْ يَحْكُمَ بِالْجَوْرِ، وَحَاشَاهُ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ
ذَلِكَ كَمَا تَقَدَّمَ.

وَأَمَّا كَوْنُ الشَّيْطَانِ يَخْلُقُهُ عَلَى كُرْسِيِّهِ وَيَحْكُمُ بِالْبَاطِلِ، فَلَيْسَ عَلَى نَبِيِّ

(١٢) الْأَنَاسِي: جَمْعُ الْإِنْسَانِ.

(١٣) الْبَيْتُ لِأَمْرِئِ الْقَيْسِ (دِيَوَانُهُ: ٢٧) مِنْ قَصِيدَةٍ مَشْهُورَةٍ أَوَّلُهَا:

أَلَا عَمَّ صَبَاحًا أَيُّهَا الطَّلَلُ الْبَالِي وَهَلْ يَعْمَنُ مِنْ بَاتٍ فِي الْعَصْرِ الْخَالِي

(١٤) فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ: ١: ٥١ وَطَد: ٥٣، وَصَحِيحُ الْبُخَارِيِّ ١: ١١١، وَرَوَايَتُهُ: «... حَتَّى يَشْهَدُوا
أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ...».

(١٥) يَعْنِي فَهَمُّهَا هِيَ مِنْ (نَعَمْ) الْمَوَافَقَةِ الْمَطْلُوقَةِ (بِإِلَّا شُرُوطٍ) وَقَصْدُهُ: نَعَمْ إِذَا كَانَ الْحَقُّ لَهُ.
وَهَذَا يَدْخُلُ فِي الْمَلَايِينِ، وَالْمَعَارِيضِ، وَالْكَلَامِ الَّذِي يَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ.

(١٦) الْوَاوُ فِي (وَالْحُكْمِ عَلَيْهِ) هِيَ وَاوُ الْحَالِ.

الله - عليه السَّلام - لو صحَّ في ذلك دَقِيقٌ ولا جَلِيلٌ^(١٧) من الإثم، ؛ وهذا بمِثاب عيسى - عليه السَّلام - حين عُبدَ من دونِ الله، كما جاء في الصَّحيح^(١٨) عنه - عليه السَّلام - قال: فَيَأْتُونَ عِيسَى وَلَمْ يَذْكُرْ ذَنْباً، فيقولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ وَقَدْ عُبدْتُ أَنَا وَأُمِّي مِنْ دُونِ اللَّهِ. فامْتَنَعَ عَنْهَا^(١٩) حَيَاءً مِنْ اللَّهِ.

ومع ذلك فالخبرُ باطلٌ من وجهٍ آخر؛ وهو أنَّه لو جازَ أن يخلَفَ النبيُّ شيطاناً على صورته ويستنبط في شريعته أحكاماً فاسدة، لكان ذلك إخلالاً بالنبوة إذ كان يتخيَّلُ النَّاسُ ذلك في سائرِ أحكامِ الأنبياء حتى لا يَتميَّزَ حكمُ النبي من حكمِ الشَّيطان؛ فيشكُلُ الأمرُ على المكلفين ولا يتقون أمراً بعد، وهذا بمِثابة تقدير خرق العادة على أيدي الكذَّابين في ادِّعاءِ النبوة. وهذه الأَلْقِيَّةُ^(٢٠) في هذه القِصَّة من دَسائسِ البرَاهِمَةِ في إبطالِ النُّبُوتِ والله أعلم.

وأما ما يليقُ بِسُلَيْمَانَ - عليه السَّلام - في بابِ الأوَّلِي والمُبَاح في هذه القِصَّة، فهو أنَّه ما كان يقولُ لامرأته في طلبِ الحُكُومَةِ لِأَخِيهَا: نَعَمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُ الْحَقُّ أَوْ يَتَبَيَّنَ لَهَا مَا أَضْمَر، فيقولُ لها: نَعَمْ، إِذَا وَجَبَ لَهُ الْحَقُّ فِيهَا فَإِنَّهُ لَا يَحْكُمُ بِجَوْرِ وَلَا يَجُوزُ عَلَيْهِ ذَلِكَ.

وأما صنعه لها التمثال على الوجه الذي تقدَّم فَمَا عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ ذَنْبٌ وَلَا عَتَبٌ، وَلَوْ كَانَ أَيْضاً صُنْعُهُ مُحَرِّماً لَمَا صَنَعَهُ لَهَا أَصْلاً. فَإِنَّ صُنْعَ التَّمْثَالِ

(١٧) أي ليس عليه إثم: لا صغير ولا كبير.

(١٨) انظر صحيح مسلم ١: ١٨٥، وصحيح البخاري ٥: ١٤٧ و ٢٢٦، ومسنَد الإمام أحمد بن حنبل ٢: ٤٣٦، والعبارة: «وَقَدْ عُبدْتُ أَنَا وَأُمِّي مِنْ دُونِ اللَّهِ...» لم ترد في الكتب الثلاثة.

(١٩) أي امتنع عن طلب الشفاعة.

(٢٠) الأَلْقِيَّةُ: ما أُلْقِيَ. والمقصود ما أُلْقِيَ - أي ما دُس - في قصة سليمان عليه السلام من أقوال البراهمة، الذين لا يؤمنون بالنُّبُوت؛ ويبتلون بها جملةً. وهذه واحدة من ضلالات الوثنية وفي تفسير أبي حيان الغرناطي، وقد جاء بعد مؤلف هذا الكتاب بزمان، أنَّ فيما نقله بعض المفسرين في قصة الكرسي أقوالاً يجب البراءة منها، «وهي ممَّا لا يحلُّ نقلها، وهي إمَّا من أوضاع اليهود أو الزنادقة». قال: ولم يبيِّن الله تعالى الفتنة ما هي ولا الجسد الذي ألقاه على كرسي سليمان، وذكر كلاماً مشابهاً لما قال المؤلف رحمه الله.

من الكبائر التي أتى فيها الوعيدُ الكثيرُ في الحديث المشهور^(٢١) في الثلاثة الأصناف الذين تلتقطهم أَعناقُ النار في المَحْشَر.

ومنهم من قال إنّما وقع العتاب عليه من جهة اشتغاله بِعَرَضِ الخيل عليه حتى غربت الشمس وفاته صلاةُ العشاء، وهذا أيضاً إذا صَحَّ فليس له في تركها كسبٌ ولا عُقْبَةٌ طلب^(٢٢)، فإنه ناسٍ، والنَّاسِي لا طلبَ عليه فيما نَسِيه، بالإجماع، قال تعالى مُخْبِراً عن موسى - عليه السلام - أنّه قال^(٢٣): ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ وجاء عنه - عليه السلام - أنه قال^(٢٤): «إنّما أنا بشرٌ كما تَسُونُ».

ومنهم من قال: «إنّما كانت وَهْلَتُهُ^(٢٥) لِمَا وَرَدَ بِهِ الخبرُ^(٢٦) في قوله: لَا طِيفْنَ اللَّيْلَةَ بِمَثَرَةِ امْرَأَةٍ تَلِدُ كُلَّ امْرَأَةٍ غُلَاماً يقاتلُ في سبيل الله، فقال له صاحبه: قل إن شاء الله، فلم يَقُلْ ونَسِيَ؛ فَأُطَافَ بهنَّ ولم تلدْ منهنَّ إلا امرأة نصفَ إنسان»! قال النبي - عليه السلام - لو قال إن شاء الله لم يَحْنُثْ وكان أرجى لحاجته.

(٢١) في مسند أحمد ٢: ٣٣٦ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم: «يُخْرَجُ عُنُقُ مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَهُ عَيْنَانِ يَبْصُرُ بِهِمَا، وَأُذُنَانِ يَسْمَعُ بِهِمَا، وَلِسَانٌ يَنْطِقُ بِهِ، فَيَقُولُ: إِنِّي وَكَلْتُ بِثَلَاثَةٍ: بِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، وَبِكُلِّ مَنِ ادَّعَى مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ، وَالْمَصُورُونَ».

(٢٢) ليس له عُقْبَةٌ طلب: أي ليس عليه شيء من المؤاخلة.

(٢٣) الكهف: ٧٣/١٨.

(٢٤) صحيح مسلم ١: ٤٠٢.

(٢٥) الوهل: السهو، والغلط، والنسيان.

(٢٦) في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم قال سليمان لأطوفنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى تِسْعِينَ امْرَأَةً كُلُّهَا تَأْتِي بِفَارَسٍ يقاتلُ في سبيل الله. فقال له صاحبه قل إن شاء الله، فلم يقل إن شاء الله فطاف عليهنَّ جميعاً فلم تحملْ منهنَّ إلا امرأة واحدة جاءت بشقِّ رجل! وإيم الذي نفس محمد بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون». صحيح مسلم: ١٢٧٦.

قالوا: وهو الجسد الذي ألقى على كُرسِيه (٢٧). وهذا يعضده الخبرُ الصحيح. ويُتصوّر العتابُ فيه من ترك الاستثناء فإنه أولى. فإن كان تركه بعدما أُمِرَ به، فتركه ناسياً.

وقد ذكر المُفسِّرون أنَّ النبي - صلى الله عليه وسلم - لما طلب منه اليهود أن يُخبرهم عن قصة أصحاب الكهف، فقال: غداً أخبركم بها ونسي الاستثناء أبطأً الوحي عنه أياماً حتى نزلت عليه القصة. وقيل له مع ذلك (٢٨): ﴿ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً. إلا أن يشاء الله وأذكر ربك إذا نسيت﴾ معناه: إذا نسيت الاستثناء ثم تذكرت فاستثن بالمشيئة. وفي هذا أنَّ الاستثناء بعد مدة يرفع الحرج ولا يرفع الكفارة. ولذا أجازه ابن عباس - رضي الله عنهما - بعد سنة (٢٩).

فخرج من عموم ما ذكرناه في جميع القصة أن العتاب من الله تعالى لسليمان - عليه السلام - إذا صحَّ إنما كان على تركه الأولى من المباحات. والأظهر في هذا الحديث أنه ترك مندوباً إليه، ومن ترك المندوب فلا إثم عليه، فهو بمثابة ترك المباح في نفي الذنب كما تقدّم، والله الموفق للصواب.

(٢٧) وقيل في (الجسد) المذكور أقوال منها:

- أن الجسد هو آصف بن برخيا الصديق كاتب سليمان.
- وقيل هو سليمان عليه السلام نفسه، وذلك أنه مرض مرضاً شديداً حتى صار جسداً. وقد يوصف به المريض المضنى فيقال: كالجسد الملقى.

(٢٨) الكهف: ٢٣/١٨ - ٢٤

وفي كتب التفسير وأسباب النزول - والعبارة في القرطبي ٣٨٥/١٠ -: عاتب الله تعالى نبيه عليه السلام على قوله للكفار حين سأله عن الروح والفتية وذو القرنين: غداً أخبركم بجواب أسئلتكم ولم يستثن في ذلك. فاحتبس الوحي عنه خمسة عشر يوماً حتى شق ذلك عليه وأرجف الكفار به فنزلت سورة الكهف مفرجة.

(٢٩) حكى عن ابن عباس (رض) أنه إن نسي الاستثناء ثم ذكر ولو بعد سنة لم يحنت إن كان حالفاً. قال القرطبي: وهو قول مجاهد.

شرح قصّة يوسف(*) عليه السلام

في إضافة الله تعالى له الهمّ عند مُراودة امرأة العزيز له عن نفسه، والذي ينبغي أن نقدّم أولاً، الإعلام بأن يوسف - عليه السلام - كان نبياً قبل المُراودة والهمّ؛ والدليل على ذلك أنه لو لم تثبت نبوّته قبل ذلك لم تهتمّ الأمة بذكر همّه، لأنّ العصمة المُجمّع عليها لا تُشترط للنبيّ إلا بعد ثبوت نبوّته لا قبلها. ومع ذلك فإنّ النبيّ لا تثبت له معصية مشروعة تركها قبل النبوة ولا بعدها. وسنُشيع القول في ذلك في قصّة آدم - عليه السلام - إن شاء الله تعالى.

وأما إثبات نبوّته قبل همّه من الكتاب فمن قوله تعالى^(١): ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

وأجمّعوا على أنّ هذا الحكم والعلم في حق يوسف - عليه السلام - أنهما النبوة^(٢)، ثم قال تعالى بعدما ذكر الحكم والعلم^(٣): ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي

(*) قصة يوسف عليه السلام في تنزيه الأنبياء للشريف المرتضى: ٤٦، وعرائس المجالس: ١١٨، وابن كثير: ١: ٣١٧، وتفسير الطبري ١٢: ١٠٦، وتاريخ الطبري ١: ٣٣٧، وتفسير القرطبي ٩: ١٦٢.

(١) يوسف: ٢٢/١٢

(٢) ومن قال إنه أوتي النبوة صغيراً قال: لما بلغ أشده زناه فهماً وعلماً. وقال ابن عطية الأندلسي صاحب المحرر الوجيز: إن كون يوسف (ع) نبياً في وقت هذه النزلة لم يصح، ولا تظاهرت به رواية. وإذا كان كذلك فهو مؤمن قد أوتي حكماً وعلماً. ويجوز عليه الهمّ الذي هو إرادة الشيء دون واقعه وأن يستصحب الخاطر الرديء على ما في ذلك من الخطيئة، وإن فرضناه نبياً في ذلك الوقت فلا يجوز عليه عندي إلّا الهمّ الذي هو خاطر. ولا يصح عليه شيء مما ذكر من حل نكته ونحوه لأن العصمة مع النبوة. قال القرطبي: لكن قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ يدل على أنه كان نبياً... وإذا كان نبياً فلم يبق إلّا أن يكون الهمّ الذي همّ به ما يخطر في النفس ولا يثبت في الصدر، وهو الذي رفع فيه الله المؤاخذه عن الخلق...

(٣) يوسف: ٢٣/١٢.

هو في بيتها عن نفسه ﴿٤﴾. الآية.

وأما همُّه فأول ما ينبغي أن نُقدِّم أنَّ الهمَّ في اللسان: الإرادة لا غير، فإنَّ سُمِّيَ الفعلُ همًّا فمَجَازٌ من باب تسمية الشيء باسم الشيء إذا قاربَه أو كان منه بسبب. فلما كانت الأفعال مرتبطة بالإرادة التي هي الهمُّ سُمِّيَتْ همًّا. فيقال لمن نصَّب أواني الخمر وما يحتاجُ إليه شرابها: همٌّ، وكذلك يُقال لمن خلا بامرأة فلاعبها؛ وذلك لأنَّ الهمَّ الحقيقيَّ محلُّه القلب؛ وهو غير محسوس، فلما لم ندركه بالحواس لم نعلمه، فإذا أدركنا أسبابه الدالة عليه بالحواس قلنا: همٌّ، أي فعل أفعالاً دلت على همِّه بها في باطنه، فثبت أنَّ الهمَّ الحقيقيَّ هو الإرادة لا الفعل.

جاء في الصحيح عنه - عليه السلام - أنه قال^(٤): «مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا. وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ شَيْئًا، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةٌ وَاحِدَةٌ» الحديث.

فهذا أدلُّ على أنَّ الهمَّ غيرُ الفعل، قال الشاعر^(٥):

هَمَمْتُ وَلَمْ أَفْعَلْ وَكِدْتُ وَلَيْتَنِي تَرَكْتُ عَلَى عُثْمَانَ تَبْكِي حَلَالُهُ!!
فأخبر أنَّه همٌّ وَلَمْ يَفْعَلْ^(٦)، وإذا كان هذا هكذا فما بال الجَهْلَةِ باللسان المُقلِّدين المُجازِفين في الحقائق يقولون: قعد منها مقعد الرجل من المرأة، وحلَّ عقد نطاقها وهو ينظر إلى أبيه تارة وإلى الملك أخرى ثم يعود لحلِّ العقد!!

(٤) في صحيح مسلم ١: ١٤٧ في حديث الإسراء.

(٥) البيت لضابي بن الحارث البرجمي، في الكامل في الأدب: ٤٩٦، ٥٠٣، وانظر تخرجاته.

(٦) في اللسان: الهمُّ: (ما همَّ به في نفسه.

وهَمَّ بالشيء: نواه، وأراده، وعزم عليه.

ونحنُ مع ذلك نَعْلَمُ قَطْعاً أَنَّ أَحَدَنَا عَلَى جَهْلِنَا وعدمِ عصمتنا وسوء أدبنا؛ لو كان على تلك الحالة وكشفت عليه أُمَّتُهُ لَانْقَبَضَ وتغيَّر عليه حاله، فكيف بنا إذا كشف علينا آباؤنا وكُبرأؤنا؟ فكيف الملائكة؟!

فانظرْ إلى مَقْتِ هذه القَوْلَة وماذا جَمَعْتَ من الاجتراء والافتراء على أنبياء الله تعالى، مع صَفَاقَةِ الوجوه وعدم الحياء، والتَّهَانِ بِذِكْرِ الْمُصْطَفِينَ الْأَخْيَارِ. وقد ذكرها الهمداني وغيره^(٧) في شرح قصّة يوسف - عليه السلام - مع أَنَّ الهمَّ في اللِّسَانِ: هو الْخَاطِرُ الْأَوَّلُ، فإذا تَمَادَى سُمِّيَ إِرَادَةً وَعَزْماً، فَإِنَّ لَمْ يَعْرِضْهُ نَقِضُ سُمِّيَ نِيَّةً. ثم إِنَّ الله تعالى وَصَفَهُ بِالْخَاطِرِ الْأَوَّلِ فَقَالَ: ﴿هَمْ﴾ وَهُمْ يَقُولُونَ: فَعَلَ وَصَنَعَ! لَا لَعاً^(٨) لِعَثْرَتِهِمْ وَلَا سَلَامَةً!

فصل

فإن قيل: فما الحقّ الذي يُعَوَّلُ عليه في هذا الهمّ؟! فنقول؛ أولاً: إِنَّ بَعْضَ الْأَثْمَةِ ذَكَرُوا أَنَّ الْإِجْمَاعَ مَنَعَقْدَ عَلَى عَصْمَةِ بَوَاطِنِهِمْ مِنْ كُلِّ خَاطِرٍ وَقَعَ فِيهِ النَّهْيُ. وللمُحَقِّقِينَ أَقْوَالٌ فِي هَذَا الهمّ نذكر المختار منها إن شاء الله تعالى.

فمنهم من قال: إِنَّ فِي الْكَلَامِ تَقْدِيماً وَتَأْخِيراً، وترتيبه أن يكون: ولقد هَمَّتْ به، ولولا أن رأى برهان ربّه لَهَمَّ بها. ويكون البرهان هنا النُّبُوَّةَ وَالْعِصْمَةَ وما كاشَفَ من الآيات وَخَوَارِقِ الْعَادَاتِ. والتَّقْدِيمُ والتَّأْخِيرُ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ سَائِعٌ.

(٧) وهي شائعة في كتب التفسير، تُذكر من المفسرين بين سرد وتلخيص، وردّ واعتراض، وهاكمها كثير منهم؛ وردّها بجملة من وجوه الاعتراض.

(٨) العرب تدعو على العائر فتقول: لالعل لك؛ أي: لا أقامك الله. وتدعوه فتقول: لعل لك؛ أي: أقام الله عثرتك.

ومنهم من قال: هَمَّ بِحُكْمِ الْبَشَرِيَّةِ مَعَ الْعَقْلَةِ عَنْ ارْتِكَابِ الْتَهْيِ. ثُمَّ ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى الْإِيمَانَ وَتَحْرِيمَ الْمَعْصِيَةِ وَشُؤْمَهَا وَالْوَعِيدَ عَلَيْهَا؛ وَهُوَ الْبَرَهَانُ الْأَعْظَمُ فَصَّرَفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ، وَلِذَا قَالَ بَعْضُهُمْ: هَمَّ وَمَا تَمَّ؛ لِأَنَّ الْعِنَايَةَ مِنْ تَمَّ!

ومنهم من قال: كَادَ أَنْ يَهْمَ لَوْلَا الْعِصْمَةُ السَّابِقَةُ، فَيَكُونُ الْهَمُّ هُنَا مَجَازًا.

ومنهم من قال: هَمَّ هَمَّ الْفُحُولِيَّةِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَحْلًا شَابًا خَلَّتْ بِهِ امْرَأَةٌ ذَاتُ جَمَالٍ وَغُنْجٍ، وَطَالَبَتْهُ تِلْكَ الْمَطْلَبَةُ، فَاهْتَزَّ هَزَّةَ الْفَحْلِ بِهِزْ ضَرُورِيٍّ غَيْرِ مُكْتَسَبٍ^(٩)، فَسُمِّيَ ذَلِكَ الْاهْتِزَازُ هَمًّا لَكُونِهِ مِنْ أَسْبَابِ الْهَمِّ كَمَا تَقَدَّمَ. وَيَكُونُ الْهَمُّ عَلَى هَذَا التَّفْسِيرِ ضَرُورِيًّا وَلَا طَلَبَ فِي الضَّرُورِيَّاتِ، وَأَقُولُ إِنَّهُ إِنْ كَانَ هَمَّ مُكْتَسَبًا لَهُمَّ وَلَمْ يَفْعَلْ فَلَا لَوْمَ وَلَا ذَنْبَ؛ بِدَلِيلِ الْحَدِيثِ الْمَتَقَدِّمِ الَّذِي مِنْهُ قَوْلُهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ^(١٠) - «وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ شَيْئًا» مَعْنَاهُ: لَمْ يُكْتَبْ لَهُ صَغِيرَةٌ وَلَا كَبِيرَةٌ. وَجَاءَ فِي حَدِيثٍ آخَرَ^(١١): أَنَّ تَارِكَ الْخَطِيئَةِ مِنْ أَجْلِ اللَّهِ تُكْتَبُ لَهُ حَسَنَةٌ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى لِلْمَلَائِكَةِ: اكْتُبُوا لَهُ حَسَنَةً فَإِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَّائِي، أَيِّ مِنْ أَجْلِي. وَهَذَا يَنْظَرُ إِلَى قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى^(١٢): ﴿فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ وَإِذَا كَانَ هَذَا فِي حَقِّ الرِّعِيَةِ،

(٩) هُوَ مَا يَدْعَى الطَّبِيعِيَّ وَالْغَرِيزِيَّ.

- وَقَوْلُهُ: لَا طَلَبَ: أَيُّ لَا مُوَاخَذَةَ.

(١٠) سَبَقَ الْحَدِيثُ.

(١١) فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ ١: ١١٨ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: رَبِّ! ذَاكَ عَبْدُكَ يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً (وَهُوَ أَبْصَرُ بِهِ)؛ فَقَالَ: ارْزُقُوهُ، فَإِنْ عَمِلَهَا فَارْتَبُوهَا لَهُ بِمِثْلِهَا، وَإِنْ تَرَكَهَا فَارْتَبُوهَا لَهُ حَسَنَةً، إِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَّائِي».

(١٢) الْفَرْقَانُ: ٧٥/٧٠

فَالْأَنْبِيَاءُ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - أُولَىٰ بِهَذَا التَّرْكِ لَا مُحَالَةَ، كَيْفَ وَقَدْ أَثْنَى اللَّهُ تَعَالَىٰ عَلَيْهِ وَنَزَّهَهُ بِقَوْلِهِ عِنْدَمَا قَالَتْ (١٣) ﴿هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾. فهذا مما يدلُّ على أَنَّهُ تركها من أَجل الله، وَأَنَّهُ مَأْجُورٌ فِي تركها.

وَإِذَا كَانَ هَذَا فَلَا ذَنْبَ وَلَا عَتَبَ يَلْحَقُ يُوسُفَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - صَغِيرًا وَلَا كَبِيرًا، بَلْ يَكُونُ مَأْجُورًا فِي التَّرْكِ.

فَهَذِهِ أَقْوَالُ تَشَاكِهَ (١٤) الصُّوَابِ وَتَلِيْقُ بِالْأَكَابِرِ.

وَالْأَظْهَرُ الْقَوْلُ الْآخِرُ مِنْ هَذِهِ الْأَقْوَالِ لَكُونِهِ مَعْضُودًا بِالْخَبَرِ وَالْآيَةِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

فَإِنْ قِيلَ: فَإِذَا لَمْ يُتَصَوَّرْ فِي حَقِّ يُوسُفَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ذَنْبٌ وَلَا عَتَبٌ فَلَايَ شَيْءٍ قَالَ بَعْدَمَا أَنْصَفَتْهُ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ وَأَقَرَّتْ بِفَعْلِهَا (١٥): ﴿وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي إِنْ النَّفْسَ لَأَمَّارَةً بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾.

قُلْنَا: وَمِنْ أَيْنَ لَكَ أَنْ تَقُولَ إِنَّهُ قَالَهَا وَالْآيَةُ تَقْتَضِي أَنَّهَا مِنْ قَوْلِ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا تَأَدَّبَ مَعَهَا بِآدَابِ الْأَحْرَارِ حَيْثُ قَالَ لِرَسُولِ الْمَلِكِ (١٦): ﴿ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾؛ فَخَلَطَهَا مَعَهُنَّ وَذَكَرَ فِعْلَهُنَّ وَأَضْرَبَ عَنْ ذِكْرِ فَعْلِهَا تَنَاصَفَتْ (١٧) هِيَ وَأَقَرَّتْ بِأَنَّهَا رَاوَدَتْهُ فَقَالَتْ: ﴿وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي﴾.

عَلَىٰ أَنَّهُ لَوْ ثَبَتَ أَنَّهُ قَالَهَا لَخَرَجَتْ لَهُ أَحْسَنُ مَخْرَجٍ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا

(١٣) يوسف: ١٢/٢٣.

(١٤) أي تشابهه.

(١٥) يوسف: ١٢: ٥٣.

(١٦) يوسف: ١٢: ٥٠.

(١٧) وقفت موقف الإنصاف.

أَنْصَفْتُهُ بِإِقْرَارِهَا وَتَبَرُّثُهُ قَالَ هُوَ: ﴿وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي﴾ عَلَى أَصْلِ الْجَوَارِ لَا عَلَى نَفْسِ الْوَقْعِ، كَمَا قَالَ الْخَلِيل - عَلَيْهِ السَّلَام - (١٨) ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ وَهُوَ قَدْ أَمِنَ بِالْعِصْمَةِ مِنْ عِبَادَتِهَا، وَقَالَ تَعَالَى (١٩) لِنَبِيِّنَا - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - ﴿وَلْيُنْ شَيْئًا لَّنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ وَهُوَ تَعَالَى قَدْ شَاءَ أَلَّا يُذْهَبَ. وَالْعِصْمَةُ وَالنَّزَاهَةُ لَهُ عَلَى كَمَالِهَا.

فَلَيْتَ شِعْرِي إِذَا كَانَ لِلتَّأْوِيلِ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ وَأَمْثَالِهَا مَجْرَى سَحَبٍ (٢٠)، وَمَجَالٌ لِلسَّلَامَةِ رَحْبٌ (٢١)، فَمَا بِالْهَمِّ يُضَيِّقُونَ هَذَا الْوَاسِعَ لَوْلَا الْفُضُولُ؟!

(١٨) إبراهيم ٣٥/١٤

(١٩) الإسراء ٨٦/١٧

(٢٠) سَحَبَ الشَّيْءِ سَحَبًا: جَرَّهُ؛ وَأَرَادَ بِقَوْلِهِ: «مَجْرَى سَحَبٍ» أَيِ يَطُولُ الْجَرَى فِيهِ.

(٢١) الْمَجَالُ الرَّحْبُ: الْوَاسِعُ.

شرح قصّة نبينا عليه الصلاة والسلام(*)

مع زيد وزينب في قوله تعالى^(١): ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ، وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾. إلى قوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾.

هذه من القصص التي أمتحن بها عوام هذه الأمة ومقلدوهم المجازفون المفتنون ما ليس لهم به علم!

والقصّة بحمد الله أشهر وأظهر من أن يُتَقَوْلَ فيها بُرُور أو يدلى بِغُرُور، والأولى أن نقدّم ما صحّ من القصّة ثم نرجع إلى شرح الآية.

والذي صحّ منها أنّ المرأة هي زينب بنت جحش بن أميمة بنت عبد المطلب جد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأما بعلمها فهو زيد بن حارثة مولى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومعتقه. وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد ربّاه وتبّناه، وكان يُسمّى ابن رسول الله حتّى أنزل الله تعالى^(٢): ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ فنفى البُنية بالدعوى وقال^(٣): ﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾. الآية. فلما أدرك زوّجه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - زينب المذكورة. وبقي معها حتّى أمر الله تعالى نبيّه - عليه السلام - أن يتزوّجها أو أخبره به كما سيأتي في شرح الآية إن شاء الله تعالى.

(*) قصة نبينا صلى الله عليه وسلم مع زيد، وزينب: في تنزيه الأنبياء، للشرif المرتضى: ١٠٩، وتفسير الطبري ١٢: ١٠، وتاريخ الطبري ٢: ٥٦٣، وتفسير القرطبي ١٤: ١٨٨.

(١) الأحزاب: ٣٣/٣٧

(٢) الأحزاب: ٣٣/٤

(٣) الأحزاب: ٣٣/٥

وما تَقَوْلُهُ الْمُنَافِقُونَ وَالْجَهْلَةُ الْمُجَازِفُونَ مِنْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - رَأَاهَا وَأَحَبَّهَا وَشُغِفَ بِحُبِّهَا حَتَّى كَانَ يَضَعُ يَدَهُ عَلَى قَلْبِهِ وَيَقُولُ: يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبَ نَبِيِّكَ!؛ ويدخل عليه زيد المسجد ويقول: «أذن مني يا زيد»؛ شوقاً إليها!؛ إلى غير ذلك من هذيانات لا يرضاها صلحاء المسلمين لأنفسهم فكيف سيّد المرسلين؟!^(٤) فكل ذلك باطل مُتَقَوَّل.

وكذلك قَوْلُهُمْ إِنَّهُ - عَلَيْهِ السَّلَام - رَأَاهَا فَأَحَبَّهَا؛ تَخَرُّصٌ وَزُورٌ، وكيف وقد تَرَبَّتْ فِي حِجْرِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حَتَّى زَوَّجَهَا لَزِيدَ، عَلَى أَنَّهُ لَوْ أَحَبَّهَا كَمَا اخْتَلَقُوهُ لَمْ يُدْرِكْهُ فِي ذَلِكَ لَوْمْ فَإِنَّ الْحَبَّ أَمْرٌ ضَرُورِيٌّ لَا يَدْخُلُ تَحْتَ الْكَسْبِ؛ جَاءَ عَنْهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ^(٥): «اللَّهُمَّ إِنِّي عَدَلْتُ فِيمَا أَمْلِكُ فَاغْفِرْ لِي مَا لَا أَمْلِكُ». يعني: عدلت فيما أکسب فاغفر لي ما لا أکسب، فَلَمْ يَكْرَهُ الْعُقُلَاءُ الْحَبَّ إِلَّا لِمَا يَكُونُ مَعَهُ لِلْمَحْبِّينَ مِنَ الطَّيِّبِ، وَالْمِيلِ، وَالذِّكْرِ بِمَا لَا يَنْبَغِي، وَطَلَبِ الظَّفَرِ بِالْمَحْبُوبِ عَلَى الْوَجْهِ الْفَاسِدَةِ.

وهذه الأمور كلها لا تليق بصلحاء المسلمين، فكيف بسادات المرسلين المعصومين ممّا دون ذلك كما تقدم؟!

جاء في الأثر: أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مرّ برجلٍ يُنشد^(٦):

أَقْبَلْتُ فَلَاحَ لَهَا عَارِضَانِ كَالسَّبَجِ

(٤) تنظر في المطولات من كتب التفسير؛ ومنه في القرطبي ١٤/١٨٨ - ١٩٦

(٥) ورد الحديث في مسند الإمام أحمد ٦: ١٤٤ برواية أخرى، من حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم بين نسائه، فيعدل... ثم يقول: اللهم هذا فعلي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك».

وقول المؤلف: «لإن الحب أمر ضروري» أي فطري.

(٦) الخبر والشعر في الرسالة القشيرية: ٣٣٨ - بتحقيق معروف زريق وعلي عبد الحميد بلطه جي؛ وورد البيت الثالث في العقد الفريد ٦: ٨.

أَدْبَرْتُ فَقُلْتُ لَهَا وَالْفُؤَادُ فِي وَهَجٍ
هَلْ عَلَيَّ وَتَحْكَمَا إِنْ عَشَقْتُ مِنْ حَرَجٍ؟!

فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لا حَرَجَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، معناه :
لا حَرَجَ عليك إِنْ كُنْتَ تَكْتُمُ وَتَصْبِرُ وَلَا تُؤْذِي مَحْبُوبَكَ بِقَوْلٍ وَلَا بِفِعْلٍ ، وَلَا
يَشْغَلُكَ حُبُّهُ وَذِكْرُهُ عَمَّا فُرِضَ عَلَيْكَ .

ومصدق هذا الشرح ما جاء عنه - عليه السلام - أَنَّهُ قَالَ (٧) : «مَنْ عَشِقَ
وَكَتَمَ وَعَفَّ وَمَاتَ مَاتَ شَهِيداً» وسبب شهادته أَنَّ النَّفْسَ الْأَمَّارَةَ بِالسُّوءِ تُحِبُّ
الشَّهْوَةَ وَالتَّشْفِيَّ بِالْفِعْلِ ، فيحاربها الْوَرَعُونَ الْمُتَّقُونَ بِالْكَتْمَانِ وَالْعَفَافِ حَتَّى
يَقْتُلَهُمْ .

وعلى هذا مضت العادات وتناظرت الحكايات ، ولولا قَصْدُ الاختصار
لَأَسْمَعْتُكَ فِي هَذَا الشَّأْنِ أَخْبَاراً وَأَشْعَاراً عَنْ ظُرَفَاءِ الْمُحِبِّينَ الْمُتَدَيِّنِينَ ، وَأَهْلِ
الْهَمَمِ مِنْ فِتْيَانِ الْعَرَبِ . فَقَدْ قِيلَ : إِنْ قَيْسُ بْنُ عَامِرٍ (٨) تَعَرَّضَتْهُ لَيْلَى بِأَرْضِ
فَلَاةٍ فَقَالَتْ لَهُ : هَا أَنَا بُغَيْتُكَ وَمَثَارُ فِتْنَتِكَ ، لَيْلَى ! جِئْتُكَ وَلَا رَقِيبَ وَلَا وَاسِطَةَ
فَأَقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ !

فقال لها : يَا مِنْكَ مَا شَغَلَنِي عَنْكَ ! ثُمَّ سَارَ وَتَرَكَهَا . فَهَذَا مِنْ ظُرَفَاءِ
الْمُحِبِّينَ .

وآخر رأى غُبَارَ ذَيْلِ (٩) مَحْبُوبِهِ فَغُشِيَ عَلَيْهِ فَهَذَا أَظْرَفَ مِنْهُ ، إِلَى غَيْرِ

(٧) فِي الْفَتْحِ الْكَبِيرِ ، لِلْسَّيُوطِيِّ ٣ : ٢١٢ : «مَنْ عَشِقَ فَكَتَمَ وَعَفَّ فَمَاتَ فَهُوَ شَهِيدٌ» .
(٨) قَيْسُ بْنُ الْمُلُوحِ الْعَامِرِيُّ ، أَحَدُ بَنِي عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ ، وَمِنْ مَشَاهِيرِ عَشَاقِ الْعَرَبِ ، عَشِقَ لَيْلَى
بِنْتَ مَهْدِي الْعَامِرِيَّةِ ، وَكَانَ يَرْعَى الْغَنَمَ مِنْذُ الصَّغَرِ عِنْدَ جَبَلٍ يُقَالُ لَهُ «التَّوْبَادُ» ، وَقَالَ فِيهَا الشَّعْرُ ،
وَذَاعَ شَعْرُهُ فَمَنْعَهُ أَهْلُهَا الْإِقْتِرَابَ مِنْ دِيَارِهِمْ وَاسْتَعْدَوْا عَلَيْهِ الْوَالِيَّ ، فَأَهْدَرَ دَمَهُ إِنْ زَارَهَا ؛
وَحَطَبَهَا فَرَفَضَ أَبُوهَا ، وَزَوَّجَهَا مِنْ رَجُلٍ غَنِيٍّ مِنْ ثَقِيفٍ فَاخْتَلَطَ قَيْسٌ ، فَكَانَ يَجِيءُ جَبَلَ
التَّوْبَادِ فَيَقِيمُ بِهِ ثُمَّ يَهْمُ عَلَى وَجْهِهِ ، ثُمَّ وَجَدَ مَيْتاً فِي أَحَدِ الْأَوْدِيَةِ ؛ وَلِلْمَجْنُونِ دِيْوَانَ شَعْرِ مَطْبُوعٍ
بِتَحْقِيقِ الْأَسَازِ عَبْدِ السَّاتَرِ فَرَّاجٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - نُشِرَتْهُ (مَكْتَبَةُ مِصْرَ) بِالْقَاهِرَةِ .

(٩) غُبَارَ ذَيْلِ ثُوبِهَا .

ذلك. وجاء في الأثر: أَنَّ عَلِيًّا - كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ - كانت له جاريةٌ تتصرَّف في أشغاله. وكان بإزائه مسجدٌ فيه قَيْمٌ، فكانت متى مرَّت به تلك الجارية قال لها: أَمَا إِنِّي أُحِبُّكَ، فشَقَّ عليها ذلك فأخبرت عَلِيًّا - رضي الله عنه - بذلك، فقال لها: إِذَا قَالَ لَكَ ذَلِكَ فَقُولِي لَهُ: وَأَنَا أُحِبُّكَ فَأَيْشُ تُرِيدُ بَعْدَ هَذَا^(١٠)؟!

فلَمَّا مرَّت به قالت له ذلك، فقال: نصبرُ حَتَّى يَحْكَمَ اللَّهُ بَيْنَنَا. فلَمَّا أَخبرت عَلِيًّا - عليه السلام - بما قال لها دعا به وقال له: خُذْهَا إِلَيْكَ فَقَدْ حَكَمَ اللَّهُ بَيْنَكُمَا! فهذا شَأْنُ الظُّرَفَاءِ وَالْمُتَدَيِّنِينَ مِنَ الْمُحِبِّينَ.

ومع هذا فالرَّسُولُ - عليه السَّلام - أَشْرَفُ وَأَسْنَى مِنْ أَنْ يُمْتَحَنَ بِمِثْلِ هَذِهِ النَّقِیْصَةِ، ومع ذلك فما صَحَّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَحَبَّهَا وَلَا شَغَفَ بِهَا فِي كِتَابٍ وَلَا سُنَّةٍ سِوَى مَا تَخِيلَهُ^(١١) الجُهْلَةُ، وَكُلُّ مَا رَوَوْهُ فِي ذَلِكَ عَنْ الصُّبْحَابَةِ فَكَذِبٌ وَزُورٌ وَجَهْلٌ بِمُقْتَضَى الْآيَةِ وَمَنْصِبِ النُّبُوَّةِ، وَتَخَرُّصٌ مِنْ أَهْلِ النِّفَاقِ، وَهَا أُبَيِّنُ لَكَ ذَلِكَ فِي سِيَاقِ الْآيَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

فصل

قال الله تعالى^(١٢): ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾.

ذكر بعضُ المفسِّرين في أَشْبَهِ الْأَقْوَالِ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ﴾، تنبيهٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ - عَلَيْهِ السَّلام - عَلَى وَجْهِ الْعِتَابِ فِي قَوْلِهِ لَزَيْدٍ: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾، وَأَقُولُ إِنَّهُ تَنْبِيهِ لِنَبِيِّهِ - عَلَيْهِ السَّلام - لِيَتَهَيَّأَ لِفَهْمِ الْخِطَابِ مِنْ غَيْرِ عِتَابٍ، وَهُوَ الْأَظْهَرُ وَالْأَوْلَى.

(١٠) فَأَيْشُ: فَأَيُّ شَيْءٍ... (وهذا اختصار قديم من باب النحت).
(١١) ما تخيله الجُهْلَةُ: من خيالهم المريض. وفي المخطوط بالحاء المهملة «تخيله» ولها وجه أيضاً. ورجَّحت الحاء المعجمة.

(١٢) الأحزاب: ٣٣/٣٧

وبذا تناصرت الآيات كقوله تعالى^(١٣) ﴿إِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ وقوله^(١٤) ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ إلى غير ذلك من الآي.

وأما قوله تعالى^(١٥): ﴿أَنعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾. ففي هذا الخبر معجزة للرسول - صلى الله عليه وسلم - وكرامة لزيد، لكنها من أعز الكرامات وأشرفها.

فأما المعجزة فهي من باب إخباره - عليه السلام - بالغيوب فتقع كما أخبر عنها. وذلك أن الإنعام ها هنا إنما هو في أن وهبه الله تعالى إيماناً لا يفارقه إلى الممات، إذ لو كان في معلوم الله تعالى أن يسلبه إياه عند الوفاة لم يسمه نعمة، فإن ثمرة الإيمان إنما تجتنى في الآخرة، وإيمان زائل لا ثمرة له في الآخرة ولا يُسمى نعمة بل هو نقمة. كإيمان بلعم بن باعورا^(١٦) وغيره من المخذولين المبدلين، نعوذ بالله من بَغْتَاتِ سَخَطِهِ.

فخرج من فحوى ذكر هذه النعمة أن زيدا يموت مؤمناً. فكان ذلك وزيادة. أنه مات أميراً شهيداً مقدماً بين الصّفيين، في يوم مؤتة. كان قد قدمه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على الجيش في حديث يطول ذكره؛ ثم قُتل شهيداً فنزل الوحي على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فصعد المنبر

(١٣) البقرة: ١٢٤/٢

(١٤) البقرة: ٣٤/٢ وفي سور آخر.

(١٥) الأحزاب: ٣٧/٣٣

(١٦) بلعام بن باعورا كان أيام موسى عليه السلام. قال القرطبي ٣١٩/٧ كان في مجلسه اثنتا عشرة ألف محبرة للمتعلّمين الذين يكتبون عنه. ثم صار بحيث أنه كان أول من صنّف كتاباً في أن: ليس للعالم صانع! وقال مالك بن دينار: بُعث بلعام بن باعورا إلى ملك مدّين ليدعوه إلى الإيمان فأعطاه الملك وأقطعاه فاتّبع دينه وترك دين موسى؛ ففيه نزلت هذه الآيات (يعني الآيات ١٧٥ - ١٧٧ من سورة الأعراف).

فحمد الله وأثنى عليه ثم قال^(١٧): «أخذ الراية زيدُ فأصيب، إلى قوله: لقد رُفِعوا لي في الجنة على أسيرة من ذهب». الحديث.

فهذه معجزة صحت له - عليه السلام - من باب الإخبار بالغيوب، فوقعت بمحضر الأشهداء كما أخبر عنها، وكما وقع نقيضها في قصة أبي لهب^(١٨) حيث أخبره ربه في قرآنٍ يُتلى أنه من أهل النار، ومات كافراً فكان ذلك.

وأما كرامة زيد فبإعلام الله له في ضمن الآية بسلامة العاقبة كما ذكرناه. وأما تصور العتاب إن صح في قوله: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ» فقد يقع من باب ترك الأولى من المباحات كما تقدّم، وذلك أن الله تعالى أمره بزواجها أو أخبره به حيث قال له في آخر الآية^(١٩): «وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا» وسيأتي بيان ذلك الأمر عند فراغنا من شرح الآية إن شاء الله تعالى.

وأما سبب قوله له أمسكها فهو أن زيدا جاءه يتشكى له بها، فقال: يا رسول الله زينب تسبني وتستعلي علي وتُعيرني وتَفْخَرُ عَلَيَّ بِشَرَفِهَا، إلى غير ذلك، وأريد أن أطلقها.

فقد ربما كان الأولى أن يقول له - عليه السلام - مثلاً: أنت وشأنك! أو ما يُقرب من هذا من الأقوال، أو يسكت عنه فلا يأمره ولا ينهأ لكونه - عليه السلام - قد أمره الله تعالى بتزويجها أو أخبره بذلك، فقال له: أمسكها. والأظهر أنه قصد - عليه السلام - بهذه القولة خوف القالة من السفهاء أن يقولوا

(١٧) في مسند الإمام أحمد ٣: ١١٣ و ١١٨، ولم ترد فيه العبارة: «لقد رُفِعوا لي في الجنة على أسيرة من ذهب».

(١٨) في سورة نبت يدا أبي لهب.

(١٩) الأحزاب: ٣٧/٣٣

ما قالوه فيهلكوا بأذيتيه، فتصح عليهم اللعنة في الدارين، والعذاب الأليم؛ بدليل الكتاب؛ قال الله تعالى (٢٠): ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾.

وأيضاً أنه لما سمع أن الله تعالى عاتب داود - عليه السلام - في قوله (٢١): ﴿أَكْفَلْنِيهَا﴾، قال هو: «أمسكها»، وسقط العتاب.

وأما قوله (٢٢): ﴿وَاتَّقِ اللَّهَ﴾، يعني في ذكرها بالقبح لغيبها في قوله: تقول لي كذا وتفعل بي كذا؛ وهي غائبة، فنهاه عن الغيبة المنهي عنها شرعاً، بدليل أن قول زيد: أطلقها، كلام مبأح ليس فيه حظر ولا كراهة في الشرع.

وأما قول الله - عز وجل - لنبيه - عليه السلام (٢٢): ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾. يعني من تزويجها الذي أمرتك به أو أعلمتك به.

وأما قوله تعالى (٢٢): ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ﴾، أي تخشى من قول الناس، على حذف حرف الجر كأنه يقول: تخشى من الناس أن يقولوا فيك فيأثموا ويهلكوا، والله أحق أن تخشاه.

أي تخشى منه على الناس وللناس حتى يقع مرادي فيك وفي الناس، إذ ليس احتياطك يغني عنهم من الله شيئاً، فلا عليك ممن قال ولا ممن أثم، فأنا أعلم بما يقولون وبما أجازيهم. كما قال تعالى له (٢٣): ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ (٢٤) و﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ (٢٥) و﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ إلى غير ذلك.

(٢٠) الأحزاب: ٥٧/٣٣

(٢١) ص: ٢٣/٣٨

(٢٢) الأحزاب: ٣٧/٣٣

(٢٣) آل عمران: ١٢٨/٣

(٢٤) البقرة: ٢٧٢/٢

(٢٥) القصص: ٥٦/٢٨

وأما أن يكون الرسول - صلى الله عليه وسلم - يخشى الناس من غير
مُراعاةٍ لهذا القدر وما أشبهه، فحاشا وكلاً، وكيف وقد قال تعالى بعد هذه
الآية (٢٥)*: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾
فقد زكى الله تعالى أنبياءَهُ بأنهم أفرَدُوهُ بالخشية، فلو كان الرسول - عليه السلام -
يخشى الناس لأجل الناس لَتَنَاقَضَ الخبر، والتناقض في خبر الله ورسوله
مُحال.

وأما ما خاف أن يقوله الناس فيهلكوا، فهو على خمسة أوجه:

أحدها: ما جرت به عادات الجَهلة المتكبرين على المَوالي فيقولون:
كيف يسوغ له أن يعمد إلى كريمة من كرائمه وأقرب الناس إليه نسباً فيزوجها
لِعَبْدِهِ؟!

والثاني: وهو أشدُّ عليهم في الإنكار أن يقولوا: كيف رَضِيَ أن يتزوجها
بعد عَبدِهِ؟!

الثالث: أن يقولوا: إنَّما حمَّله على ذلك حُبُّه لها وشغفه بها.

الرَّابِع: قَلَّةُ المُرَاعاةِ لأمر الله، وعدم التَّسليم لِحكمه، إذ لو كانوا
يذعنون لأحكام الله تعالى ويُسلمون له لم يُنكروا شيئاً ممَّا فعله نبيهم - عليه
السلام -

الخامس: وهو أصلٌ لكل رذيلة، وهو مُراعاة التَّحسين والتَّقبيح وردَّهما
إلى العُقُول القاصرة، وما جرت به العادات، وهو ذاء عَضَال نَغَلَتْ بِهِ (٢٦)
قلوبُ الجَهلة الضَّالِّين، فَفَنَدُّوا حَكَمَ اللَّهِ تعالى واعترضوا لفعاله في خلقه.

(٢٥)* الأحزاب: ٣٣/٣٩

(٢٦) النُّغْل: الفساد، وفي الحديث (في النهاية واللسان): «رُبُّمَا نَظَرَ الرَّجُلُ نَظْرَةَ فَنَغْلٍ فَلَمَّا نَظَرَ قَلْبَهُ كَمَا
يَنُغْلُ الْأَدِيمُ فِي الدَّبَاغِ فَيَتَّقَبُّ».

وكان أول من سنّ هذه الداهية الدهياء إبليس، حيث قال (٢٧): ﴿أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً﴾، و﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدْ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾، (٢٩) و﴿أَخِيرَ مِنْهُ﴾، (٣٠) و﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ إلى غير ذلك من أقواله السخيفة. فانظر - رحمك الله - إلى أهل هذه المذاهب الخسيسة بمن اقتدوا فيها وعلى من عولوا في اقتدائهم، قاتلهم الله أنى يؤفكون.

ومما قيل في معنى قوله: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ﴾، أنه يخشى الناس أن يقولوا: كيف يحرم علينا أزواج البنين وهو مع ذلك يتزوج زوج ابنة؟ فلاجل هذه الأقوال كانت خشيته - صلى الله عليه وسلم - على الناس؛ إذ ليس منها واحدة إلا وهي تحمل إلى سجين، فإنها كلها معارضة لقوله تعالى (٣١): ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾.

وقوله تعالى (٣٢): ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾.

وقوله تعالى (٣٣): ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾.

وقوله تعالى حيث أقسم بذاته المعظمة فقال (٣٤): ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾.

فمن أجل هذه الآي وأمثالها خشي رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

(٢٧) الإسراء: ٦١/١٧

(٢٨) الحجر: ٣٣/١٥

(٢٩) ص: ٧٦/٣٨

(٣٠) الإسراء: ٦٢/١٧

(٣١) الحشر: ٧/٥٩

(٣٢) النساء: ٨٠/٤

(٣٣) آل عمران: ٣١/٣

(٣٤) النساء: ٦٥/٤

- أن يقع فيه الناس، وقد وقعوا فيما ذكرناه وفيما هو أشد منه.

قال تعالى^(٣٥): ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾ الوطر هنا: النكاح.

واعلم - رحمك الله - أن في هذه الآية فوائد جمة منها أن الله تعالى جعل فيها لزيد صيتاً وشرفاً خصه به عن جملة الصحابة - رضي الله عنهم - وذلك أنه لم يذكر في الكتاب منهم أحداً باسمه العلم إلا زيدا، وسبب ذلك - والله أعلم - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان قد تبناه قبل ذلك، فكان يدعى بابن رسول الله حتى نزل عليه^(٣٦): ﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾. فسمي بعد ذلك زيد بن حارثة، فعوضه الله تعالى بأن سمّاه في كتابه باسمه العلم.

وهذه القول ليست لي ولا يبلغ نظري إلى هذا القدر، وإنما ذكرها الإمام أبو بكر بن العربي^(٣٧) في بعض تواليفه، ولا أعلم هل هي له أو لغيره^(٣٨)، ولأن من غاص عليها لغواص من باب الإشارة.

وقد يُحتمل أن تخرج من باب الفقه، وهو أن يكون تسمية زيد بالعلمية ليتبين في الآية ثبوت هذا الحكم ووقوعه في أبناء النبي، إذ لو قال تعالى: فلما قضى بعلمها، لم يُعلم من البعل من مقتضى الآية.

ومنها: أن الله تعالى سنّ لرسوله - صلى الله عليه وسلم - هذه السنة على

(٣٥) الأحزاب: ٣٣/٣٧

(٣٦) الأحزاب: ٥/٣٣

(٣٧) هو القاضي أبو بكر محمد بن الله المعافري الإشبيلي الأندلسي المعروف بابن العربي (ولد ٤٦٨، وتوفي ٥٤٣) من أعيان علماء الأندلس، ومن كبار المصنفين البارعين. ومن كتبه أحكام القرآن، والعواصم من القواصم، وعارضة الأحوذى على كتاب الترمذي. وغيرها.

(٣٨) لم أر هذا في (أحكام القرآن) ولعله من كتاب آخر. ونقله القرطبي في تفسيره ١٤/١٩٤ عن أبي القاسم السهيلي (ولد ٥٠٨؛ وتوفي ٥٨١).

رغم أنف المتكبرين، فمن لَمْ بعد هذه السُّنةِ أحداً في أن يزوّج مثلاً بنته لعبده أو يتزوّج امرأة عبده من بعده فَلْيُفْغَرْ فَوْهُ بِفَهْرٍ يَكْسِرُ قَوَاضِمَهُ وَخَوَاضِمَهُ، وَيُطْرَحَ فِي أُمِّهِ الْهَآوِيَةِ^(٣٩)! إذ ليس بعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - شارعٌ ولا فوقَ شرفه شرف.

ومنها: قوله تعالى لرسوله - صلى الله عليه وسلم^(٤١) - ﴿زَوِّجْنَاكَهَا﴾

فأضاف تعالى تزويجها لنبئه إلى نفسه، وما أضاف الله تعالى لنفسه شيئاً إلاّ وشرف ذلك الشيء، كما قال تعالى^(٤١): ﴿روحى﴾ و^(٤٢) ﴿بيتي﴾ و^(٤٣) ﴿جنتي﴾، و^(٤٤) ﴿عذابي﴾، و^(٤٥) ﴿ناقة الله﴾، و^(٤٦) ﴿نار الله﴾، والكلُّ مخلوقٌ ومربوبٌ، ولكن الله اختصَّ بالشرف الإضافي هذه المخلوقات.

وفي هذا التزويج شرفٌ لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - من كون تزويج الناس أجمع من عندهم وباختيارهم واجتهادهم، وهذا التزويج بأمر الله على الخصوص، واختياره وإكرامه لنبئه - عليه السلام -.

ومنها: تشريفٌ لزينب زوجة، وذلك أنّ الله تعالى ما اختارها لنبئه - عليه السلام - حتى علم حصانتها ودينها وورعها وحفظَ أدبها لِمُرَاعَاةِ خُلُطَةِ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ. ولها أيضاً على سائر نسائه في هذا التزويج مزية، وإن كُنَّ كلهن

(٣٩) الْفَهْرُ: الحجر يملأ الكَفَّ. والقواضِم: الأسنان؛ مأخوذ من الْقَضَم، وهو أَخَذُ الشَّيْءِ وَأَكْلُهُ بِأَطْرَافِ الْأَسْنَانِ. والخواضِم: الأضراس؛ مأخوذ من الْخَضَم، وهو أَخَذُ الشَّيْءِ وَأَكْلُهُ بِأَقْصَى الْأَضْرَاسِ. وأمه: أي أم رأسه، وهي الدِّمَاغ، أو الْجِلْدَةُ الرَّقِيقَةُ التي عليها. والهاوية: جهنم.

(٤٠) الأحزاب: ٣٧/٣٣

(٤١) الحجر: ٢٩/١٥

(٤٢) البقرة: ١٢٥/٢

(٤٣) الفجر: ٣٠/٨٩

(٤٤) الأعراف: ١٥٦/٧

(٤٥) الشمس: ١٣/٩١

(٤٦) الهمزة: ٦/١٠٤

مُطَهَّرَاتِ مَحْفُوظَاتٍ. وقد ذكرت هي ذلك لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالت له: يا رسول الله أما إنني لأدُلُّ عليك بثلاث لا يدلُّ بها عليك واحدة من نساءك.

فقال لها: وما هي؟

فقالت: إحداها: أنني أقرب إليك نسباً من جميع نساءك، لأنَّ جدِّي وجدُّك واحد؛

والثانية: أن الله تعالى رَوَّجني إِيَّاكَ؛

والثالثة: أن كان السِّفِير بيني وبينك جبريل - عليه السَّلام -.

فيا لها من حُرَّة! فلقد فخرت وصدقت، مع أنها أغفلت رابعاً يؤكد ثبوت هذه الثلاثة وهو: كونُ قصتها مُسَطَّرَةً في قرآنٍ يُتلى إلى الأبد. إذ لو كانت من خبر الواحد لاختلجتها الظنون.

ثم قال تعالى^(٤٧): ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾.

عَلَّ الله - عزَّ وجل - هذا التزويج ليعلم النَّاسُ أنَّ من تَبَنَّى أحداً ثم تزوَّج امرأته من بعده فلا حَرَجَ عليه، فإنَّ مَنْ تَبَنَّاه ليس كإبنه الَّذي لِصُلْبِهِ.

قال تعالى في تحريم أزواجِ الأبناءِ لِلصُّلْبِ^(٤٨): ﴿وَحَلَائِلِ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ وقال^(٤٩): ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾. فرفع الله الحَرَجَ بهاتين الآيتين في التَّبَنِّي، ثم قال تعالى ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾.

(٤٧) الأحزاب: ٣٧/٣٣

(٤٨) النساء ٢٣/٤

(٤٩) الأحزاب: ٤/٣٣

الأمر هنا يحتمل الحقيقة والمجاز، فإن كان الله أمره بتزويجها فيكون وكأنّ المأمور به مفعولاً: أي واقعاً في معلوم الله تعالى، ويسمى المأمور به أمر المناسبة بين الأمر والمأمور، فإن الأمر من الله تعالى يستحيل أن يكون مفعولاً لكونه يرجع لكلامه الأزلي، وإن كان أمر بمعنى المُرَاد على سبيل المجاز، فيكون وكأنّ ما أخبرك الله تعالى به من المُرَاد واقعاً؛ إذ ما أراد الله تعالى وقوعه فلا بدّ من وقوعه. فتأمل - رحمك الله - هذه القصة العجيبة فإنّها تتضمّن خمس عشرة فائدة، منها في جانب الرسول - عليه السلام - ستة:

إحداها: المعجزة في إخباره بالغيوب فوقعت كما أخبر عنها.

الثانية: تواضعه - عليه السلام - أن زوج كريمته بعده.

الثالثة: انقياده لأمر الله في تزويجها بعده.

الرابعة: إثبات هذا التزويج سنة.

الخامسة: قمع المتكبرين وإرغام أنوفهم في هذه السنة.

السادسة: في الردّ على من قال بتحسين العقل وتقبيحه.

والتي من جانب زيد أربع:

إحداها: بشارة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - له بسلامة عاقبته.

الثانية: موته شهيداً بين الصّفيّين.

الثالثة: ما أخبر عنه - صلى الله عليه وسلم - أنّه في الجنة.

الرابعة: تسميته في الكتاب بالعلميّة على الخصوص.

والتي في حقّ زينب^(٥٠) - رضي الله عنها - خمس:

(٥٠) قال الشعبي: كانت زينب رضي الله عنها تقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم إني لأدُلُّ عليك بثلاث ما من نساءك امرأة تدل بهنّ =

إحداها: أَنَّ اللهَ تَعَالَى رَضِيَهَا لِنَبِيِّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَهْلًا.

الثانية: أَنَّ صَيَّرَهَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ.

الثالثة: أَنَّ كَانَ خَطِيْبَهَا جِبْرِيلُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -.

الرابعة: أَنَّ كَانَ وَلِيِّهَا رَبُّ الْعَالَمِينَ.

الخامسة: أَنَّ كَانَتْ قِصَّتُهَا قِرَاءًا يُتْلَى.

فهذه خمسَ عشرَ فائدةً صَحَّتْ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ، شَامِلَةٌ لِرَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَلَأُمَّتِهِ، سِوَى مَا أَغْفَلَهُ الْخَاطِرُ.

وَالْجَهْلَةُ يَخْبِطُونَ عَشَوَاءَ الدُّجُونِ^(٥١).

فهذا مَا مَنَّ اللهُ تَعَالَى بِهِ مِنْ ثَمَرَاتِ النَّظَرِ فِي هَذِهِ الْقِصَصِ الْأَرْبَعِ فِي حَقِّ السَّادَةِ الْقَادَةِ - صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ.

وَنَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى - مَعَ هَذَا التَّحَفُّظِ عَلَى مَنَاصِبِهِمُ السُّنَّةِ وَمَنَاقِبِهِمُ الرِّضْيَةِ - الْعَفْوَ عَمَّا وَقَعَ فِيهَا مِنَ الْخَطَا وَالْخَطَلِ بِحَوْلِهِ وَطَوْلِهِ^(٥٢).

= - أَنَّ جَدِّي وَجَدَكَ وَاحِدًا؛

- وَأَنَّ اللهَ أَنْكَحَكَ إِيَّايَ مِنَ السَّمَاءِ

- وَأَنَّ السَّفِيرَ فِي ذَلِكَ جِبْرِيلُ.

(٥١) الْعَشَوَاءُ: النَّاقَةُ الَّتِي لَا تَبْصُرُ أَمَامَهَا لَيْلًا. وَالْدُّجُونُ: جَمْعُ الدُّجْنَةِ، وَهِيَ الظُّلْمَةُ؛ وَمِنْ أَمْثَالِ الْعَرَبِ السَّائِرَةِ: هُوَ يَخْبِطُ خَبْطَ عَشَوَاءٍ، يُقَالُ لِلَّذِي يَرْكَبُ رَأْسَهُ وَلَا يَهْتَمُّ لِعَاقِبَتِهِ.

(٥٢) الطُّوْلُ: الْمَنْ.

فصل

ولنذكر الآن ما وَقَعَ من بعض قصص الأنبياء - عليهم السَّلام - في القرآن، وهي القصص التي اعترضها أهل الزَّيغ والإلحاد في أقوال الأنبياء - عليهم السَّلام - وأفعالهم، بما مَنَّ الله به، والله المُستعان.

وقد كنَّا نرتَّب الكلام فيها على ترتيب الزَّمان، فنبدأ بقصة آدم - عليه السَّلام - ونختم بقصة نبينا - صلى الله عليه وسلم - لكنَّا قدَّمنا هذه القصص لتأكيد اعتراض السَّفلة عليها وشناعة طبعهم فيها كما تقدَّم.

فندكر قصة آدم - عليه السَّلام - في أكله من الشَّجرة المنهي عنها. وقصة نوح - عليه السَّلام - في قوله^(١): ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾، وفي دعائه على قومه.

وقصة إبراهيم - عليه السَّلام - في الثلاثة الأقوال التي عدَّها^(٢) هو كذبات، وفي الثلاثة الكواكب والأنوار، وقصته - عليه السَّلام - في قوله^(٣): ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾.

وقصة عُزَير - عليه السَّلام - في قوله^(٤): ﴿أَنْتَ يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

وقصة أيُّوب - عليه السَّلام - في مِحْنَتِهِ.

وقصة يُونس - عليه السَّلام - ومُغَاضَبَتِهِ لقومه وفراره منهم، ولومه، وتوبته، وقبول توبته.

(١) هود: ٤٥/١١

(٢) في الأصل المخطوط: عددها.

(٣) البقرة: ٢٦٠/٢

(٤) البقرة: ٢٥٩/٢

وقصة موسى - عليه السلام - في قتل الكافر.

ثم نختم هذه القصص بقصة مريم عليها السلام - في هزها
الجذع، وغلظ من حط من مقامها من الجمع إلى الفرق في ذلك الوقت إن
شاء الله تعالى.

وكذلك قصة إخوة يوسف - عليه السلام - والرّد على من اعترض علينا
فقال: إنهم عندما واقعوا ما واقعوا مع أخيه وأبيه كانوا أنبياء، والله
المستعان.

شرح قصة آدم(*) عليه السلام

في أكله من الشجرة بعدما نُهي عنها.

اختلف الناس في هذه القصة اختلافاً لا يكاد ينضبط. وذلك لأن الله تعالى ما نصّ على معصية لنبيّ إلا لآدم - عليه السلام - خصوصاً. فلمّا كان ذلك وجد أهل الدّعاوى وأهل الحيرة مع ما ذهأهم من عدم التحقيق وكيد الوسواس سبيلاً إلى الإخلال بحقه - عليه السلام - حتى سَطّروا في الضبائر^(١) وأفصحوا على المنابر بأن قالوا: إذا كان رأس الدنّ دُرديّاً^(٢) فما ظنك بقعره!

وهذه وصمة تجرُّ إلى تنقيصه وتنقيص من بعده من الأنبياء - عليهم السلام - وهو مقصودهم في ذلك، وشرّحوا قوله تعالى^(٣): ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾ أنهما لَمَّا عصيا سَلَبَ الله عنهما أنوار الربوبية الروحانية التي كانت فاضت عليهما منه تعالى عمّا يصفون. فطهر لهما الجسم الترابي المجبول على المعصية، فعلموا إذ ذاك أنه منه أتى عليهما. فأوجبوا المعاصي للأجسام الترابية. وأنبياء الله تعالى كلهم أجسامٌ ترابية، وهي ظاهرة لهم.

وهذا أقل ما نسبوه لآدم - عليه السلام -.

(*) شرح قصة آدم عليه السلام في: تنزيه الأنبياء للشريف المرتضى: ٩، وعرائس المجالس: ٣٠، وابن كثير ١: ٥٠، وتفسير الطبري ١: ١٨١، وتاريخ الطبري ١: ١٠٦، وتفسير القرطبي ١: ٢٩٨-٣٢٣.

(١) الضبائر جمع الضيرة، على وزن فعيلة، والمشهور في ذلك: الإضبارة، وهي الحزمة من الصحف.

(٢) الدردي عكر الزيت؛ ويكون - لثقله - في قعر الدنّ أو الظرف.

(٣) الأعراف: ٢٢/٧

فصل

وأوّل ما ينبغي أن نقدّم أن آدم - عليه السّلام - لم يكن عندما أكل من الشجرة نبياً، والعصمة لا تُشرط للنبيّ إلا بعد ثبوت النبوة له. فمن الناس من ذكر الإجماع على أنّه لم يكن نبياً عندما أكل من الشجرة، ومنهم من اكتفى بظاهر قوله تعالى^(٤): ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ وهذا عطفٌ بـ (ثم)، التي تُعطي المهلة. ثم ذكر الاجتباء والهداية.

والاجتباء هنا: النبوة: بدليل قوله تعالى في سورة مريم: عليها السلام، عندما عدّد الأنبياء، عليهم السلام، ومناقبهم على التفصيل، قال^(٥): ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾ يعني من النبيّين أجمعهم.

وقال في قصة يونس - عليه السّلام - بعد قصة الحوت^(٦): ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾ وهذا وجه من الوجوه يُثبت أكله من الشجرة قبل نبوته.

فصل

والذي ينبغي أن يُعَوّل عليه في قصة آدم، عليه السّلام، أنّ نهيه عن الشجرة كان نهياً إرشادياً وإعلاماً على جهة الوصية والنصيحة لا على جهة التّكليف؛ فإنّه ما صحّ تكليفه في الجنّة ولا نبوّته لا في كتاب ولا سنة. والأوامر والنّواهي تنقسم إلى مشروع وغير مشروع، كالأوامر اللّغوية، فإن السيّد قد يقول لعبده والأخ لأخيه والصّاحب لصاحبه على جهة الإعلام والإرشاد والنصيحة: افعلْ كذا، واتركْ كذا تسلم من كذا وتظفرْ بكذا. وكذلك أوامر الأطباء للعليل بالحمية والدواء والغذاء إلى غير ذلك.

(٤) طه ١٢٢/٢٠

(٥) مريم ٥٨/١٩

(٦) القلم ٥٠/٦٨

فكان أمر الله تعالى لآدم عليه السلام بسكنى الجنان والأكل الرغد ونفوذ المشيئة من باب الإعلام والتأنيس بالبشارات بأنه لا يجوع فيها ولا يعرى ولا يظمأ ولا يضحى. وكان نهيه له على جهة الإرشاد المتقدم ذكره، أو التحذير مما تؤول إليه عقباه إن فعل ما نُهي عن فعله في خروجه عن الجنة وشقائه في الدنيا، والإعلام بمكيده الشيطان، والتحفظ منه، أو كونه عدواً حاسداً له.

وهذا معلوم في اللسان. وما جرت به العادات. وقد أمر الله تعالى إبليس بقوله^(٧): ﴿وَأَسْتَفْزِرْ مِنْ أَسْطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ﴾ فهذه أوامر على جهة الوعيد له والتهديد، كقوله تعالى للكفرة^(٨): ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ وليست بتكليف، إذ لو كانت على جهة التكليف بفعلها لكان وقوعها منه طاعة، وهو عاصٍ في هذه الأفعال إجماعاً.

وقد أمر الله موسى عليه السلام بأخذ الحية ونهاه عن الخوف منها حيث قال له^(٩): ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ والخوف أمر ضروري فلا يقع الأمر به جزماً. فكان الأمر له على جهة التأنيس والإعلام بأنها لا تؤذيه إذا أخذها. وكان مكلفاً إذ ذاك ولم يكن ذلك الأمر والنهي له مشروعين. وكذلك قوله تعالى^(١٠): ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرُّجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ وقوله تعالى لأم موسى^(١١): ﴿فَإِذَا خِفتَ عَلَيْهِ فِالْقِيَّةِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾.

(٧) الإسراء: ٦٤/١٧

(٨) فصلت: ٤٠/٤١

(٩) طه: ٢١/٢٠

(١٠) القصص: ٣٢/٢٨

(١١) القصص: ٧/٢٨

وكذلك قوله عليه السلام في الصحيح إذ رأى رجلاً يقطعه الآل^(١٢) فقال: «كُنْ أَبَا خَيْثَمَةَ» فإذا هو أَبُو خَيْثَمَةَ. فهذا أمرٌ على وجه الخبر، كأنه يقول: هذا أَبُو خَيْثَمَةَ، إلى غير ذلك.

ويكفيك أن الآخرة ليست بدار تكليف وفيها أوامر ونواهٍ مثل قوله تعالى للمؤمنين على جهة البشارة^(١٣): ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾، وقوله تعالى^(١٤): ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِينَ﴾، وقوله تعالى للكافرين على جهة الإغلاظ والترويع^(١٥): ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾، وقوله تعالى^(١٦): ﴿اخْسَوْوا فِيهَا وَلَا تَكَلَّمُونَ﴾ على جهة التحقير والخزي والطرْد. وقوله تعالى على جهة التصيير لأصحاب السُّبِّ^(١٧): ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾، وقوله تعالى على جهة

(١٢) انظر خَبَرُ الحديث في سيرة ابن هشام ٥٢١: ٢

(١٣) الزخرف: ٧٠/٤٣

(١٤) الحجر ٤٦/١٥

(١٥) النحل ٢٩/١٦

(١٦) المؤمنون ١٠٨/٢٣

(١٧) البقرة ٦٥/٢

- وهم الذين اعتدوا في السُّبِّ.

- وقول المؤلف رحمه الله: «على جهة التصيير» يشير إلى مسخ المخالفين قردةً خاسئين. وتمام الآية الكريمة ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السُّبِّ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ أي انتقلوا من حال البشرية الإنسانية إلى حال الحيوانية عقوبة ونكالا. وفي سورة الأعراف ﴿وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السُّبِّ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْتَوْنَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ. وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذْرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الآيات ١٦٣ - ١٦٤.

أي واسأل اليهود جيرانك عن أخبار أسلافهم، وما مسخ الله منهم قردة وخنازير. وهذا سؤال تقرير وتوبيخ. وفيه دلالة على صدق النبي صلى الله عليه وسلم ونبوته. أي سلمهم يا محمد عن القرية أما عذبتم بذنوبهم؟ وذلك بتغيير فرع من فروع الشريعة؟ وكان اليهود يكتسمون هذه القصة لما فيها من السبة عليهم.

التَّعْجِيز^(١٨): ﴿كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً﴾. إلى غير ذلك من أنواع الأوامر والنواهي.

وإذا كان هذا هذا، فمن أين لقائل أن يقول: إن نهي آدم عليه السلام كان على جهة الحظر أو الكراهة؟ فإن احتجوا بقوله تعالى^(١٩) إِنَّهُ: عصي وغوى وظلم نفسه.

قلنا: إذا لم يثبت تكليفه في الجنة فتخرج هذه الألفاظ على مقتضى اللغة؛ فإن المعصية في اللسان عدم الامتثال: كانت مقصودة أو غير مقصودة. وظلم النفس: غبنها وبخسها في منافعها، لكونه وضع الفعل في غير موضعه. وكذلك غوى: أدخل على نفسه الضرر، يقال: غوى الفصيل: إذا رضع فوق حده من اللبن فبشيم، فعلى هذه الوجوه تخرج هذه الألفاظ.

فإن قيل: إذا خرّجتم هذه الألفاظ على هذه الوجوه فما قولكم في

= وكانت قرية إلى جانب البحر. وقد خالف فريق من أهلها واعتدوا في السبت، واصطادوا - وقد نهوا عن الصيد في ذلك اليوم - ولقوا جزاءهم. وكان الفريق الآخر من أهلها ممن لم يخالقوا شهوداً على ما جرى لهم. - ومعنى خاسئين: مبعدين.

(١٨) الإسراء: ٥٠/١٧، والخطاب للمشركون، وسياق الآية مع ما قبلها: ﴿وقالوا إذا كنا عظاماً ورُفَاتاً إنا لمبعوثون خلقاً جديداً. قل كونوا حجارة أو حديداً. أو خلقاً مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة فسيعضون إليك رؤوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريباً﴾. والمعنى: إن عجبتم من إنشاء الله لكم عظاماً ولحمماً فكونوا أنتم حجارة أو حديداً إن قدرتم. وقيل: لو كنتم حجارة أو حديداً لم تفوتوا الله عز وجل إذا أرادكم. وقيل: لو كنتم حجارة أو حديداً لأعادكم كما بدأكم ولأماكم ثم أحياكم. وقيل: المعنى كونوا ما شئتم فستعادون.

(١٩) في سورة طه: ١٢١/٢٠ ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾. وفي سورة الأعراف: ٢٣/٧ في خبر آدم وحواء ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

قوله تعالى^(٢٠): ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا﴾ وفي قوله^(٢١): ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ إلى غير ذلك. فنقول: تخرج هذه الألفاظ أيضاً على جهة قصد الشيطان، والتعريض بالوسوسة إليه لا على قصد القبول من آدم عليه السلام لوسوسته وخدعه. فإن الشيطان قد يوسوس إلى الأنبياء ولكن لا يقبلون منه. قال تعالى لنبينا عليه الصلاة والسلام^(٢٢): ﴿وَإِنَّمَا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾، وقال له^(٢٣): ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ. وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾.

وسنحيل ذلك فيما بعد إن شاء الله تعالى .

وجملة الأمر أنه إذا لم يثبت تكليف لم يثبت إيجاب ولا حظر ولا طاعة ولا معصية يقع فيها ذم شرعي ولا مدح ولا ثواب ولا عقاب . وهذا ما أجمع عليه أهل السنة .

فصل

فإن قيل: فإذا كان ذلك كما زعمتم، فما المختار عند أهل الحق في هذه القصة، وما مُعتقدهم فيها، وكيف التخلُّص منها؟

فنقول: التخلُّص منها عند أهل الحق إن شاء الله: أن الله تعالى نهاه على جهة الإرشاد والإعلام والنصيحة لا على نهى التكليف. ووسوس إليه الشيطان على جهة الإغواء والحسد والمكر فلم يقبل منه. ثم

(٢٠) البقرة: ٣٦/٢

(٢١) الأعراف ٢٢/٧ .

(٢٢) الأعراف ٢٠٠/٧

(٢٣) المؤمنون ٩٧/٢٣ - ٩٨

أنساه الله تعالى بعد ذلك إرشاده إياه ووصيته له، ووسوسة الشيطان إليه، فأكل منها غافلاً عن الوصية والوسوسة.

وإذا كان ذلك لم يُبَلَّ هل كان عند ذلك نبياً أو لم يكن نبياً؛ فإن الناسي لا طَلَبَ عليه في الشرع ولا ذم، بالإجماع. والدليل على أنه نسي قوله تعالى (٢٤): ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ يعني: عَهِدْنَا إليه في أمر الشجرة فنسي العهد فأكل منها من غير عزم على أكلها [ولا] متعمداً لا طراح الوصية والنهي، أو نسي المراقبة لتلك الوصية، ولم نجد له عزمًا على المراقبة؛ فألقي عليه النسيان بتركه المراقبة، فأكل منها. ولا يصح في حقه عليه السلام مع شهادة القرائن وعظم المكانة غير هذين الوجهين. مع أن العزم في اللسان هو: الإرادة التي يقع معها الفعل، وقد نهاه تعالى عنه، فلم يبق إلا أنه أكل ناسياً من غير عزم.

فإن قيل: وما دليلكم على أن العهد المنسي إنما كان في أمر الشجرة، والعُهود كثيرة كعهده له في حمل الأمانة وغيرها؟

فنقول: دليلنا على ذلك أنه لو قصد ارتكاب نهي الله تعالى وترك نصيحته له مراعاةً لمكيدة الشيطان ومكره به وقبوله منه فأكل منها متعمداً لصحة قول اللعين، تاركاً لوصية الله ونهيه، متعمداً لتركهما لكان مُتَّهِماً لخبيره تعالى مفئداً لحكمه، مُرتكباً لنهيه، وهذه كانت فعلة الشيطان عند امتناعه من السجود خذوك النعل بالنعل، وبها حُكِمَ بكُفْرِهِ.

فمن اعتقد هذا في حقه عليه السلام فقد رماه بـرجام الكُفر، والإبتراك (٢٥) في أوصار الجهل، ودَحْضُ المزلات (٢٦). فأما ما كان يترك

(٢٤) طه: ١١٥/٢٠

(٢٥) يقال: ابْتَرَكَ أي أسرع في العدو وَجَدَّ؛ وابتَرَكَ الرجل في عرض أخيه يقصبه: إذا اجتهد في ذمّه.

(٢٦) الأوصار: الأوساخ.

فيه من الجهالات: ففي تقليده عدوه الشيطان، وقبول قوله من غير دليل في أنها شجرة الخلد التي توجب الملك الدائم والحياة الدائمة. وهذا هو القول بالطبع فإنه لا يخلو أن تفعل الشجرة ذلك باختيارها أو توجبه بنفسه، ومحال أن تفعل باختيارها فإنها جماد، ولو قدرت حياً لم يصح فعلها في غيرها، فإن القدرة الحادثة لا تتعلق بما خرج عن محلها، فلم يبق إلا الطبع؛ والقول به كفر. فمن قال إنه أكلها قاصداً لما ذكرناه، ألزم اعتقاد وقوع هذه الجهالات كلها من آدم عليه السلام وهي لا تجوز عليه؛ فإنها تؤدي إلى الكفر الصراح.

ومعلوم من دين الأمة أنه ما كفر نبي قط، ولا جهل الله تعالى، ولا سجد لوثن، ولا أخبر تعالى عن واحد منهم بالكفر، ولا بما دون الكفر من المعاصي قبل النبوة وبعدها؛ سوى قصة آدم عليه السلام، فمن قال بسوى هذا فعليه الدليل، ولا دليل!

فإن قيل: ولعله كان يعتقد أن إبليس أعلم أنه من أكل منها يخلد في الجنة بإرادة الله تعالى لا بالطبع والإيجاب.

قلنا: باطل، فإن الله تعالى أعلمه قبل ذلك بنقيض قول الشيطان في أن الأكل منها سبب الخروج، فلو اعتقد الخلود فيها إذا أكل من الشجرة بقول الشيطان لكان مكذباً للخبر السابق من الله تعالى، وهو الذي فرغنا من استحالاته عليه. فلم يبق إلا أنه أكل منها ناسياً فإنه إذا لم يصح العمد لم يبق إلا النسيان. على أننا لو قدرنا وقوع هذه القبائح من أدنى عاقل مؤمن من البله منا لم يصح، فكيف يصح ممن خلقه الله تعالى بيده، وأسجد له ملائكته، وجعله قبله لهم، وعلمه الأسماء كلها، وجعله معلماً

= - والاحض: الزلق. وفي حديث أبي ذر (رضي الله عنه) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن دون جسر جهنم طريقاً ذا دحض.

لهم، كلمه بلا ترْجُمان على جهة الإكرام والإعلام والنصيحة. جاء في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (٢٧): آدم نبي مكلّم؛ يعني بغير واسطة، إذ من الأنبياء غير مكلّمين، قال الله تعالى (٢٨): ﴿مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾، فكيف يكون آدم عليه السلام مكلّماً على هذه الوجوه كما تقدم، ثم يقع في مثل هذه الجهالات قاصداً متعمداً، حاشى وكلا! فيا لله لما يرتكبه الجاهل من نفسه، من حيث لا يشعر!

فخرج من مجموع ما ذكرناه، أنه أكل منها ناسياً، وعُوتب على نسيانه الوصية، إذ لو كان مُراقباً لم ينسها على مجرى العادة، فهذا هو الحق الذي يُرغب فيه ولا يُرغب عنه. ولا يصح أن يُعتقد في حقه، ولا في حق نظرائه من النبيين والمرسلين سوى ما ذكرناه، أو ما يُضاهيه من الشروح التي لا تُخلّ بقدره، ولا تغضّ من جاهه واجتباؤه واصطفائه كما أخبر تعالى عنه.

فإن قيل: ولعله أكل منها غير قابلٍ لمكيدة الشيطان، ولا رادٍ لوصية ربه وإرشاده إياه، أو ناسياً لمكيدة الشيطان عالماً بوصية ربه، لكن لشهوة غلبت عليه، حتى هان عليه الخروج من الجنة، لتحصيل تلك الشهوة.

قلنا هذا لا يصح في حقه عليه السلام، لأنه مؤذن بضعف عقل فاعله وشدة شرهه وسوء رأيه، وقلة علمه والتقحم على خسيس الشهوة

(٢٧) قال في الجامع لأحكام القرآن:

المكلّم موسى عليه السلام؛ وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن آدم أنبي مرسل هو؟ فقال: نعم نبي مكلّم. قال ابن عطية: وقد تأول بعض الناس أن تكليم آدم كان في الجنة. فعلى هذا تبقى خاصية موسى.

- و: «من كَلَّمَ» أي: من كلمه الله.

(٢٨) البقرة: ٢٥٣/٢

رضيَّ بالنقمة. وليست هذه أخلاقه ولا شيمته، بل كان رأس العقلاء، ورئيس الحكماء، ومعلم الملائكة، ولو حُكي هذا عن عاقل من لفيف الناس لاستبعد في حقه، فكيف في حق من كَلَّمه الله بلا تَرْجُمان على جهة الإكرام؟ فلم يبقَ إلا أن النسيان الذي أخبر الله عنه، وعدم العزم، إنما كان في أمر أكل الشجرة لا غير.

فهذا هذا، ولم يبقَ بعد الخروج عن هذه الإلزامات، في أنه أكل منها ناسياً مطعناً لطاعن. والله أعلم.

ولتعلموا أرشدنا الله وإياكم، أن هذه النكته الغريبة في أمر النسيان، الذي خلص هذه القصة من التخيُّلات الفاسدة، والآراء المضطربة، قد تقدّم إليها غير واحد من العلماء وذكرها، لا سيما مشايخ الصوفية، فإنهم على هذه القولة عَوَّلُوا لكنهم لم يتخلَّصوا منها كل التخلُّص بل نَزَّهوه عنها تنزيهاً جَمِلياً غير مفصَّل بمثل هذا التفصيل.

ولقد تحيرت في إثبات هذا التخلُّص، على هذا الوجه منذ سنين لمعارضة هذا النسيان، بذكر المعصية والغواية والظُّلم، حتى تذاكرت يوماً فيها مع الفقيه العالم المتفنن أبي العباس أحمد بن محمد اللُّخمي^(٢٩) أدام الله كرامته، فكان منه في درج المذكرة ما يليقُ بمثله من التنبيه فيها على بعض نكتٍ نادرة مؤيدة بالتوفيق الرباني، فثلج بها الصدر إذ لا يصح سواها كما قدمناه.

وأخبرني مع ذلك أنه أتعبه النظر في حلِّ مُشكلاتها مدة طويلة، حتى فُتِحَ عليه، فشارك بحمد الله وأعانَ على ما كان تعذّر منها، بارك الله له فيما

(٢٩) أبو العباس أحمد بن محمد اللُّخمي: أُرْجِحُ أَنَّهُ من علماء الأندلس، ولم يتعيَّن لديّ؛ فقد وجدتُ في كتاب الدُّبيل والتكملة لابن عبد الملك نحو عشرة ممّن يكون بأبي العباس ويتسمون بأحمد بن محمد اللُّخمي، ولا مُرَجَّح أو دلالة على المقصود فيهم.

منحه، وبارك لنا في حياته وبقائه وصحة معاملته ومعونته. فانظر أيها اللبيب الفطن إليها، نظر المتناصف ولا تعدل عن هذا الشرح إلى سواه، لئلا يفتح عليك باب من الفساد ولا يمكنك سده؛ فإنه إذا جُوزت عليه المعصية المنهي عنها شرعاً جازت على من بعده من الأنبياء عليهم السلام. وإذا لم تجز عليه فأحرى ألا تجوز على من بعده منهم، لكونهم لم يذكر لواحد منهم معصية في الكتاب ولا في السنة ضمناً ولا تصريحاً؛ ولا يجوز وقوعها عليهم كما قدّمناه.

ثم إن الله تعالى لطف بآدم عليه السلام، في أكله من الشجرة بعد النهي عنها، من ستة أوجه:

أحدها: أنه لما أسجد له ملائكته على جلالته قدرهم، وصيره قبله لهم ومعلماً، لطف بقلبه ألا تخطر به لفظة عجب، فامتنحه بأكل الشجرة، فلما أكل منها عوتب عليها فتواضع.

الثاني: أنه كان مُبسطاً، فلما أكل منها انقبض، فسليم من وهلات البسط لأن الله تعالى لا يعامل إلا بالخوف والقبض.

الثالث: أنه امتحن التكليف وكّد المعيشة في الدنيا، ليحصل له مقام الصبر.

الرابع: أنه رزق من طيبات ثمراتها ليلتذّبها، فيشكر نعم الله تعالى عليه فيجمع بين الصبر والشكر.

فإن قيل: فقد كان يتنعم في الجنة بأكثر مما يتنعم في الدنيا، قلنا: كان يتنعم من غير تعب سابق، ونعيمه في الدنيا ممزوج بالمشقة، والتنعم بعد المشقة يؤكد خالص الشكر؛ وأيضاً فإنه لم يكلف في الجنة كما تقدم، فما كان يؤجر على شكر لو وقع منه.

الخامس: أنه لما خرج من دار التنعم والدعة إلى دار المشقة

والتكليف صحت له المعاملة بالكسب والدرجات بالطاعة وميزان الجنة بالعمل.

السادس: أن تحصل له أجور ما ينتهك بعض ذريته من حرمة عرضه في هذه القصة، فإنهم يغتابونه في اقتفاء ما ليس لهم به علم. وكفى بالمرء عقوقاً أن ينتهك عرض أبيه.

فهذه، رحمك الله، سعة الطاف به في ضمن كل لطف منها مقام كريم لآدم عليه السلام كما قيل (٣٠):

لعل عتبك محمود عواقبه فربما صحت الأجسام بالعلل!

(٣٠) البيت للمتنبي من قصيدة في ديوانه (بشرح العكبري): ٨٦/٣.

شرح قصّة نوح(*) عليه السلام

في محاورته مع ابنه الكافر وسؤاله ربّه في أمره . وكذلك في دُعائه على قومه .

قال تعالى^(١) : ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ . قَالَ سَأُوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَجِمَ وَحَالٍ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ .

قالوا : كيف يصحّ أن يقول له ﴿ارْكَبْ مَعَنَا﴾ ، فيأبى ويظنّ أنّ الجبال تعصمه من الغرق ، مع قول أبيه له ﴿وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ وفي إبطائه أنّ يركب مع أبيه السفينة مع عُقوق أبيه والردّ عليه واعتصامه بغير السفينة ، دليل على إثبات كُفره ، إذ لو صدّق أباه في أنّ النجاة في السفينة والهلاك في غيرها لم يقلّ ذلك .

وفي قوله أيضاً مع اعتقاده أنّ الجبال تعصم من الماء ، تسفيه حلم أبيه ، إذ لو كان الاعتصام بغير السفينة ، لكان الاعتصام بالسفينة سفهاً من جهة الضيق والتّعزير . ونوح عليه السلام أعلم الناس بهذه الوجوه ، وهذه القرائن من أحوال ولده وأقواله ، فإنّها تدلّ على كفره بتكذيبه إياه وتسفيه حلمه . وإذا كان هذا فكيف يسوغ له عليه السلام أن يقول بعد ذلك^(٢) ﴿رَبِّ إِنِّي ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ يعني في سلامة أهلي . وقد

(*) شرح قصة نوح عليه السلام في : تنزيه الأنبياء للشريف المرتضى : ١٧ ، وعرائس المجالس : ٥٤ ، وابن كثير ١ : ١٠٤ ، وتفسير الطبري ١٢ : ٢٥ ، وتاريخ الطبري ١ : ١٧٩ ، وتفسير الطبري ٩ : ٣٠ .

(١) هود : ٤٢/١١ - ٤٣ .

(٢) هود : ٤٥/١١

قيل له قبل ذلك^(٣): ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ وأقوال ابنه وأحواله تدلّ على أنه ممن سبق عليه القول. وكذلك قوله تعالى له^(٤): ﴿وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ وهو من الذين ظلموا.

فالجواب: أنَّ نوحاً عليه السلام حين ركب السفينة وأدخل فيها المؤمنين وأهله كما أمر، رأى ولده في جهة من خارج السفينة وبمقربة منها حيث يسمع النداء، ولم ير امرأته، فيئس من سلامتها، وظن أنها هي المستثناة وحدها وأنها هي التي سبق عليها القول من الله تعالى بختم الكفر والعذاب فقط، وطمع في إيمان ولده الذي كان عهد منه قبل ذلك، وكان ولده يظهر له الإيمان ويُبطن الكفر. والأنبياء عليهم السلام إنما عُتُوا بالظواهر والله يتولّى السرائر. فلما لم ير امرأته يئس من سلامتها. ولما رأى ولده بمقربة من السفينة حيث يسمع النداء طمع في سلامته وحسن الظن أنه مؤمن، فقال^(٥): ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا﴾ يعني في السفينة ﴿وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ أي لا تبق في الأرض فتهلك مع الكفرة. [و] في قوله له: ﴿وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ دليل على أنه كان يعتقد إيمانه. فلما قال له^(٦): ﴿سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ حسن أيضاً به الظن بأنه كان يعتقد أنَّ ما أخبر به أبوه من هلاك الكفرة صحيح، وأنَّ المؤمن يسلم بإيمانه، فظن هو أنه يسلم في السفينة وغيرها فقال له أبوه^(٧): ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ يعني من مُراد الله هلاك الكفرة. ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾^(٧) يعني من رحمه الله فسلم بإيمانه. ولم يقل: إلا من ركب السفينة. فاحتمل القول جواز سلامة المؤمن في السفينة وغيرها، فلم يقع من الولد تكذيب ظاهر لأبيه في هذه

(٣) هود: ٤٠/١١

(٤) هود: ٣٧/١١

(٥) هود: ٤٢/١١

(٦) هود: ٤٣/١١

(٧) هود: ٤٣/١١

المراجعة مع هذه الاحتمالات، ثم ﴿حَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ﴾^(٧) في الحين، فظن نوح عليه السلام أنه قد كان يدخل معه السفينة لولا ما حال بينهما الموج. فلما حال بينهما الموج لم يدر ما صنع الله به وبقي مستريباً في إيمانه، فقال بعد ذلك^(٨): ﴿رَبِّ إِنِّي مِنْ أَهْلِي﴾، يعني في النسب وظاهر إيمانه ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ في سلامة أهلي بإيمانهم ﴿وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾^(٨). إن كان الحكم هنا من الحكمة التي هي العلة فمعناه: أنت أعلم العالمين بحالهِ ومعتقدهِ؛ وإن كان الحكم: التَّهَرُّ بالِإِرَادَةِ والقدرة فمعناه: أنت أفهَرُ القاهرين الذي لا رادَّ لأمرِكَ ولا مُعَقِّبَ لِحُكْمِكَ.

وفي ضمن هذا كُلُّهُ سؤاله رَبَّهُ ورغبته [في] أَنْ يُطْلِعَهُ عَلَى عَاقِبَةِ أَمْرِ وَلَدِهِ كَيْفَ كَانَتْ؟ فأطلعه الله على ذلك فقال^(٩): ﴿يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ يعني في الدِّين لا في النَّسَب^(٩) ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ يعني أن عمله غير صالح، لكنَّ سَمَاءَهُ باسم صِفَتِهِ الغالبة عليه. وقد قُرِئَ^(١٠): ﴿إِنَّهُ عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ﴾ بفتح اللَّام على معنى الخبر عن عمله، فأعلمه الله تعالى بحالهِ ومآلِهِ ثُمَّ أَدَبَهُ تَعَالَى وَوَعَّظَهُ وَعَلَّمَهُ فَقَالَ لَهُ^(١١): ﴿فَلَا تَسْأَلِنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ نَهَاهُ رَبُّهُ أَنْ يَسْأَلَ تَحْصِيلَ عِلْمٍ مَا لَمْ يُكَلِّفْ عِلْمَهُ، إِذْ لَيْسَ يَجِبُ عَلَى الْمَكْلُوفِ أَنْ يَسْأَلَ عِلْمَ مَا لَمْ يَكَلِّفْ الْعِلْمَ بِهِ.

(٨) هود: ٤٥/١١

(٩) هود: ٤٦/١١

(١٠) في الجامع لأحكام القرآن ٤٦/٩ «قرأ ابن عباس وعروة وعكرمة ويعقوب والكسائي: «إِنَّهُ عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ» أي من الكفر والتكذيب، قال: واختاره أبو عبيد. وقرأ الباكون «عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ» أي ابنك ذو عمل غير صالح؛ فحذف المضاف، قال الزجاج وغيره. قال القرطبي: وهذا القول والذي قبله يرجع إلى معنى واحد. ويجوز أن تكون الهاء للسؤال، أي إن سؤالك إياي أن أنجيهِ غير صالح. ونقل وجوهاً آخرَ نكتفي بما أوردنا منها.

(١١) هود: ٤٦/١١

ومن هذا الوجه تخرج قولة خضر لموسى عليهما السلام^(١٢): ﴿فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ وذلك أَنَّ موسى عليه السلام طلب منه علماً لم يكلف طلبه؛ إذ لا يجوز لطالب العلم المكلف بطلبه السكوت عن سؤال علم يلزمه، ولا يجوز للمعلم أيضاً أن ينهيه عن السؤال فيما كُلف العلم به.

فخرج من ذلك أَنَّ نوحاً عليه السلام سأل في أمر ولده عن علم لا يلزمه، فنهاه الله تعالى أن يسأل عما لم يكلف العلم به. ثم حذره تعالى أن يفعل ذلك، على جهة النزاهة لا على الحظر، فقال: ﴿إِنِّي أَعْظَمُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ يعني الذين يتعصبون لعاطفة الرّحم حتى يسألوا عما لم يكلفوا العلم به.

فقد قام بحمد الله عُذر نوح في سؤاله عن رفع الإشكال، وإجابة ربّه تعالى إياه في إعلامه بمآل ولده، وعتبه ألا يعود لمثل ذلك. واستعاذ هو بربّه ألا يفعل مثل ذلك.

ولله تعالى أن يعتب أنبياءه، ويؤدّبهم، ويحذّرهم، ويُعلّمهم، من غير أن يلحق بهم عتب ولا ذنب.

فهذا هذا، والجهلة يخطئون عشواء الدّجون.

(١٢) الكهف: ٧٠/١٨.

(١٣) هود: ٤٦/١١.

فصل

في شرح ما جاء في الكتاب من دُعائه على قومه، وامتناعه الشفاعة الكبرى في الآخرة من أجله.

وَأَمَّا قِصَّتُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي دُعَائِهِ عَلَى قَوْمِهِ حِينَ قَالَ (١٤): ﴿رَبِّ لَا تَذَرُ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ فَأَجَابَهُ رَبُّهُ فِيهِمْ، فَجَاءَ فِي الْخَبَرِ أَنَّهُ احْتَمَلَ أَذَاتَهُمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا، كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى، وَهُوَ يَقُولُ مَعَ ذَلِكَ رَبِّ اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ، فَبَيْنَا هُوَ سَاجِدٌ يَوْمًا إِذْ مَرَّ بِهِ رَجُلٌ مِنْ كُفَّارِ قَوْمِهِ وَعَلَى عُنُقِهِ حَفِيدٌ لَهُ، فَقَالَ الْجَدُّ لِلْحَفِيدِ: يَا بُنَيَّ، هَذَا هُوَ الشَّيْخُ الْكَذَّابُ الَّذِي دَعَانَا إِلَى عِبَادَةِ رَبِّ لَا نَعْرِفُهُ وَأَوْعَدَنَا وَعِيدًا بَلَا أَمَدٍ، فَتَحَفَّظْ مِنْهُ لئَلَّا يُضِلَّكَ، فَقَالَ الْحَفِيدُ لَهُ: إِذَا كَانَ عَلَى هَذِهِ الْحَالَةِ فَلِمَ تَرَكْتُمُوهُ حَيًّا إِلَى الْآنَ؟ فَقَالَ لَهُ الْجَدُّ: وَمَا كُنَّا نَصْنَعُ بِهِ؟ فَقَالَ: أَنْزَلَنِي حَتَّى تَرَى مَا أَصْنَعُ بِهِ، فَأَنْزَلَهُ، فَأَخَذَ صَخْرَةً فَصَبَّهَا عَلَى رَأْسِهِ فَتَلَقَّهَا الْمَلَكُ، وَقِيلَ: شَجَّ رَأْسَهُ، فَلَمَّا سَمِعَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَوْلَهُ وَرَأَى فِعْلَهُ، عَلِمَ إِذْ ذَاكَ أَنَّ الْحَفِيدَ أَطْعَمَ مِنَ الْجَدِّ، فَدَعَا فِي تِلْكَ السَّجْدَةِ فَكَانَ مَا كَانَ (١٥). ثُمَّ نَدِمَ عَلَى دُعَائِهِ حَتَّى إِذَا سُئِلَ الشَّفَاعَةُ فِي الْآخِرَةِ امْتَنَعَ مِنْهَا وَاعْتَذَرَ بِأَنَّهُ دَعَا عَلَى قَوْمِهِ بِالْإِهْلَاكِ (١٦).

ومعلوم أن دعاء المؤمن على الكافر مباح لا ذنب فيه صغيراً ولا كبيراً،

(١٤) نوح ٢٦/٧١

(١٥) الخبر في القرطبي ٣١٢/١٨

(١٦) في سورة نوح: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرُ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا. إِنَّكَ إِن تَذَرُهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾.

وقيل في التفسير:

- دعا عليهم حين يش من أتباعهم إياه.

- دعا عليهم بعد أن أوحى الله إليه «إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن». فأجاب الله دعوته

وأغرق أمته (يعني كفارهم).

لا سيّما بعدما قيل له (١٧): ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾. فلما قَطَعَ بكفرهم دَعَا عَلَيْهِمْ . .

وإذا كان الدُّعاء على الكُفْرَةِ على الإطلاق مُباحاً كان أُخْرَى إذا وقع القَطْع على كفرهم بالخبر الصّدق.

وقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلّم على مُضَر (١٨). وكذلك موسى عليه السّلام دَعَا على فرعون وملئه (١٩).

على أَنَّ دعوة نوح عليه السلام رحمةٌ علّٰها هو إذ دَعَا فقال (٢٠): ﴿إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ﴾ يعني يُضِلُّوا مَنْ آمَنَ مِنْ قومه بكثرة الأذية، فربما رَجَعَ منهم إلى مَذْهَبِهِمْ. وقد يكون العبادُ هنا: المولودين على الفِطْرَةِ الذين إذا أدركوا يكفرون بكُفْر آبائهم (٢١) كما ورد في الخبر.

﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ يعني: من يكفر في ثاني حال، لصحّة الخبر أنهم لا يؤمنون؛ ولَمَّا رأى من الصّبيّ الذي طرَح على رأسه الصّخرة، إن صحَّ الخبر.

(١٧) هود: ٣٦/١١

(١٨) في صحيح مسلم ٤: ٢١٥٧، أَنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم دعا على قريش لما استَعْصَتْ عليه بسنين سيم كسني يوسف، فأصابهم قحطٌ وجُهدٌ، حتّى أكلوا العظام، حتّى أتى رَجُلٌ (قيل هو أبو سفيان) قال: يا رسول الله، استغفر لمُضَر، فإنهم قد هلكوا، فلم يستغفر لهم رسول الله، ولكن دعا الله لهم فمُطِرُوا. (نقلت الحديث بمعناه) وانظر مسند الإمام أحمد ١: ٣٨٠، ٣٤١، ٤٤١.

(١٩) قال تعالى في سورة يونس ٨٨/١٠: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ ومعنى: اطمِسْ على أموالهم: عاقبهم على كفرهم بإهلاك أموالهم.

(٢٠) نوح: ٢٧/٧١

(٢١) إشارة إلى الحديث المشهور: كلّ مولود يولد على الفِطْرَةِ:

- وقوله: «إذا أدركوا» يعني بلغوا مبلغ الرجال، وصاروا في سنّ التكليف الشرعي.

وإذا كان كذلك وطال مكثهم يتوالدون فيكثر سواد أهل النار بطول مكثهم .

وهذا دُعاء مُباح مع ما فيه من الرِّفق بالغير وطلب السَّلامة للبعض . وقد عدّه هو ذنباً ، وذلك لأنّه رأى أنّ سكوته وصبره عليهم كان أولى به ، حتى ينفذ فيهم حكم ربّهم بما شاء .

ويُحتمل أن يعدّه ذنباً لكونه لم يؤمر به ، كما عدّ موسى عليه السَّلام قتل الكافر ذنباً لكونه لم يؤمر به فيقول : قتلت نفساً لم يأمرني الله بقتلها . فهذا رَحِمَكَ الله ، أدلُّ دليلٍ على صِحَّة ما ذكرناه في أنّ الأكابر يصيرون بعض المباحات ذنباً من باب الأولى والأخرى ، إذ الدُّعاء على الكفِّرة مُباح إجماعاً (٢٢) .

فصل

ثم إن الله تعالى أن يعتب أنبياءه وأصفياه ، ويؤدبهم كما تقدّم ، ويطلبهم بالنقيير والقطمير (٢٣) ، من غير أن يلحقهم في ذلك نقص من كمالهم ، ولا غص من أقدارهم ، حتى يتمحصوا للعبودية ، والقيام في نطاق الخدمة ، والقعود على بساط القربة .

ألا ترى كيف نهى الله تعالى نبينا صلى الله عليه وسلّم عن النظر

(٢٢) علّق في الجامع لأحكام القرآن بعد آية سورة يونس الثامنة والثمانين قال : «استشكل بعض الناس هذه الآية فقال : كيف دعا عليهم وحكم الرسل استدعاء إيمان قومهم؟» . فالجواب : أنه لا يجوز أن يدعوني على قومه إلا بإذن من الله ، وإعلام أنه ليس فيهم من يؤمن ولا يخرج من أصلاهم من يؤمن ، دليل قوله لنوح عليه السلام : «إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن» وعند ذلك قال : «رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً» والله أعلم .
(٢٣) يضربان مثلاً في القليل والذي لا شأن له :
فالنقيير : النكتة (الثمرة) في ظهر نواة الثمرة .
والقطمير : القشرة الرقيقة على نواة التمرة كاللغافة لها .

لبعض المُباحات فقال (٢٤): ﴿لَا تُمَدَّنْ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ الآية. ونهاه أن يُتبع النظرة الأولى ثانية؛ فقال له (٢٥): ﴿وَلَا تَعُدُّ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ مع قوله تعالى في مقام آخر (٢٦): ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾.

فإذا لم يحرم أكل الطيبات والتمتع بالزينة إذا كانت من كسب الحلال، - والنظر في الحُسن من التمتع والزينة - فكيف يحرم النظر إليها؟ لكن كما قال المشايخ: حَسَنَاتُ الْأَبْرَارِ سَيِّئَاتُ الْمُقَرَّبِينَ!

جاء في الصحيح، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم الفتح (٢٧): «ما كان لنبِيٍّ أن يكونَ لَهُ خائنةُ الأعينِ».

يعني الإشارة بالعين في الأوامر حتى يفصح بها.

والإشارة بالعين في الأوامر مُباحة، لكنه يجري (٢٨) عنها تنزيهاً وتأكيذاً لرفع الالتباس، وهي مباحة لغير الأنبياء.

(٢٤) الحجر: ٨٨/١٥.

(٢٥) الكهف: ٢٨/١٨.

(٢٦) الأعراف: ٣٢/٧.

(٢٧) في سنن أبي داود ٤: ١٢٨، ونصه: «إنه لا ينبغي لنبِيٍّ أن تكون له خائنة الأعين».

(٢٨) في الأصل المخطوط كلمة رسمها (يجري) بلا نقط.

شرح قصّة إبراهيم (*) عليه السلام

بما تَقْتَضِيهِ الآيَاتُ الثَّلَاثُ.

إحداها: في استدلاله بالثلاثة الكواكب.

الثانية: في الأقوال الثلاثة التي قال إنها كذبات.

الثالثة: في قوله^(١): «رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى»

فَمِمَّا تَخَيَّلُوهُ فِي اسْتِدْلَالِهِ بِالْكَوَاكِبِ أَنَّهُمْ زَعَمُوا أَنَّ أُمَّهُ قَرَّتْ بِهِ صَغِيرًا إِلَى مَغَارَةٍ خَوْفًا مِنَ النُّمُرود، فَإِنَّهُ كَانَ يَذْبَحُ أَبْنَاءَ الْعَمَالِيقِ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ، خِيفَةً عَلَى خَرَابِ مُلْكِهِ عَلَى يَدِ مَوْلودٍ فِيهِمْ. كَمَا كَانَ يَفْعَلُ فِرْعَوْنُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، خِيفَةً مِنْ خَرَابِ مُلْكِهِ عَلَى يَدِ مَوْلودٍ مِنْهُمْ.

فَأَلْقَتْهُ فِي الْمَغَارَةِ، وَكَانَتْ تَخْتَلِفُ إِلَيْهِ^(٢) فَتَرْضَعُهُ فِيهَا، وَكَانَ يَشْتَقُّ عَلَيْهَا ذَلِكَ خِيفَةً مِنْ أَنْ يَظْهَرَ أَمْرُهَا مَعَهُ لِقَوْمِهَا بِالتَّكْرَارِ إِلَيْهِ، إِلَى أَنْ جَاءَتْ يَوْمًا فَوَجَدَتْهُ يَرْضَعُ ظَبْيَةً، فَطَابَتْ نَفْسُهَا وَعَلِمَتْ أَنَّهُ مُحْفُوظٌ، فَتَرَكْتَهُ وَلَمْ تَعُدْ إِلَيْهِ، فَبَقِيَ كَذَلِكَ حَتَّى حَصَلَ فِي حَدٍّ مَنْ يَعْقِلُ، فَخَرَجَ لِيلاً مِنَ الْمَغَارَةِ لِيَطْلُبَ الْعِلْمَ بِصَانِعِهِ وَمَعْبُودِهِ، فَرَأَى كَوْكَبًا وَقَادًا فَقَالَ: هَذَا رَبِّي إِلَى آخِرِ مَا قَالَ.

فَأَمَّا قَوْلُهُمْ فِي قِصَّةِ الْمَغَارَةِ وَالظَّبْيَةِ، فَهُوَ قَلِيلٌ فِي كَرَامَتِهِ وَجَائِزٌ عَلَيْهِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُمْ: نَظَرَ فِي الْكَوْكَبِ فَقَالَ: «هَذَا رَبِّي»، مُعْتَقِدًا لِذَلِكَ فِبَاطِلٍ، فَإِنَّ هَذَا الْقَوْلَ كَفَرٌ صَرَاحٌ، وَمَا كَفَرَ نَبِيٌّ قَطُّ وَلَا سَجَدَ لَوْثُنٍ قَبْلَ النُّبُوَّةِ وَلَا بَعْدَهَا،

(*) شرح قصة إبراهيم عليه السلام في: تنزيه الأنبياء للشريف المرتضى: ٢٠، وعرائس المجالس: ٧٣-٧٩، وابن كثير ١: ١٩١، وتفسير الطبري ٣: ٣٢، وتاريخ الطبري ٢٣٣: ١ و ٧: ١٥٨ و ١٧: ٢٨، وتفسير القرطبي ٣: ٢٩٧ و ٧: ٢١ و ١١: ٢٩٩

(١) البقرة: ٢٦٠/٢

(٢) أي تأتي مرة بعد مرة؛ بحسب الاقتضاء والضرورة.

ولا تفوه أحدٌ من الأمة بذلك قط، كان مُحِقّاً أو غير مُحِقِّ.

جاء في الأثر في خروج نبينا صلى الله عليه وسلم صغيراً مع عمّه أبي طالب إلى الشام، أنّه لما مرَّ بصومعةٍ بِحِيرًا الرَّاهِبِ^(٣) نزل إليه في حديثٍ يطول ذكره، إلى أن قال له: باللاتِ والعزى يا غلامُ ما اسمُك؟

فقال له: إليك عني، فوالله ما تكلمت العربُ بكلمةٍ هي أثقلَ عليّ من هذه الكلمة!

فحاشا لِأنبياء الله تعالى من اعتقادِ الكُفر في وقتٍ من الأوقات!

وكيف، وقد جاء في الصحيح أنّ النبي صلى الله عليه وسلم إذ كان غلاماً كان يوماً ينقلُ الحجارةَ مع عمّه أبي طالب لإصلاح ما ثلم في الكعبة^(٤)، وهو عارٍ؛ فسقط على وجهه في الأرض مغشياً عليه، فلما أفاق قال له عمّه: ما بالك؟ فقال: رأيتُ شخصاً أشار إليّ أن استترّ. وكان ذلك الشخص المَلَك. فهذا صغيرٌ ينبّه المَلَك على أدبٍ من آداب الشريعة قبل التكليف. فما ظنُّك بحمايتهم من الكُفر؟ على أن منهم من أُوتي الحُكم صبيّاً، كيحيى عليه السّلام. قال تعالى^(٥): ﴿وَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً﴾ وعيسى عليه السّلام تكلم في المهد صبيّاً بالحكمة، حيث قال^(٦): ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ..﴾ الآية؛ والذبيح أُوتي العِلْمَ والجِلْمَ غلاماً؛ قال^(٧): ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ وفي آية

(٣) انظر السيرة النبوية ١: ١٨٢

(٤) انظر السيرة النبوية ١: ١٨٣، ومسند الإمام أحمد ٣: ٢٩٥

(٥) مريم: ١٩/١٢

(٦) مريم ٣٠/١٩

(٧) الذاريات ٢٨/٥١

- «عليم» أي يكون بعد بلوغه من أولي العلم بالله ودينه.

قال في الجامع لأحكام القرآن: الجمهور على أن المبشّر به هو إسحاق. وقال مجاهد

أخرى^(٨) ﴿حَلِيمٌ﴾.

فهذا هو الذي يصحُّ من أحوالهم، ويُعتقد في جانبهم الكريم.
وإذا كان هذا شأنهم في حال الطفولية، فما ظنُّك بهم في حال الإدراك
وكمال العقل؟! وكمال العقل؟!

فحاشاهم أن يكفروا اعتة اداً أو يتلفظوا بكلمة كُفر: كانوا صغاراً أو كباراً.

فإن قيل: فمن أين عَرَفُوا الله تعالى قبل النبوة؟!

فنقول: بالنظر والاستدلال.

فإن قيل: فقد كانوا زمنَ النظر غيرَ عالمين بالله تعالى!

قلنا: كذلك هو. لكن ما دام المحلّ معموراً بالنظر لم يحكم له بكفر ولا
بإيمان، إلا أنه كان آخر نظرهم مُتصلاً بالعلم، ففي أثر ما نظروا عَرَفُوا الحقَّ حقاً
من غير أن يَعْتَقِدُوا جهلاً أو يتلفظوا بكلمة كُفر.

ومن الناس مَنْ قال: إنهم عَلِمُوا خالقهم بعلومٍ ضروريةٍ على جهة
الخرق والإكرام لهم.

وهذا سائغٌ في المقدور لائقٌ بهم، إلا أنهم يفوتهم في ذلك أجزء
الكسب، إذ ﴿ليس للإنسان إلا ما سعى﴾.

ومنهم مَنْ قال: إنهم اكتسبوا العلم من غير تقدّم نظرٍ على جهة الخرق،
إكراماً من الله تعالى لهم؛ والله أعلم.

ولهم في هذا كلامٌ لا تحتمل هذه التعاليق بسطه، لكنهم مُجمعون

= وحده: هو إسماعيل. قال: وليس بشيء فإن الله تعالى يقول: «وبشرناه بإسحاق» وهذا نص.

(٨) الصافات: ١٠١/٣٧ ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ أي يكون حليماً في كبره، فكانه بُشِّرَ ببقاء ذلك الولد لأن الصغير لا يوصف بذلك.

على أنهم علموا من أول وهلة، على أي وجه علموا: نظراً أو ضرورة.

فصل

وأول ما ينبغي أن نقدم قبل الخوض في هذه المسائل الإعلام بأن إبراهيم عليه السلام كان نبي الحجة، وهو أول من أصل أصول الدين بالاستدلال على علم التوحيد. وبه اقتدى رؤساء المتكلمين في استدلاله بالثلاثة الكواكب التي وردت في الكتاب كما سيأتي فيما بعد إن شاء الله تعالى.

قال تعالى^(٩): ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

نرفع درجات من نشاء، أي بالحجة البالغة والعلوم العالية، فكان قومه حَرَائِيِينَ^(١٠) ينظرون في النجوم ويردون لها القضاء في الأفعال، ويعبدون بعضها. فكان هو يقصد الاحتجاج عليهم في حدوثها بتغيرها وتبدل أحوالها، فخرج مع أهل الرصد ليلاً لينبهم على حدوثها بتغيرها مع تسليم مذهبهم الفاسد لهم جَدَلًا؛ وقصده: مقابلة الفاسد بالفاسد فإنه من وجوه النظر. والأظهر في طريقة التنبيه على الحدوث الاستدلال بالأكوان، فإن الحركة يُعلم حدوثها ضرورة لكونها تقطع الحيز بعد الحيز بحركة بعد حركة. فمن رأى ساكنًا يتحرك علم تغيره ضرورة، فنظر عليه السلام فرأى كوكبًا فقال لقومه: ﴿هذا ربي﴾ يعني على ظنكم وحسابكم. ففرحوا بقوله وظنوا أنه رجع إلى مذهبهم، فلمّا أفل رجع لهم عن قوله الأول بقوله: ﴿لا أُجِبُّ الْآفِلِينَ﴾!

فعلموا إذ ذاك أنه رجع عن مذهبهم بحجة بالغة، والدليل على صحة ما

(٩) الأنعام: ٨٣/٦

(١٠) الحرانيون نسبة إلى مدينة حرّان؛ وهي مدينة مشهورة، تقع اليوم في تركيا، فُتِحَتْ أيامَ عمرين الخطاب رضي الله عنه (وانظر معجم البلدان: حرّان).

رُمناه من أنه قال ﴿هذا ربي﴾ على جهة التّعنيّة لهم، وإقامته الحُجّة عليهم
لعلهم يتفطنون ويتعلمون منه وجوه الاستدلال.

ويتصوّر الردّ فيه على القائلين بأنّه استدَلَّ وغلَطَ وتَحَيَّرَ من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه لو قال: ﴿هذا ربي﴾ على جهة الاعتقاد والتصميم لكان كافراً
في تلك اللَّيلة إلى حين غروب الكوكب. وكذلك يلزم في قوله في القمر
والشمس، ومن اعتقد هذا فقد أعظم عليه الفريّة، وردّ ما عليم من دين الأُمّة في
أنّ نبياً ما كفر قطّ عقداً ولا لفظاً كما تقدّم. وغايته أن لو كان ما زعموه لتوقف على
دووب النّظر حتى يعلم الحق حقاً لكون الناظر في حال نظره لا يُحكم له بكفر
ولا بإيمان كما تقدّم.

الثاني: أنه لو كان يُثبت إلهيّة الكوكب عند الطلوع من أجل ظهوره وينفيها
عند الغروب من أجل غروبه لقامت عليه حُجّة الخصم بأن يقول له: إذا أثبت
إلهيّة الكوكب عند الطلوع ونفيها عند الغروب فالكوكب يسري على ما هو به،
وإنما غاب عنك وسيطلع غداً ويظهر لك فيلزمك أن تُثبت الإلهيّة له عند كلّ
طلوع وتنفيها عند كلّ غروب. وهذا تناقض بين مع تساوي الغروب والطلوع له
في التّغير.

الثالث: أن الكواكب لا تكاد تُعدّ كثرةً فمن أين له أن يعيّن أحدها
بالإلهيّة مع التّساوي بينهما في كل حال.
فإن قالوا إن الكوكب كان من الدّراري السّبعة التي يعتقد قومه فيها الإلهيّة
قبل.

قيل لهم: هذا باطلٌ من أربعة أوجه:

أحدها: أنكم قلتم إنّه عندما خرج في حال صغره من المغارة رأى أوّل
كوكب فقال هذا ربّي. فهو على قولكم لم يعلم الدّراري من غيرها رؤيةً ولا
سَماعاً لكونه لم يرَ أحداً يُخبره بذلك.

الثاني: أنه لو كان يقصد أحد الدّراري لعلمه بأن قومه عبّذوها وخصّصوها بالآلهية فيقول ﴿هذا ربي﴾ معتقداً لذلك لكان مقلداً لقومه في الكفر لكونه ما عنده إلا ما سمع منهم بأنها آلهة. وهذا أشدّ عليهم في الإنكار من كل ما تخيلوه.

الثالث: أنّ الطلوع والغروب في التغيّر والحركات على سواءٍ في الاستدلال على الحدوث؛ فلم استدللّ بأحدهما على نفي الآلهية وأثبتها للثاني؟

الرابع: أنه قال في الشمس والقمر ما قاله في الكوكب فصار ينقل الآلهية من جسمٍ إلى جسم، والكُلّ في حالة الطلوع والغروب على سواء. وهذه غاية الجهل الذي يُخاشى الخليل عليه السلام عنه قطعاً.

فإن قالوا: لما رأى القمر ظنّ أنّه لا يغرب فقال ذلك؛ قلنا: هذا باطل فإنّه قد جرب الكوكب وطلوعه وغروبه ثم رأى القمر طالعاً كالنوكب. فلو كان ما زعمتم لتوقف عن هذا القول حتى يرى هل يغرب أم لا يغرب، وأما قوله في الشمس فيجب أن يتأكد الإنكار عليه لتأكيد تكرار التجربة منه في الكواكب والقمر.

وهذه الأقوال كلّها لو قدّرت لأحدٍ منا لأنكرها كلّ الإنكار فإنّ فيها غاية الحيرة وعدم الاستدلال. فكيف تثبت لخليل الرحمن الذي أراه ملكوت السموات والأرض حتى كان يرى ويسمع صريف القلم^(١١) في اللوح المحفوظ؟ وكان يُسمع خفقات قلبه من خشية الله على فرسخ؟ فإذا بطلت في حقّه - بل في حقّ العقلاء المستدلين - هذه الأقوال لم يبق إلا أنّه قالها من باب مُقابلة الفاسد بالفاسد ليقيم الحجّة على قومه في التغيّر بالأكوان الدالة

(١١) صريف القلم صوت صريره على الورق وما يُكتب عليه من أشياء.

على الحُدُوث، ويعضد ذلك قوله لهم في الشمس^(١٢): ﴿هَذَا رَبِّيَ هَذَا أَكْبَرُ﴾ يعني أكبر جرماً وأبهر ضياءً، وأنفع لأهل الأرض، من كل ما دُونها من الكواكب، وهي تتغير كتغيرها، وليس بعدها ما ينتظر^(١٣) ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ الآيات إلى قوله^(١٣) ﴿وَحَاجَّةُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾ الآية والبارئ تعالى يُخبر أنه نادى قومه وناجاهم، وحاجَّوه وحاجَّهم، وردَّ عليهم. وهم يَقُولُونَ إنه خرج من المغارة وحده. واستدلَّ وغلط وتحيَّر وقال: هَذَا رَبِّيَ في الكواكب الثلاثة؛ فلو كان صغيراً كما زعموا لم يكن له قومٌ يُناديهم ويَحَاجُّونه، ولو كان أيضاً لم ير الكواكب إلا تلك اللَّيلة كما زَعَمُوا، لم يقل في الشمس على الإطلاق «هَذَا رَبِّيَ هَذَا أَكْبَرُ»، مع تجويز طُلُوع أكبر منها فلولا ما رأى الكواكب قبل ذلك لم يقل: هَذَا أَكْبَرُ. وهذا جزاء من يتكلَّم في أمور الأنبياء عليهم السَّلام، قبل أن يَتِمَّرَن في علم ما يجب لهم ويستحيل عليهم.

فصل

فإن قالوا: فإذا زعمت أنه قال لقومه هذا، يعني ثلاث مرات معترضاً ومنبهاً، ليقيم الحجة عليهم وهو يعتقد خلاف ما يقول، فَلِمَ لَمْ يعد هذه الأقوال في الكذبات التي يعتذر بها في المحشر، حين يُطالب بالشفاعة^(١٤) فيقول: كذبت في الإسلام ثلاث كذبات، وهي بالإضافة إلى هذه الثلاث ست؟ وكذلك جاء في الحديث أن إبراهيم عليه السلام لم يكذب إلا ثلاث كذبات، وما منها كذبة إلا وهو يُمَاجِلُ بها عن الإسلام أي يُدافع؟ فالجواب من ثلاثة أوجه:

(١٢) الأنعام: ٧٨/٦

(١٣) الأنعام: ٨٠/٦

(١٤) انظر الحديث بتمامه في مسند الإمام أحمد ١: ٢٨١

أحدها: أن الثلاث الكذبات التي عددها على أوجه مختلفة، فإحداها أنه لما دعوهُ للخروج معهم لمهرجاناتهم في سُدفَةِ السَّحَرِ، وفي باله أن يكيد أصنامهم بعد خروجهم، كما أخبرهم حين قال^(١٥): ﴿وَتَأْتِيهِمْ لَآئِكِدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدِيرِينَ﴾ فنظر إلى النجوم ليقم عُذْرَهُ عندهم على زعمهم لكونهم يقولون بالقضاء في النجوم^(١٦)، ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ فاعتقدوا أنه رأى في النجوم أسباب المرض، فرضوا عنه بذلك وتركوه!

وهذا من النمط الذي قدّمناه في الكواكب الثلاثة، أن أقواله فيها إنما كانت على جهة الإبهام عليهم، والتنبيه لهم لعلمهم يتفطنون في ثاني حال.

الثانية: قوله بعدما صير أصنامهم جُذاذاً^(١٧) حين سأله^(١٨): ﴿مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا؟﴾ فقال: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾، وأشار إلى كبير الأصنام، وهو قد شوّه صورته، وسمل عينيه^(١٩) وجدع أنفه. ومقطوع به أنه قال ذلك ليقم الحجة عليهم في نفي الإلهية عما اعتقدوه من الكواكب والأصنام، فصارت هذه القولة في معناها، تشبه تلك الأقوال الثلاثة في الكواكب. فلما كانت الأقوال مع قوله في الصنم على وجه واحد من إقامة الحجة على مذهب الخصم، ومقابلة الفاسد بالفاسد، صارت كالواحدة في المعنى. ثم أضاف لها القولتين المختلفتين، في النظر في النجوم، وقوله في أهله للملك الجبار «هي أختي»، فصارت ثلاثاً^(٢٠).

(١٥) الأنبياء: ٥٧/٢١

(١٦) الصافات: ٨٩/٣٧ وقبلها قوله تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ الصافات: ٨٨/٣٧

(١٧) جُذاذاً: قِطْعاً مُكْسَرَةً.

(١٨) في سورة الأنبياء: ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ. قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ. قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ. قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ. قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾

الآيات: ٥٩-٦٣

(١٩) سمل عينيه: اقتلعهما.

(٢٠) انظر الحديث بتمامه في صحيح مسلم ٤: ١٨٤٠

وأما الثالثة التي هي قوله للملك الذي أراد أن يأخذ منه أهله عنوةً، فسأله: ما هذه التي معك؟ فقال: هي أُختي؛ فكان قوله ذلك طمعاً في تخليصها منه بهذه القولة ليقيم عُذره عند الملك، لكون الغيرة على الأخت، أكد منها على الزوج. فقال له ذلك لعله يتركها له، كالذي فعل. فلو قال هي زوجتي فربما كان يقول له: انزل لي عنها أتملكها على الوجه الذي كانت عندك فلما كانت القولتان تخالف الواحدة التي اتحدت مع الثلاث في إقامة الحجّة على الخصوم، بعد تسليم مذهبهم لهم جَدلاً عَدَّ الكُلَّ ثلاثاً، لاتحاد الأربعة الأقوال في المعنى.

الوجه الثاني: أن تكون القولات الثلاث في الكواكب التي لم يعدها من الكذبات، بأمر من الله تعالى، أمر أن يقولها فقالها ولم يعدها كذبات لكونه مأموراً بها؛ وتلك الثلاث التي عدها كانت عن نظره واجتهاده فأبهمها بأن رأى أن السكوت عنها كان له أولى، على ما قدّمناه في حقهم من مُراعاة الأولى. وإذا كانت الثلاث الأخر بأمر الله تعالى له فلا حرج فيها لكونه مأموراً بها، فتخرج له مخرج قول الملك لداود عليه السلام^(٢١): ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي﴾ ولم يكن أخاه حقيقة. وقوله^(٢١): ﴿لَهُ تَسْعُ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾ ولم يكن له نعاج؛ إلى آخر ما قاله.

وقول يوسف عليه السلام لإخوته^(٢٢): ﴿إِنكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ كما قدّمناه حرفاً بحرف.

والأظهر من الوجهين الأخير منهما؛ ودليلنا عليه أن الستة الألفاظ في التلّفظ بخلاف المُعتقد على سواء.

فذكر الثلاث والإعراض عن ذكر الثلاث الآخر، مع ورعه عليه السلام وشدة مراقبته، دليل على أن التي أعرض عن ذكرها كانت بأمر الله تعالى.

(٢١) ص: ٢٣/٣٨

(٢٢) يوسف ٧٠/١٢

الثالث: ما جاء في الصحيح أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (٢٣): «لم يكذب إبراهيم عليه السلام في الإسلام إلا ثلاث كذبات، كلها ماحل بها عن دين الله: قوله في الكواكب ﴿هَذَا رَبِّي﴾، وقوله في سارة «هي أُختي» وقوله في الأوثان ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾».

فقد فسرها عليه السلام حين عدّها ثلاثاً، فصارت الثلاثة القولات في الكواكب كالواحد في العدد لكونها متّحدة في المعنى. وانضّفت إليها قولته عن سارة، وقولته عن الأوثان، فصارت ثلاثاً.

وتكون قولته: «إِنِّي سَقِيمٌ» حقيقة، وتكون النجوم هنا ما ينجم له من تفاصيل أحواله أي يظهر له. ويعضد هذا الخبر ما ذكرناه من أنه قال في الكواكب ما لم يعتقده ديناً كما زعم الجّهلة.

فصل

وأما قصّته عليه السلام في طلب رؤية كيفية البعث وجمع الأجسام بعد تبدّدها. وسبب هذا الطلب ما جاء في الخبر عن سيّد البشر صلى الله عليه وسلم أنّه قال (٢٤): «بينما إبراهيم عليه السلام يمشي على ساحل البحر إذ مرّ بدابة

(٢٣) في صحيح مسلم ٤: ١٨٤٠، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لم يكذب إبراهيم النبي - عليه السلام - قط إلا ثلاث كذبات؛ اثنتين في ذات الله: قوله: «إني سقيم»، وقوله: بل فعله كبيرهم هذا؛ وواحدة في شأن سارة...» وذكر خبر إبراهيم وسارة مع الجبار.

(٢٤) ونقل القرطبي في الجامع، قال الحسن: «رأى إبراهيم - عليه السلام - جيفة نصفها في البرّ توزّعها السباع، ونصفها في البحر توزّعها دوابّ البحر، فلمّا رأى تفرّقها أحبّ أن يرى انضمامها، فسأل ليطمئن قلبه برؤية كيفية الجمع كما رأى كيفية التفريق...».

- وفي تنزيه الأنبياء للشريف: وقد روى المُفسّرون أن إبراهيم عليه السلام مرّ بحوت نصفه في البرّ ونصفه في البحر، ودوابّ البرّ والبحر تأكل منه وأخطر الشيطان بباله استبعاد رجوع ذلك حيّاً مؤلفاً مع تفرّق أجزائه وانقسام أعضائه في بطون حيوان البرّ والبحر... إلخ. وردّ الشريف على ذلك بوجوه مختلفة جاء المؤلّف هنا بما يشبهها أو يماثلها.

بعضها - في البرّ وبعضها في البحر، فرأى دوابّ البحر تأكل ممّا يليها، ودوابّ البرّ تأكل ممّا يليها، فقال: ليت شعري، كيف يجمع الله هذه؟... الحديث.

فاشتاق إلى رؤية الكيفية فقال إذ ذاك^(٢٥): ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾. نُقِلَ هذا الخبر على المعنى.

فصل

اعترضت المُلحدة هذه القصة ومن تابّعهم من اليهود والنصارى والقرامطة، ومن قال من الباطنية باستحالة حشر الأجساد، والجهلة بعصمة الأنبياء عليهم السلام، على الوجه الذي ذكرناه قبل.

فقالوا: هذا إبراهيم عليه السلام على جلالته قد استراب في البعث حتّى طلب رؤية الكيفية ليطمئنّ قلبه بنفي الاسترابة. وهذا أشدّ في الاعتراض من كلّ ما ذكره، فإنّ الشكّ في البعث كفرٌ صراح بالإجماع من كل أمة^(٢٦). فإنّ حقيقة الكفر في الشرع تكذيب الله ورسله. وما ملئت طباق جهنم^(٢٧) إلّا من هذا الصنف الشاكّ فيما جاءت به الرسل عليهم السلام.

فانظر عصمنا الله وإياكم إلى مُعْتَقِدِ هذه الوصمة في حقّ الخليل صلى الله عليه وسلم، أن تُؤوّل به. ولأجلها جاء عنه عليه السلام أنّه قال^(٢٨): «نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ»؛ نَبّه ضعفاء العامة أنّ أنبياء الله تعالى في العصمة والنزاهة على سواء، فما جاز على أحدهم جاز على الكلّ. فكأنّه

(٢٥) البقرة ٢: ٢٦٠

(٢٦) يقول: إن الإقرار بالبعث والنشور أساس في كلّ عقيدة في أديان الله.

(٢٧) طباق جهنم: طبقاتها، طبقة فوق طبقة.

(٢٨) في صحيح مسلم ١: ١٣٣

يقول: إياكم أن تجوزوا الشك على إبراهيم عليه السلام فيما يوحى إليه به، فإن جَوَزْتُمُوهُ عليه فأنا أحق أن تُجَوِّزُوهُ عَلَيَّ، وأنتم لا تجوزونه عَلَيَّ فلا تجوزوه عليه. ثم تأدب عليه السلام مع الأب بقوله: نحنُ أحق.

فصل

في شرح الآية. قال الله تعالى^(٢٩): ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى، قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنْ لَيْطَمَّيْنَسَ قَلْبِي، قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا، وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ تنبيهٌ لنبينا عليه السلام ليتهيأ لقبول الخطاب، كما قدّمنا في قصة زيد، فكأنه يقول له: وقد أخبرك عن قول إبراهيم إذ طلب أن أريه كيف أُحيي الموتى، فأسَعَفْتُهُ في ذلك وأرَيْتُهُ الكيفية فذكره تعالى إسباغ الآله على أنبيائه وإسعافه لهم فيما يثلج به صدورهم مما غاب عنهم من بعض الجائزات في معلوماته تعالى.

وأما قوله إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ وأنه طلب أن يُريه تعالى مثلاً محسوساً يُطلعه على كيفية الجمع من أقاصي الأرض وبُطون الحيوانات، وكيفية سرعتها في الحركات عند الاجتماع، ولأي أصل تجتمع، وعلى أي وجه تتصور، إذ الجواز بحر لا ساحل له.

وقد نبّه عليه السلام على بعض هذه الكيفيات فقال^(٣٠): كل ابن آدم تأكله الأرض إلاّ عجب الذنب فإنه منه خلق وفيه يركب.

(٢٩) البقرة: ٢٦٠/٢

(٣٠) في صحيح مسلم ٤: ٢٢٧١، من حديث أبي هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «كل ابن آدم يأكله التراب إلاّ عجب الذنب، منه خُلِقَ، وفيه يُركَّب».

ومعنى (خلق) هنا: (صَوَّر) لكون الشيء لا يُخترع من الشيء، وإنما يُخترع لا من شيء. وأخبر عليه السلام أنَّ عَجَب الذَّنْب الذي هو وسط الجرم منه بدىء تركيبه في الرَّحْم، وإليه ترجع الأجزاء الزائلة عنه في نواحي الأرض إذا بُعِث.

وفي هذا الحديث دليلٌ على أنَّ أكل الأرض إنما هو عبارة عن تبدُّد الأجزاء في الجهات لا عَدَمها البتَّة.

ويعضد ذلك ما سنذكره إن شاء الله تعالى في هذه القصة من جمع أجزاء الطيور بعد تفريقها. وللناس في هذا عريضٌ من القول لسنا الآن له.

وأما قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالِ بَلَىٰ﴾.

سأله بالنفي فأجابه بـ «بلى» التي هي جوابُ النفي لإثبات المنفي. كأنه قال له: أَلَسْتَ مُؤْمِنًا بالبعث؟ قال: بلى، معناه: أنا مُؤْمِنٌ به كما علمت، لكنني أريد أن يطمئن قلبي برؤية الكيفية، فقال تعالى له: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ أي: أَمِلْهُنَّ إِلَيْكَ بالإحسان والتعليم لكي تدعوها فتأتيك مُجِيبَةً لدعائك. ففعل ذلك ثم أخذ الطيور وذكَّاهَا^(٣١) وحَزَرَ رؤوسَهَا، وأمسكها عنده، وهشم أجسامَهَا وخلطَهَا حتى صارت جِسْمًا واحدًا لا يَتَمَيَّزُ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ، ثم فَرَّقَهَا عَلَى أَرْبَعَةِ أَجْبُلٍ، ثم قَعَدَ هُوَ فِي الْجَبَلِ الْوَسْطِ الَّذِي أَحَاطَتْ بِهِ الْجِبَالُ الْأَرْبَعَةُ، ثُمَّ دَعَاها فَطَارَتِ الْقَطْرَةُ مِنَ الدَّمِ إِلَى الْقَطْرَةِ، وَاللَّحْمَةُ إِلَى اللَّحْمَةِ، وَالرِّيشَةُ إِلَى الرِّيشَةِ، وَكَذَلِكَ صَكِيكَ الْعِظَامَ، وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيْهَا حَتَّى التَّأَمَّ كُلَّ جَسَدٍ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْأَجْزَاءِ الَّتِي كَانَتْ لَهُ قَبْلَ، ثُمَّ طَارَ كُلُّ جَسَدٍ إِلَى رَأْسِهِ فَالتَّأَمَّ بِهِ.

(٣١) ذَكَّاهَا: ذَبَحَهَا. وصَكِيكَ العظام: المدقوق المهروس.

فصل

انظروا - رحمكم الله - إلى وقوع هذه الكيفية فإنها تشبه بعث بعض الأجساد وجمعها وإحياءها وسُرعة مسيرها إلى أرض المحشر حَذْوَك النعل بالنعل^(٣٢).

فأما كون وقوع المثال بالطيور بدلاً من سائر الحيوانات، فهو أن يقع الشبهة فيها بأحوال البعث من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنها تقبل التعليم حتى تدعى فتجيب، كالنسر والعقاب والباري والسودنيق^(٣٣) والغراب والطاؤوس، إلى غير ذلك.

وأنها تؤخذ أفراخاً فتربى وتعلم فتقبل التعليم حتى تطير، وترجع إلى داعيها إذا دُعيت، وكذلك الملك إذا دعا الموتى من القبور جمعوا وحيوا وأتوه.

والثاني: أن الطيور إذا دُعيت أتت بسرعة تفوق بها سائر الحيوانات، وكذلك الملك إذا دعا الموتى أتوه بسرعة. كما قال تعالى^(٣٤): ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ أي مُسْرِعِينَ. وقال تعالى^(٣٥): ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَانَهُمْ إِلَى نَصَبٍ يَوْفُضُونَ﴾.

الثالث: أن الطير تأتي في الهواء على خط استواء فتكون أسرع في الإتيان، وأظهر للرائي فإنها لا تفوت بصره. فلو كانت غير الطيور من الحيوانات كالآرانب والثعلب والكلب والذئب، إلى غير ذلك، وجاءته لكانت تتوارى في بعض الغيطان وخلف الشجر والربا إلى غير ذلك، فكانت تغيب عن بصر

(٣٢) الحذو: التقدير والقطع، وفي الحديث: «لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوَك النعل بالنعل» أي يعملون مثل أعمالهم كما تقطع إحدى النعلين على قدر الأخرى.

(٣٣) السودنيق: الصقور.

(٣٤) القمر: ٨/٥٤

(٣٥) المعارج: ٤٣/٧٠

إبراهيم عليه السلام تارةً وتظهرُ أخرى، فما كانت تتمُّ له الرؤية التي طلب، إذ قال: ﴿رَبِّ ارْنِي﴾.

وأما كونها أربعةً ولم يكن أكثر ولا أقل، فلأن يقع الاكتفاء بها في الجهات الأربع، وهو المقصود أيضاً بكون الجبال أربعة؛ وذلك لأن الجهات ست: فوق وتحت ويمين وشمال وأمام وخلف.

ومعلوم أن أجزاء الحيوانات الأرضية إذا تبددت بعد موتها لا تصعد إلى فوق، ولا تغوص إلى تحت، وإنما تبددت في الجهات الأربع. فلذا كانت الطيور أربعة، والجبال أربعة. والله أعلم.

وأما كون إبراهيم عليه السلام على الجبل المتوسط منها فأشبهه شيء بالملك الذي يقف على صخرة بيت المقدس فيدعو الحيوانات فيأتون إليه من الأربع جهات مُسرعين كما تقدم.

وأما مجيء النقطة من الدم إلى النقطة، واللحمة إلى اللحمة، والريشة إلى الريشة، والعظم إلى العظم، وهو ينظر إليها؛ فأشبهه شيء بمجيء الأجزاء يوم البعث من الجهات التي افرقت فيها حتى تجتمع كما كانت أول مرة لا يشد منها شيء عن صاحبه. وهو كان مطلوبه عندما رأى الدابة تبددت أجزاؤها في بطون حيوانات مختلفة، كما جاء في الخبر، فاشتاق إلى رؤية كيفية الجمع، فسألها فأجيب فيها.

وأما فائدة حبس الرؤوس عنده ومجيء الأجسام بأعيانها فلخمس أوجه:

أحدها: أنه لما كانت رؤوسها عنده وجاء كل جسد إلى رأسه، وقع له اليقين أنها هي لا غيرها.

الثاني: أن في هذه القصة رداً على من أنكر حشر الأجساد من غلاة الباطنية وغيرهم.

الثالث: ردّ على من زعم أن الأرواح تركب في أجسامٍ آخر غير التي كانت مركبة عليها في الدنيا، لكون الأرواح عندهم هي الحيّ الناطق؛ والأجسام ظُروفٌ متماثلة فلا يُبالي بإعادتها.

الرابع: ردّ على من قال من أهل الأهواء المضلة؛ إن الحيوانات لا تحي دون الرؤوس، ولا يجوز ذلك؛ فحييت بلا رؤوس.

الخامس: قولهم: إنه لا تكون الإدراكات والحواس إلا في الرؤوس على بنية مخصوصة، فأكذبهم الله تعالى بأن سمعت ورأت بإدراكات خلقت في بعض أجسامها دون الرؤوس؛ فحييت وسمعت حين دُعيت ورأت، وجاءت طائفة بلا رؤوس ولا عُيون ولا آذان. وهذا هو مذهب أهل الحق أنه ليس للإدراكات شرط في المحل سوى الحياة.

وأما قوله تعالى (٣٦): ﴿وَأَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾؛ فقد يكون أمراً له عليه السلام بأن يبقى على معلوماته في إثبات عزة الله تعالى وحكمته؛ لا أن يستجدّ علماً بما لم يكن يعلم. ويحتل أن يأمره بأن يستجدّ علوماً آخر بأنواع من الحكمة والعزة لم يكن يعلمها قبل.

وأما ذكره العزة في هذا المقام فهي الغلب والقهر؛ تقول العرب (٣٧): (مَنْ عَزَّ بَزَّ) أي: مَنْ غلب سلب. فلما كان في جمع الموتى وإحيائهم دفعة واحدة غاية الغلب والقهر والحكم والعلم والإتقان والإحكام تمدّح الباري تعالى بصفاته العلى وعزة قهره؛ فأمره أن يتزيد علماً بصفات الجلال والجمال.

وقد يكون الأمر بالعلم فيما رأى من تفاصيل عجائب الكيفيات. فلما أطلعه على ذلك غاية الإطلاع، وعلمه ما لم يكن يعلم قال له

(٣٦) البقرة: ٢/٢٦٠

(٣٧) أي في أمثال العرب. والبر: السلب. والقول مشهور في كتب الأمثال.

تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: وأبْقَ عالماً بما زِدتك من العلوم الحِسِّيَّة التي لا يتأتَّى الجهلُ بها ولا الشكُّ فيها في مستقرَّ العادة، ولا يُتغافل عنها.

فهذه - رحمك الله - قصص إبراهيم عليه السَّلام في الثلاث الآيات والتَّبَرُّة له (٣٨).

شرح قصة عزيز عليه السلام(*)

في الآية التي وردت في إمامته وإحيائه.

قال تعالى: (١): ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ﴾ الآية.

إلى قوله تعالى: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

فَمِمَّا اخْتَلَقَهُ عَلَيْهِ - عليه السلام - أَنَّهُ شَكَّ فِي الْبَعْثِ بقوله: ﴿أَنْتَى يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ فَأَرَاهُ اللَّهُ الْآيَةَ فِي نَفْسِهِ حَيْثُ أَمَاتَهُ ثُمَّ أَحْيَاهُ، فحِينَئِذٍ أَيَقِنُ بِالْبَعْثِ فقال: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وما أَرَى أَنَّ هَؤُلَاءِ الْأَوْبَاشَ، الَّذِينَ يَعْتَقِدُونَ فِي عَقَائِدِ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ تعالى مثلَ هذا الاعتقاد، إِلَّا أَنَّهُمْ يَقِيسُونَهَا بِعَقَائِدِهِمُ الْفَاسِدةَ وَشُكُوكِهِمُ المضطربة!

كما قيل (٢): رَمَتْنِي بِدَائِهَا وَانْسَلَّتْ!؛ وقيل (٣): وَكُلُّ إِنَاءٍ بِالَّذِي فِيهِ يَرشَحُ!

(*) شرح قصة عزيز عليه السلام في: عرائس المجالس: ٣٤٣، وابن كثير ٢: ٣٢٤، وتفسير الطبري ٣: ١٩، وتاريخ الطبري ١: ٥٤٨ - ٥٥٧، وتفسير القرطبي ٣: ٢٨٨.

(١) البقرة: ٢٥٩/٢؛ والآية بتمامها:

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنْتَى يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهَ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِثَّةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِثَّةَ عَامٍ فَاَنْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَاَنْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنُجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَاَنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوها لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

* قال جماعة هو عزيز: وقال وهب بن منبه وغيره هو إرميا وكان نبيا. - وقال ابن إسحاق إرميا هو الخضر. وعن مجاهد أنه رجل من بني إسرائيل غير مسمى. قال النقاش: ويقال هو غلام لوط عليه السلام، وقيل هو شعيا.

وعن ابن عباس أنه عزيز.

(٢) المثل في مجمع الأمثال ١: ٢٨٦

(٣) المثل في مجمع الأمثال ٢: ١٦٢، ونصه فيه: «كُلُّ إِنَاءٍ يَرشَحُ بما فيه».

مع جهلهم بمقادير النبوة فيمشون فيهم مثل هذه الأقوال الحاسمة^(٤) لأصل الإيمان.

ومنهم مَنْ قَالَ: إِنَّهُ مَا مَاتَ عُزَيْرٌ وَلَكِنْ غُشِيَ عَلَيْهِ، بِدَلِيلٍ أَنَّهُ لَوْ مَاتَ لَمْ يَحْيَ بَعْدَ.

وهذا هو التَّنْصِيفُ عَلَى إنْكَارِ الْبَعْثِ وَاسْتِيعَادِ إَحْيَاءِ الْمَوْتَى، وَتَكْذِيبِ الْبَارِئِ تَعَالَى حَيْثُ قَالَ: ﴿فَأَمَّا اللَّهُ مِثْلَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾.

وَقَدْ قَالَ كَلْبٌ مِنْ كِلَابِ الْقُصَّاصِ هَذِهِ الْقَوْلَةُ فِي هَذَا الْبَلَدِ^(٥) عَلَى الْمَنْبَرِ فَمَا أَنْكَرُوهَا عَلَيْهِ وَلَا طُولِبَ بِهَا، وَمَا يُمْكِنُ أَنْ يَنْبُوَ فِيهِمْ مُسْلِمٌ عَنْ فُسَادِ هَذِهِ الْقَوْلَةِ، فَإِنَّهَا رُدُّ نَصِّ الْكِتَابِ، وَلَكِنَّهَا قُلُوبٌ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِطَابَعِ الْجِرْمَانِ.

فصل

وَأَمَّا عُزَيْرٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِي نُبُوَّتِهِ لِكَوْنِهِ لَمْ يَنْصَ عَلَيْهِ الْكِتَابُ. وَالْأَظْهَرُ إِثْبَاتُ نُبُوَّتِهِ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى^(٦): ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾. وَهَذَا خَطَابٌ لِلْيَهُودِ وَالنَّصَارَى. وَالْيَهُودُ عَبَدَتْ عُزَيْرًا بَنَصِّ الْكِتَابِ. وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى نُبُوَّتِهِ أَيْضًا مِنَ الْكِتَابِ أَنَّهُ ذُكِرَ مَعَ الْأَنْبِيَاءِ فِي مَعْرِضِ الْفَضِيلَةِ وَالْإِكْرَامِ فِي مَوْطِنَيْنِ، ذَكَرَهُ تَعَالَى مَعَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي إَحْيَاءِ الْمَوْتَى لِهَمَا. وَذَكَرَهُ مَعَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي أَنَّ عَبْدًا مِنْ دُونِ اللَّهِ.

وَسَبَبُ هَاتَيْنِ الْقِصَّتَيْنِ نَذَكَرَهُ الْآنَ بِعَوْنِ اللَّهِ تَعَالَى.

(٤) الحاسمة: الفاطمة.

(٥) زاد هنا كلمة لم تتضح لي بعد كلمة «البلد».

(٦) آل عمران: ٨٠/٣

جاء في الأثر أنه كان في بني إسرائيل من بعد موسى عليه السلام؛ نبياً، وكان اسمه دانيال، وإنما سُمِّيَ عَزِيرًا لكثرة تعزير اليهود له وإعظامهم لِقَدْرِهِ عليه السلام. ثم غَلُوا في تعظيمه حتى عَبَدُوهُ. وسبب ذلك لأن أَمَاتَهُ اللهُ مئة سنة ثم أَحْيَاهُ، وأراه الآية في طعامه وشرابه الَّذِي مَرَّتْ عليه مئة عام ولم يَتَسَنَّه، أَي لم يَتَغَيَّر. وفي حماره الَّذِي أَمَاتَهُ معه وتبددت أجزأؤه، ثم أُنْشِرَتْ وَجُمِعَتْ وَحْيِيَّتْ وهو ينظر إلى ذلك كُلِّهِ.

فقال الجَهْلَةُ: لم يختصه بهذه الكرامات إلا لأن كان وَلَدَهُ فَعَبَدُوهُ! تعالى اللهُ عَمَّا يَصِفُونَ.

فلما طغى بنو إسرائيل وقتلوا الأنبياء بغير حق، وبدلوا أحكام التَّوْرَةِ وأخبارها، سَلَطَ اللهُ عليهم بُخْتَ نَصْرِ الْبَابِلِيِّ، وكان مجوسياً فأتى إلى مدينة بيت القدس ودخلها غنوة، فرأى دماً يترشح فيها من الأرض، فجمع بني إسرائيل وسألهم عن سبب ذلك الدَّم، فأنكروا سببه خيفةً منه أن يقع ما وقع، فقال له بعض من يختص به: هنا رجل يزعم أنه نبي؛ والأنبياء لا يكذبون، فسأله يُخْبِرُكَ! فأمر بإحضاره فجاء به، فقال له: أيُّها الشيخ، أُخْبِرْتُ أنك تزعم أنك نبي، والأنبياء لا يكذبون، فأخبرني عن سبب هذا الدم.

فقال له: عسى أن تُعْطِيَنِي أَيُّهَا الْمَلِكُ!

فقال: لا أُعْطِيكَ حتى تُخْبِرَنِي، أو أَعَذِّبُكَ حتى تموت.

فقال له: أمّا إِذْ لا بدّ من القول، فهذا دَمُ نبيٍّ قَتَلَهُ قَوْمُهُ ظُلْمًا.

فقال له: وَمَنْ ذَلِكَ النَّبِيُّ الَّذِي قَتَلَهُ قَوْمُهُ ظُلْمًا؟!

فقال: يَحْيَى بن زكريّا عليهما السَّلام.

فقال له: وَمَنْ قَوْمُهُ الَّذِينَ قَتَلُوهُ؟!

فقال: بنو إسرائيل.

فقال: والله لأقتلن عليه خيارهم، ولا أرفع عنهم السيف حتى يجف هذا الدم.

فقتل عليه من خيارهم سبعين ألفاً، وحينئذ جف الدم.

ويعضد هذا الخبر ما جاء عنه عليه السلام أنه قال^(٧): «دِيَةُ النَّبِيِّ إِذَا قَتَلَهُ قَوْمُهُ سَبْعُونَ أَلْفَ رَجُلٍ مِنْ خِيَارِ قَوْمِهِ». فلما رأى ذلك دانيال عليه السلام خرج فاراً بنفسه إلى بلاد مصر، فبقي فيها أربعين سنة، ثم اشتاق إلى موطنه ومسقط رأسه، وقبور أسلافه من الأنبياء والأولياء عليهم السلام، فركب حماراً له وأتى نحو بيت المقدس، فلما كان بمقربة منه رأى جنة كانت له وقد بقي فيها بعض علائق من شجر العنب، فأتاها فوجد فيها عنباً نضجاً، فاقتطف منها وأكل وملاً سلّة كانت معه، وركب حماره وسار حتى أشرف على مدينة بيت المقدس، فرآها خراباً يباباً لم يبق فيها رسم ولا طلل. فتحسّر على فقد الخلان وخراب الأوطان، كما قيل^(٨):

أحب بلاد الله ما بين منيعٍ إليّ وسلمى أن يصوبَ سحابها
بلاد بها عَقَّ الشَّبابُ تَمَائِمِي وَأَوَّلَ أَرْضٍ مَسَّ جِلْدِي تُرَابُهَا

فتحرك قلبه تحسراً على فقد الخلان وخراب الأوطان فقال^(٩): ﴿أَنَّى يُحْيِي هَٰذَا اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يعني كيف تعود هذه البلدة على ما كانت عليه بعد خرابها؟! فاستبعد أن تعود على ما كانت عليه من نباتها وشجرها وبساتينها. كما يستبعد الناس أن تعود البلاد كما كانت عليه بعد خرابها، على مجرى العادة.

(٧) حديث.

(٨) البيتان لرفاعة (وقيل: رفاع) بن قيس الأسدي، أو لأبي النضر الأسدي، أو لامرأة من طيء (انظر سبط اللّٰلي ٢٧٢، والكامل في الأدب: ٨٤٢، ومعجم البلدان: منعج).

(٩) البقرة ٢٥٩/٢.

وهذا من الكلام المُباح الذي يقوله الناس إذا خربت البلاد وكانوا يعرفونها عامرةً من قبل.

وكثيراً ما قيل هذا في ندب الأطلال الخالية والرسوم البالية. إلا أنَّ أهل المراقبة يُطلبون بهذه الأقوال التي كان غيرها أولى منها كما تقدّم.

فإنَّ مثل أولئك لا يستبعدون كائناً في مقدور الله تعالى، كان مُعتاداً أو غير مُعتاد، لما يعلمون مِن نُفوذ إرادته ومضاء أمره، إذا أراد شيئاً فإنّما يقول له كُنْ فيكون.

كما عتب الملائكة امرأة إبراهيم عليه السلام حيث قالت (١٠):

﴿يَا وَيْلَتَا أَلَدُّ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ الآية؛ فقالوا لها (١١): ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ

الله؟﴾

أي: مثلك يرى في فعل الله عجباً وأنت صديقة؟

قال المشايخ: العجب أن لا ترى عجباً، فإذا لم تر عجباً كنت أنت

العجب.

فلما استبعد إصلاحها على مجرى العادة أراه الآية في نفسه، فأماته ثم أحياه بعد مئة سنة، ثم أطلعه على ذلك بأن أنشأ له الحمار الذي كان يركبه بعدما أماته، ورَمَّ حتى صار تُراباً، ثم أنشأ له من التراب وهو ينظر إليه، وأبقى عنبه كما كان بعد مئة سنة. ثم التفت إلى جهة مدينة بيت المقدس فرآها أعمر ما كانت قبل، فندم على قوله. فكأنَّ الله عز وجل عتبه وأدبه حتى لا يستبعد وقوع مقدور تحت القهر: كان خارقاً أو غير خارق.

فهذا هو الذي يجوز في حقّه عليه السلام لا ما اختلقوه.

(١٠) هود: ٧٢/١١.

(١١) هود: ٧٣/١١.

شرح قصّة موسى عليه السلام(*)

في الآية المتضمنة قتل الكافر. قال تعالى^(١): ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ الآية.

إلى قوله^(٢): ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾.

فمن أقوال المخلّطة في هذا القصّة، أن موسى عليه السلام قتل القبطي من أجل العبراني، لأن كان العبراني من قبيلة والقبطي من غير قبيلة. فصيروا الكلّيم عليه السلام متعصباً لأجل قبيلة وعشيرته، وليس الأمر كذلك، وحاشاه من ذلك.

فإن هذه هي حميّة الجاهليّة، وإنما مرّ موسى عليه السلام برجلين يقتتلان أحدهما يعرفه مؤمناً والآخر يعرفه كافراً، فاستغاثه المؤمن على الكافر، فوكز الكافر ليحمي المؤمن فصادف مقتلاً من مقاتله بتلك الوكزة فمات.

فصل

فإن قيل: من أين لكم أن تحكّموا بإيمان أحدهما وكفر الآخر، وإنما نطق الكتاب بـ«رجلين» أحدهما من شيعة، أي من بني إسرائيل، والآخر من عدوّه لكونه من القبط؟!

(*) شرح قصة موسى عليه السلام في: تنزيه الأنبياء للشيخ الشريف المرتضى: ٦٧، وعرائس المجالس: ١٧٢، وابن كثير ٢: ١٢، وتفسير الطبري ٢٨/٢٠، وتاريخ الطبري ١: ٣٩٠، وتفسير القرطبي ١٣: ٢٥٩.

(١) القصص: ١٥/٢٨

(٢) القصص: ١٥/٢٨

فنقول: ومن أين علمتم أيضاً أن أحدهما [كان] قبطياً والآخر [كان] سبطياً، والكتاب إنما نطق برجلين؟!

فإن قالوا: لقوله تعالى: ﴿هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ والشَّيعة: القبيلُ والرَّهط، فمن أين نقلتم الحقيقة إلى المجاز، ومن أين صحَّ لكم العلمُ بكفر أحدهما وإيمان الثاني؟!

فنقول: علمنا ذلك من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن شيعة الكافر قبيله ونسيبه وصنفيه. وشيعة المؤمن إنما هو شريكه في الإيمان؛ كان من قبيله أو من غير قبيله. قال تعالى^(٣): ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾.

وقال في قصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه^(٤): ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾.

وقال في الكفرة^(٥): ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾.

وقال تعالى^(٦): ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ. وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ. وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾.

والمرء هذا: الكافر، بدليل قوله تعالى^(٧): ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾.

والأخلاء هنا المؤمنون.

(٣) الحجرات: ١٠/٤٩

(٤) التوبة: ١١٤/٩

(٥) المؤمنون: ١٠١/٢٣

(٦) عبس: ٣٤/٨٠ - ٣٦

(٧) الزخرف: ٦٧/٤٣

وقال تعالى^(٨): ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾.

وقال تعالى في الكافر^(٩): ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾.

إلى قوله: ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾.

إلى غير ذلك مما جاء في الكتاب والسنة من تبرئ المؤمنين من الكافر. ومجموع هذا يدل على أن الذي استغاث بموسى عليه السلام كان مؤمناً على بقايا من دين يوسف عليه السلام.

قال تعالى^(١٠): ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾.

فكان في بني إسرائيل وفي القبط مؤمنون يكتُمون إيمانهم. فكان هذا الرجل المُستغيث بموسى عليه السلام منهم.

الثاني: قول الله تعالى لأم موسى عليه السلام^(١١): ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوِّي وَعَدُوْلُهُ﴾.

ومعلوم قطعاً أن الله تعالى ما سَمَّى فرعون عدوّاً له ولنبيّه إلا لأجل كفره، فخرج من هذا أن هذا القبيل إنما كان عدوّاً لموسى عليه السلام من أجل كفره، ولو اجتزأنا بهذا الدليل لاكتفينا به عمّا سواه.

الثالث: أن الله تعالى قال: ﴿هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ فلو كان المقصود بالشّيعَة القبيل لقوبل في النقيض بقبيل آخر لا بالعدوّ، فإنّه ليس من وصفٍ من لم يكن من القبيل أن يكون عدوّاً، ثم قد يكون

(٨) الحجر: ٤٧/١٥.

(٩) الفرقان: ٢٧/٢٥ - ٢٨.

(١٠) غافر: ٢٨/٤٠.

(١١) طه: ٣٩/٢٠.

العدو من القبيل، بل من الأخ والولد؛ قال الله تعالى^(١٢): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾. فصحت عداوة الدين مع ثبوت النسب.

فيخرج العدو هنا مخرج قوله تعالى: ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ﴾ حرفاً بحرف وكذلك قوله تعالى^(١٣): ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ فخرج من مضمون هذا أن موسى عليه السلام وكز الكافر العدو لأجل كفره لا لغير ذلك؛ إذ ليس لله تعالى شيعه ولا قرابة؛ سبحانه وتعالى، وقد أثبت لنفسه عدواً.

فإن قيل: فإذا كان هذا هذا، فلم ندم على قتله وتحسر واستغفر ربه وغفر له، ومع هذا يمتنع يوم القيامة من الشفاعة لأجل هذا المقتول، ويقول مُعْتَذِرًا ومُعْتَرِفًا: «قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ يَأْمُرْنِي اللَّهُ بِقَتْلِهَا؟» وأيضاً فإن الله تعالى عاتبه في الدنيا عند المُنَاجَاة فقال له^(١٤): ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾.

فكيف يُعَاتَبُ كليمه على قتل كافر؟! وأيضاً فقد قال هو لفرعون حين عَرَضَ له بقتل القبطي فقال^(١٥): ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ، قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾.

فنقول: أمّا قولكم: لِمَ ندم وتحسر واعتذر واستغفر وغفر له فهذا من النمط الذي قدّمناه في حق غيره من الأنبياء عليهم السلام أنهم يتحسرون ويندمون ويستغفرون على ترك الأولى من المباحات. فلا فائدة في إعادة تفصيل ما فرغنا من جملته وتفصيله.

(١٢) التغابن: ١٤/٦٤

(١٣) القصص ١٥/٢٨

(١٤) طه: ٤٠/٢٠

(١٥) الشعراء: ١٩/٢٦ - ٢٠.

على أنَّ ندم موسى عليه السَّلام لم يكن على مُباح، وإنما كان ندمه على فعلٍ لم يُؤمر به. والأفعال قبل الشرع إنما هي مطلقة لا غير. فإن المباح يقتضي مُبيحاً، فإذا لم يثبت شرع فلا مُباح ولا مُبيح.

وهذا أوسع في عذر موسى عليه السلام، إذ لم يكن مشروعاً له عندما قَتله. وإن كان قد التزم شريعة يوسف عليه السَّلام على وجهٍ من الوجوه، فُتَخَرَّجَ له على الوجه المُتَقَدِّم.

وأما قولكم: إِنَّ الله تعالى عاتبه عند المُنْجَاة على قتلِ القبطيِّ فباطل، وإنما عَدَّدَ رَبُّهُ تعالى عليه في ذلك المقام الكريم نِعْمه السَّالفة عليه وآلاءه العَمِيمة في قوله تعالى^(١٦): ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ. أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ﴾ إِلَىٰ قوله تعالى^(١٧): ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ ثم ذكر له من جُمَلَتِها كيف نَجَّاه من كيد فرعون، وغَمَّ كان في قلبه من أجل طلبه إياه حين فرَّ بنفسه منه.

ولو عاتبه رَبُّهُ على ذلك لُخْرِجَ له مخرج ما قدَّمناه من عتاب الله تعالى لأَنْبِيائِهِ على بعض المُبَاحَات، من غير أن يلحق بهم ذنب ولا عتب.

وأما قوله عليه السلام لفرعون: ﴿فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ فيعني به: أَنه كان عندما قَتَلَهُ من الغافِلين الغير مكلفين^(١٨). فكانه يقول له: فعلْتُها قبل إلزام التكليف، وإذ كنتُ غير مكلف فلا تَثْرِيْبَ عليّ؛ فإنه لا يَقَعُ الذَّنْبُ والطَّاعَةُ إلا بعد ثُبُوت الأمر والنَّهي. والدليل على أن ضلال الأنبياء غَفْلَةٌ لا جَهْلٌ قوله تعالى لنبينا عليه السلام^(١٩): ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا

(١٦) طه: ٣٨/٢٠ - ٣٩.

(١٧) طه: ٤١/٢٠

(١٨) الفصيح أن يُقال غير المكلفين؛ ورووا: الغير المكلفين.

(١٩) الضحى: ٧/٩٣

ووجدك ضالًّا: أي غافلاً عما يُراد بك من أمر النبوة، فهذا أي فأرشدك. والضلال هنا =

فَهَذَى ﴿ يعني غافلاً عن الشريعة لا تدري كيفية العبادة فهذا لها بالأمر والنهي . ثم قال له (٢٠): ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنَّ الْغَافِلِينَ﴾ .

والجاهل لا يُسَمَّى غافلاً حقيقةً لقيام الجهل به؛ فصَحَّ أَنْ ضَلال الأنبياء عليهم السلام غفلة لا جَهْل .

وقال بعض مشايخ الصوفية: (وَجَدَكَ ضَالاً) أي مُجِبّاً له (٢١)، (فَهَذَى) أي اختصصك لنفسه خصوص الهداية والصحة .

يعضد ذلك ما أخبر تعالى عن إخوة يوسف عليه السلام (٢٢) ﴿إِنْ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي في حُبِّ مبين ليوسف . وكذلك قولهم له بعد ذلك (٢٣): ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ . أي في حُبِّك القديم له . ومن أسماء المحبة عند العرب . الضلال .

ومع ما ذكرناه في هذه القصة من تبرئة موسى عليه السلام من الذنب في قتل الكافر أن قتله كان خطأ . فإنه ما طعنه بحديدة ولا رمأه بسهم ،

= بمعنى الغفلة، كقوله تعالى: ﴿لا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ . أي لا يغفل . وقال في حق نبيه ﴿وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾ .

- وقال قوم: ضالاً: أي لم تكن تدري القرآن والشرائع فهذا الله إلى القرآن . وشرائع الإسلام . وهو معنى قوله تعالى: ﴿ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان﴾ .

- وقال قوم: أي في قوم ضلال، فهذا إلى إرشادهم .

- ورويت وجوه أخرى كثيرة (القرطبي ٩٦/٢٠ - ٩٩) .

(٢٠) يوسف: ٣/١٢

(٢١) في الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: وقيل: ووجدك محبباً للهداية، فهذا إليها . ويكون الضلال بمعنى المحبة . ومنه قوله تعالى: ﴿قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم﴾ أي في محبتك . قال الشاعر:

هذا الضلال أشاب مني المفردا والعارضين ولم أكن متحققا
عجباً لعزة في اختيار قطيعتي بعد الضلال فحبها قد أخلقتا

(٢٢) يوسف: ٨/١٢

(٢٣) يوسف: ٩٥/١٢

ولا ضربه بفهر^(٢٤) ولا بغيره، وإنما وكّزه، وما جرت العادة بالموت من
الوكزة، وإن مات منها أحد فنادِر، والنادر لا يُحكم به. فقد تبرأ موسى
عليه السلام من الذنب في قتل الكافر براءة الذنب من دم ابن يعقوب
عليهما السلام!

(٢٤) الفهر: الحجرُ يملأ الكف.

شرح قصة يونس(*) عليه السلام

في قوله تعالى^(١): ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ الآية.

فمما اختلقوه عليه^(٢) - عليه السلام - في شرح هذه الآية أن قالوا: أنه جاءه المَلَكُ بالوحي وهو يتعبد في الجبل فقال له: إن الله تعالى أمرني أن أعلمك بأنه أرسلك إلى أهل نينوى، لتحذّرهم وتذرهم. فقال له يونس عليه السلام: الله أرفق بي، وأعلم بضعفي ومسكنتي، من أن يرسلني إلى قوم جبارين متكبرين، يؤذونني ويقتلونني. فراجع ربك أيها المَلَكُ في أمري، فلعله يعفيني من ذلك ويلطف بي! فقال له الملك: الله تعالى أعظم من أن أراجعه فيما أمرني به، وقد أمرتك، فسل أنت ربك ذلك إن شئت، فقد بلغتك والسلام. ثم صار المَلَكُ إلى مقامه ففرّ إذ ذاك يونس - عليه السلام - على وجهه إلى جهة البحر مُغَاضِباً لربه، وركب السفينة فالتقمه الحوت.

ومنهم من قال: إنه بلغ قومه الرسالة، فسبّوه وضربوه وأغلّوا في أذيته، فدعّا عليهم، فأخبره ربّه أنه ينزل البلاء عليهم في يوم كذا، فأخبرهم بذلك، فلمّا كان في ذلك اليوم، خرج إلى أعلى الجبل وقعد ينتظر الوعد، فإذا سحابة عظيمة سوداء قد جاءت من ناحية البحر حتى

(*) شرح قصة يونس عليه السلام: في تنزيه الأنبياء للشريف المرتضى: ٩٩، وعرائس المجالس: ٤٠٦، وابن كثير: ٣٩٠، وتفسير الطبري ١٧: ٤٨؛ وتاريخ الطبري ٢: ١١، وتفسير القرطبي ١١: ٣٢٩.

(١) الأنبياء: ٨٧/٢١

(٢) ذو النون لقب ليونس بن متى لابتلاع النون (الحوت) إيّاه.

قربت من البلد، ثم جاءت ريحٌ فهبّت في وجهها فردّتها عنهم، فخرج فارّاً مغاضباً لربّه حيث ردّ عنهم البلاء.

فهذا من بعض أقوالهم الخبيثة في قصة يونس عليه السّلام.

ومقتضى هاتين الكذبتين عليه أنّه سخط أحكام ربّه، ولم يرض بقضائه، ولا أدّعن لحكمه!

وحاشى وكلاً أن يفعل ذلك أنبياءُ الله تعالى مع العصمة والنزاهة فيما دون ذلك كما قدمناه.

فإنّ غضب العبد على ربه إنّما هو ألاّ يرضى بحكمه ولا بإرادته. وهذه هي المناقضة والكفر الصّراح.

قال تعالى لنبيّنا عليه السّلام^(٣): ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾.

نفى الله الإيمان عمّن لم يرض بحكم الله تعالى وحكم نبيّه عليه السّلام. وقال عليه السّلام في دُعائه^(٤): «لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى». والأمرُ أظهر من الاستدلال عليه.

فصل

فإن قيل: إذا لم تصح هذه المغاضبة لربّه على هذا الوجه، فما الصّحيح الذي يُعوّل عليه فيها؟! وكذلك المطالبة في لوم الله

(٣) النساء: ٦٥/٤

(٤) لك العُتْبَى: الرجوع مما يكره إلى ما يحبّ.

- والدّعاء بتمامه في السيرة النبوية (١: ٤٢٠) وذلك في خبر وفوده عليه الصلاة والسلام على ثقيف في الطائف.

تعالى له حيث قال^(٥): ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾. وكذلك في قوله تعالى لنبيه عليه السلام^(٦): ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾.

وكذلك في قوله نبينا عليه السلام^(٧): حُمِّلَ أَخِي يُونُسَ أَعْبَاءَ الرِّسَالَةِ فَانْفَسَخَ تَحْتَهَا كَمَا يَنْفَسَخُ الرَّبْعُ.

قلنا: أما مُغَاضِبَتُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَكَانَتْ لِقَوْمِهِ لَا لِزَبَّهِ وَلَا يَجُوزُ ذَلِكَ عَلَيْهِ، وَأَنْتَى وَقَدْ جَاءَ فِي الْخَبَرِ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ^(٨): «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْلَمْ يَبْلُغْ نَبِيُّ الرِّسَالَةِ إِلَى قَوْمِهِ لَعَذَّبَ بِعَذَابِ قَوْمِهِ أَجْمَعِينَ»؛ - نقل على المعنى - وإنَّما كانت لِقَوْمِهِ لِمَا نَالَ مِنْهُمْ مِنَ الْأَذِيَّةِ، فَاحْتَمَلَ أَذَاهُمْ حَتَّى ضَاقَ صَدْرُهُ، وَيَثْسُ مِنْ فَلَاحِهِمْ، فَفَرَّ بِنَفْسِهِ بَعْدَمَا بَلَغَ غَايَةَ التَّبْلِيغِ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى.

ثم غلب ظَنُّهُ لِسَعَةِ حِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى أَلَّا يَطْلُبَهُ بِذَلِكَ الْفِرَارَ لِكُونِهِ قَدْ أَدَّى مَا عَلَيْهِ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى^(٩): ﴿قَظَنُّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أَيُّ أَنَّ لَنْ نَضِيقَ عَلَيْهِ. قَالَ تَعَالَى^(١٠): ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ أَيُّ ضِيقٌ. وَقَالَ تَعَالَى^(١١): ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أَيُّ يُضَيِّقُ.

(٥) الصافات: ١٤٢/٣٧

(٦) القلم: ٤٨/٦٨

(٧) نقل القرطبي: في الخبر في وصف يونس عليه السلام أنه كان ضيق الصدر، فلما حمل أعباء النبوة تفسَخَ تحتها تفسَخَ الرَّبْعُ تحت الجمل الثقيل، فمضى على وجهه مضي الأبق الناذ.

- وفي اللغة، تفسَخَ الرَّبْعُ تحت الحمل الثقيل وذلك إذا لم يُطَقَّه.

والرَّبْعُ: ما ولد من الإبل في الربيع.

(٨) حديث.

(٩) الأنبياء: ٨٧/٢١

(١٠) الطلاق: ٧/٦٥

(١١) الزمر: ٥٢/٣٩

وَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ ظَنَّ أَنَّ قُدْرَةَ اللَّهِ تَعَالَى لَمْ تَتَعَلَّقْ بِإِيْلَامِهِ وَسَجْنِهِ تَفْضُلًا مِنْهُ، وَأَنَّهُ تَعَالَى يَعْفُو عَنْهُ فِي ذَلِكَ الْفِرَارِ، فَوَقَعَ خِلَافَ ظَنِّهِ.

وهذا هو الذي يجوزُ أَنْ يَعْتَقِدَهُ الْأَنْبِيَاءُ، وَأَنْ يُعْتَقَدَ فِيهِمْ.

وقال الْفَجْرَةُ: إِنَّهُ ظَنَّ أَنَّ لَا يَقْدِرُ اللَّهُ عَلَيْهِ، أَي لَا يُمَكِّنُهُ أَنْ يَفْعَلَ فِيهِ.

وهذا كَفَرُ صُرَاحٍ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَعْتَقِدَهُ مَقْلَدٌ فِي الْإِيْمَانِ، فَكَيْفَ نَبِيٌّ؟

وقد تَذَاكَرَتْ مَعَ طَالِبٍ مِنْ طَلَبَةِ الْأَنْدُلُسِ مَلْحُوظٌ بِالطَّلَبِ، فَقَالَ لِي ذَلِكَ وَبِالْإِجْمَاعِ أَنَّهُ مِنْ ظَنِّ أَنْ لَا يَقْدِرُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - عَلَيْهِ عَلَى وَجْهِ الْعَجْزِ عَنْهُ أَوْ الْقُوَّةِ مِنْ قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ فَهُوَ كَافِرٌ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى (١٢): ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أَي أَتَى مَا يُلَامُ عَلَيْهِ. وَلَيْسَ كُلُّ مَنْ أَتَى مَا يُلَامُ عَلَيْهِ يَقَعُ لَوْمُهُ. فَإِنْ كَانَ تَعَالَى لَمْ يَلْمُهُ، فَقَدْ انْتَدَفَعَ الْإِعْتِرَاضُ لِعَدَمِ اللَّوْمِ. وَالْأَظْهَرُ أَنَّهُ لَمْ يَلْمُهُ، إِذْ لَوْ وَقَعَ اللَّوْمُ لَقَالَ: وَهُوَ مُلَوِّمٌ، وَإِنْ كَانَ لَأَمَّهُ فَاللَّوْمُ قَدْ يَكُونُ عِتَابًا، وَقَدْ يَكُونُ ذَمًّا، فَإِنْ صَحَّ وَقُوعُ لَوْمِهِ فَكَانَ مِنَ اللَّهِ عِتَابًا لَهُ عَلَى فِرَارِهِ لَا ذَمًّا، إِذِ الْمُعَاتَبُ مَحْبُورٌ (١٣) وَالْمَذْمُومُ مَدْحُورٌ.

فَاعْلَمْ - رَحِمَكَ اللَّهُ - صَحَّةَ التَّفَرُّقَةِ بَيْنَ اللَّوْمِ وَالذَّمِّ. قَالَ الشَّاعِرُ (١٤):

لَعَلَّ عَتَبَكَ مَحْمُودٌ عَوَاقِبُهُ فَرُبَّمَا صَحَّتِ الْأَجْسَامُ بِالْعِلَلِ!
وقال آخر (١٥):

إِذَا ذَهَبَ الْعِتَابُ فَلَيْسَ وُدٌّ وَيَقِي الْوُدَّ مَا بَقِيَ الْعِتَابُ

(١٢) الصافات: ١٤٢/٣٧

(١٣) مَحْبُورٌ: مُسْرُورٌ، وَمُنْعَمٌ عَلَيْهِ.

(١٤) البيت للمتنبي في ديوانه (بشرح العكبري) ٣: ٨٦، وقد سبق.

(١٥) البيت في التمثيل والمحاضرة: ٤٦٥، وفي الأمثال والحكم للرازي: ١٠٣، ولم ينسبها.

وقال آخر^(١٦):

لو كنتِ عاتيتي لسكن لوعتي أملي رضاك وزرت غير مراقب
لكن صددت فما لصدك حيلة صد الملول خلاف صد العاتب
ألا ترى كيف قال الله تعالى^(١٧): ﴿لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ
بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ معناه: لولا ما عصمناه ورحمناه لآتت ما يذم عليه على
أصل الجواز لا على فرع الوقوع.

وهذا من النمط الذي قدمناه في قصة إبراهيم - عليه السلام - حيث
قال^(١٨): ﴿وَاجْتَنِبِي﴾ وهي أن يعبد الأصنام وهو قد آمن من ذلك بالخبر.
وقوله تعالى في قصة شعيب - عليه السلام^(١٩): ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا
إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ الآية. وقوله تعالى لنبينا - عليه السلام^(٢٠): ﴿وَلَيْتِنِ
شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ وهو تعالى لم يشأ ذلك، بالخبر.

وأما قوله تعالى لنبينا عليه السلام^(٢١): ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ
كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ يعني كيونس عليه السلام في إفراره حين ضاق صدره كما
قدمناه. وقال تعالى^(٢٢): ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ كما
ضاقت صدر يونس فلا تفر كفراره.

ولذا جاء عنه عليه السلام^(٢٣): «لَا تُفْضَلُونِي عَلَى يُونُسَ بْنِ مَتَّى»

(١٦) لم أعثر عليه.

(١٧) القلم ٤٩/٦٨

(١٨) إبراهيم: ٣٥/١٤

(١٩) الأعراف: ٨٩/٧

(٢٠) الإسراء: ٨٦/١٧

(٢١) القلم: ٤٨/٦٨

(٢٢) الحجر: ٩٧/١٥

(٢٣) في صحيح مسلم (٤: ١٨٤٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لَا تُفْضَلُوا بَيْنَ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ... وَلَا أَقُولُ إِنَّ أَحَدًا أَفْضَلَ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى»

لما قيل له: ﴿ولا تكن كصاحب الحوت﴾ فنهاه أن يفعل فعله في قصّة مخصوصة خاف على قلوب عوام أمته من اعتقاد هذه القولة على خلاف ما هي به، فيعتقدون أنها نهى له على العموم، وحاشى وكلا، وكيف يصح فيها العموم وقد أمره تعالى أن يتخلّق ويقتدي ويهتدي بأخلاقه وأخلاق نظرائه عليهم السّلام، حيث قال له (٢٤): ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ فقال ذلك والله أعلم.

وأما قوله عليه السّلام (٢٥): «حُمِّل أخِي يونس أعباء الرسالة فانفسخ تحتها كما ينفسخ الرّبع» الحديث فهو في هذا المعنى أنّه كلّف مقاساة الجَهْلَة، والصّبر على الأذى (٢٦)، فضاق صدره بذلك ولم يحتمله ففرّ! وعلى هذا ينبغي أن تُحمل هذه الأقوال، وعلى ما هو أغمض وأعلى في التبرئة من هذا، لاوقوة إلا بالله.

= متى عليه السلام. وفي صحيح مسلم أيضاً (٤: ١٨٤٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنّه قال: «ما ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى».

(٢٤) الأنعام: ٩٠/٦

(٢٥) سبق الحديث (وانظر فهرس الكتاب).

(٢٦) رسمت الكلمة هنا، وفي مواضع أخرى (أذاية) وصوابها أذى؛ ويقال أذاة أيضاً. وعددها من سهو الناسخ.

شرح قصة أيوب (*) عليه السلام

في قوله تعالى^(١): ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ. ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾.

فمما قالوه في سبب محنته عليه السلام، وهو أسلم ما نسبوه إليه من الأقاويل، أنه شوى حملاً في منزله، وكان بإزائه جارٌ فقيرٌ، فتأذى برائحة طعامه ولم يُبْذَلْ منه شيئاً، فامتحنه الله تعالى بأن سلط عليه الشيطان!

ومنهم من قال: إنه دخل يوماً على مَلِكٍ جَبَّارٍ، فرأى في منزله مُنْكَراً فلم يغيّره، فلذا اُمتَحِنَ!

وهاتان القولتان من أشبه^(٢) ما قالوه في محنته عليه السلام. فأول ما يُطلبون به إثبات دعواهم، وهم لا يُثبتونها في كتاب ولا سُنَّة، سوى ملفقات من قَصَصِيَّات هي أوهى في الثبوت من خيط العنكبوت!

فاخترنا الكلام في هاتين القَصَصَتَيْنِ لكونهما مما يصحّ معناهما لو صحّ أثرهما. فلو صحّ ما قالوه من القولتين أو إحداهما لتصور الخروج عنهما بأحسن مخرج.

فأما قصة الحمل، فقد يكون يغلبُ الظنُّ أن جاره ليس يحتاج إليه في ذلك الوقت، وقد نعلم^(٣) أنه يمكنه أن يصنع مثل ذلك، فإن ثمن الحمل

(*) شرح قصة أيوب (ع) في: تنزيه الأنبياء للشيخ المرتضى: ٥٩، وعرائس المجالس: ١٥٣، وابن كثير: ٣٦٧، وتفسير الطبري: ٢٣: ١٠٦، وتاريخ الطبري ١: ٣٢٢، وتفسير القرطبي: ١٥.

(١) ص ٣٨ / ٤١ - ٤٢

(٢) يعني من أخفّ ما اختلقوه، وهناك ما هو أدهى وأمر!

(٣) في الأصل المخطوط «نعلم» غير معجمة.

ولعل المعنى: «وقد نسلم» أي نسلم جدلاً؛ واستجاراً للكلام.

يسير، وليس كل فقير مُملقاً، وقد يُحتمل أنه نسي أن يُواسيه منه، وليس يلحقه في ذلك عتب ولا ذنب، على أنه لو ترك إعطاءه قاصداً لم يكن مُذنبا، فإن مؤاساة الجار مندوبٌ إليها، ومن ترك المندوب فلا ذنب عليه.

وأما قولهم: إنه لم يغير المنكر على الملك الجبار، فعين هذا القول عذرٌ عنه. فإن لزوم تغيير المنكر إنما هو مع الإمكان؛ قال تعالى^(٤): ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾. فلما علم جبروت^(٥) الملك خاف على نفسه، ولم يُمكنه تغييره بظاهره لثلاً يقع من الجبار منكرٌ أكبر مما رآه في منزله، فغير بقلبه.

ويُحتمل أن يكون ذلك الملك لم يكن من أمته، ولا أرسل إليه، فلم يغير عليه، إذ لا يلزمه ذلك.

كما مرّ موسى عليه السلام على قوم يعكفون على أصنام لهم فغير على قومه ولم يغير عليهم، لكونه لم يرسل إليهم؛ فإن النبي لا يلزمه التغيير إلا على من أرسل إليه.

فقد خرجت القولتان بحمد الله على أحسن مخرج إذا صحّتا.

وأما قوله^(٦): ﴿مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ أي ببلاء وشر. جاء في خبر يطول ذكره، فلنذكر منه ما لا بدّ من ذكره.

وجاء في الأثر أن الشيطان تحدّاه بأنه لو سلّط عليه لَصَجَرَ وَسَخِطَ حُكْمَ اللَّهِ تَعَالَى، فَسَلَّطَ عَلَى مَالِهِ وَوَلَدِهِ وَجَسَدِهِ إِلَّا قَلْبَهُ وَلِسَانَهُ فَصَبَرَ صَبْرًا أَثْنَى اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فِي قُرْآنٍ يُتْلَى، فقال تعالى^(٧): ﴿إِنَّا

(٤) الحج ٢٢/٤١

(٥) في الأصل المخطوط: جبريّة. ورجحت ما رجّحه السياق.

(٦) ص ٣٨/٤١

(٧) ص ٣٨/٤٤

وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٨﴾ وبقي الشيطان خائب الصفقة خزيان . فلما نادى ربه شاكيًا بالشيطان وبما ناله منه ، أجابه بالإقالة من شكيته وأمره أن يركض الأرض برجله حتى يُريه بركة صبره فقال^(٨) : ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ فعجل له في الدنيا مثلاً لعين الحياة التي بين الجنة والنار يغتسل فيها المعذبون ويشربون منها فيخرجون مطهرين من كل بؤسٍ ظاهراً وباطناً . كما جاء في الخبر^(٩) .

فمسَّ أيوب عليه السلام الأرض برجله فنَبَعَ منها الماء فشرب منه فبرىء ما كان في باطنه من دقيق السقم وجليله ، واغتسل فبرىء من ظاهره أتمَّ براءة ، فما كان يُرسل الماء على عضوٍ إلا ويعودُ في الحين أحسن ما كان قبل ، بإذن الله تعالى .

وردَّ الله عليه ما له وولده ، وولَدَ له مثلُ عددهم .

قال الله تعالى^(١٠) : ﴿وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾ .

وهذه القصة على رونق فيها لكونها متعلقة بالكتاب جائزة في العقل ، لكنها غير لائقة بمنصب النبوة . وحاشى لله أن يسلط عدوه على حبيبه بمثل هذه السلطة حتى يتحكم في ماله وولده وجسده بالبلاء والتكيل .

وأما تعلقهم فيها من الكتاب العزيز فبقوله تعالى أنه قال : ﴿مَسْنِيَّ الشَّيْطَانُ يُنْصَبُ وَعَذَابٌ﴾ .

(٨) ص ٤٢/٣٨

(٩) في صحيح مسلم (١ : ١٧٢) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، أن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال : «يُذْخِلُ اللهُ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ ، يُذْخِلُ مَنْ يَشَاءُ بِرَحْمَتِهِ ؛ وَيُذْخِلُ أَهْلَ النَّارِ النَّارَ ؛ ثُمَّ يَقُولُ : انظُرُوا مَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ ؛ فَيُخْرِجُونَ مِنْهَا حُمًّا قَدْ امْتَحَشُوا فَيُلْقَوْنَ فِي نَهْرِ الْحَيَاةِ - أَوِ الْحَيَاةِ - فَيَنْبُتُ فِيهِ كَمَا تَنْبُتُ الْحَبَّةُ إِلَى جَانِبِ السَّيْلِ ، أَلَمْ تَرَوْهَا كَيْفَ تَخْرُجُ صَفْرَاءَ مَلْتَوِيَةً ؟ ! » قوله : قَدْ امْتَحَشُوا ؛ أي : قَدْ احْتَرَقُوا .

(١٠) الأنبياء : ٨٤/٢١

وليس لهم حجة في هذا القول، فإن الأنبياء عليهم السلام، إذا مسَّهم ضرٌّ نسبوه إلى الشيطان، على جهة الأدب مع الحق، سبحانه لئلا^(١١) ينسبوا له فعلاً يكرهه، مع علمهم أن كلاً من عند الله.

قال الخليل عليه السلام^(١٢): ﴿وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾.

وقال الخضر عليه السلام^(١٣): ﴿فَارَدْتُ أَنْ أَعِيَّهَا﴾.

وقال الكليم عليه السلام^(١٤): ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾.

وقال فتاه عليه السلام^(١٥): ﴿وَمَا أَنْسَانِيَةَ إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾.

وقال نبينا صلى الله عليه وسلم^(١٦): «والخير كله في يديك، والشَّر ليس إليك».

يعني ليس إليك يُضاف وصفاً لا فعلاً، وإن كان الفعل كله من عند الله.

وقال تعالى^(١٧): ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

فخرج من مجموع ما ذكرناه أن تعلّقهم بالآية في كل ما زوَّروه من الأقايص غير صحيح.

فصل

[استطرد إلى قصة مريم وتبيين أن مقامها عند هز الجذع ليس أقل من مقامها في الغُرفة]

(١١) في الأصل المخطوط: ألا. وقد سبق للناسخ أن صحَّف مثل هذه الكلمة.

(١٢) الشعراء ٨٠/٢٦

(١٣) الكهف ٧٩/١٨

(١٤) القصص: ١٥/٢٨

(١٥) الكهف: ٦٣/١٨

(١٦) في صحيح مسلم (١: ٥٣٥) من حديث طويل برواية علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(١٧) آل عمران: ٢٦/٣

وهنا نكتة شريفة يجب الاعتبارُ بها في قصة مريم عليها السَّلام عند هَزَّ الجذع، وهي مِعْصُودَةٌ بِقِصَّةِ أَيُّوبَ عليه السَّلام في بَرَكَةِ رِكْضِهِ، وبركات بعضِ الأنبياء فيما لمسوه وركضوه وضربوه. وذلك أَنَّ مُعْظَمَ أَهْلِ الإِشَارَةِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ أَصْفَقُوا^(١٨) على أَنَّ مريمَ عليها السَّلام كانَ مقامُها في الغُرفةِ أَعْلَى ممَّا كانَ عند النَّخلة.

واستدلُّوا على ذلك بما جاء في الخبر عن الرِّزْقِ الَّذِي كانَ يَجِدُ عندها زكريا عليه السَّلام، إِذْ كانَ يَجِدُ عندها فاكهةَ الشَّتاءِ في الصَّيفِ، وفاكهةَ الصَّيفِ في الشَّتاءِ. فكانَ يَأْتِيها بلا سببٍ، فلَمَّا نظرت إلى عيسى عليه السَّلام حينَ ولدته أَحَبَّتْهُ^(١٩)، فَأَمَرَتْ بِالْكَسْبِ في هَزِّ النخلة لكونها رَجَعَتْ من جَمْعٍ إلى تَفْرِيقٍ.

وقالوا في هذا وأُطْنَبُوا^(٢٠)، وأنشدوا الأبيات المشهورة على قافية الباء، إلى غير ذلك. وهذه رَحِمَهُمُ اللَّهُ وهَلَةٌ مِنْهُمْ وَغَفْلَةٌ عَنِ الْأَوَّلِي وَالْآخَرِي فِي حَقِّ تِلْكَ الصَّدِيقَةِ.

وَأَوَّلُ مَا يُعْتَرَضُ بِهِ عَلَيْهِمْ أَنَّ يُقَالَ لَهُمْ: مِنْ أَيْنَ يَحْكُمُونَ عَلَيْهَا أَنَّهُ لَمَّا رَأَتْ الْوَلَدَ تَفَرَّقَتْ بِمِيلٍ قَلْبُهَا إِلَيْهِ؟

وهذا لا يَصِحُّ إِلَّا بِتَوْقِيفٍ، وَالتَّوْقِيفُ فِي ذَلِكَ مَعْدُومٌ، وَبِمِ تَرُدُّونَ عَلَى مَنْ يَدْعِي نَقِيضَ دَعْوَاكُمْ؟ وَيُبْرَهَنُ عَنْ ذَلِكَ أَنَّ مريمَ عَلَيْهَا السَّلامَ مَا كَانَتْ قَطُّ فِي مَقَامٍ هُوَ أَعْلَى مِنْ مَقَامِهَا فِي تِلْكَ الْأَزْمَةِ عَلَى تِلْكَ الْحَالَةِ،

(١٨) أَصْفَقُوا: أَجْمَعُوا.

(١٩) رَوَى الْقُرْطُبِيُّ (٩٦/١١) قَالَ: قَالَ عِلْمَاؤُنَا: لَمَّا كَانَ قَلْبُهَا فَارِغًا فَرَّغَ اللَّهُ جَارِحَتَهَا عَنِ النَّصَبِ (التَّعَبِ) فَلَمَّا وَلَدَتْ عِيسَى وَتَعَلَّقَ قَلْبُهَا بِحَبِّهِ، وَاشْتَغَلَ سَرَّهَا بِحَدِيثِهِ وَأَمَرَهُ وَكَلَّهَا إِلَى كَسْبِهَا، وَرَدَّهَا إِلَى الْعَادَةِ بِالتَّعَلُّقِ بِالْأَسْبَابِ فِي عِبَادِهِ.

(٢٠) سِذَكَرَ الْمُؤَلِّفُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - أَنَّ أَوَّلَ الشَّعْرِ الَّذِي أَنْشَدُوهُ فِي مريمَ عَلَيْهَا السَّلامَ:

أَلَمْ تَرِ أَنَّ اللَّهَ أَوْحَى لِمَرْيَمَ
إِلَيْكَ فَهَزِّي الْجِدْعَ تَسَاقُطِ الرُّطْبِ
وَلَمْ أَعَثِرْ عَلَى الشَّعْرِ بِتَمَامِهِ.

وعلى قدر الأزمات يأتي الفرج، وذلك أَنَّهَا قُبِضَتْ^(٢١) في ذلك المقام من سبعة أوجه:

أحدها: أَنَّ خاطبها المَلَكُ على ضعفها وصغر سنّها ووحدها في الفلاة، وهذا أمرٌ لا يتخيّل ما يكون فيه إلّا مَنْ دَهَمَهُ.

الثاني: أَنَّهُ كان أوّل خطاب خُوطِبَتْ به. وقد جاء في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم لَمَّا خاطبه الملك في أوّل مرة كاد أن يتردّي من حائلِ الجبل خيفةً من فَجْأَةِ المَلَكِ وفجأة الخطاب^(٢٢)، وكان عليه السّلام في ثاني حالٍ يأتيه الوحي في اليوم الشديد البرد فيتفصّد عرقاً هيبّةً من فجأة الوحي وإعظاماً للمَلَكِ^(٢٣).

الثالث: أَنَّ أخبرها بأنّها تلدّ من غير فحل، وهذا ممّا يَعْظُمُ سماعه لكونه غير مُعتاد لا سيّما لمثلها.

الرابع: طريان^(٢٤) المخاض عليها وآلامه التي تُوازي آلام الموت لا سيّما أوّل مخاض.

الخامس: وهو أشدّ عليها من كل ما وقع، وهو ما يَصِمُّهَا النَّاسُ به من المَلامة والأذية وإقامة الحدّ عليها وهي بريئة.

السادس: وهو أشدّ عليها من أذيتها، وهو ما يلحق قومها من

(٢١) في الأصل المخطوط: قبضت؛ وفي آخر الفقرة سيقول المؤلف: «فهذه سبع قوابض لو سلّط أحدها على جبل لتصدّع».

(٢٢) الذي ورد في مسند الإمام أحمد (١: ٢٣٣) أَنَّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قَتَرَ الوحي عنه فترةً بعد أن فاجأه لأوّل مرّة، حتّى حزن حزناً شديداً غَدَا منه مِرَاراً كي يتردّي من رؤوس شواهِق الجبال، فكلّمَا أوفى بذروة جبلٍ تبدّى له جبريل فقال: يا محمّد إنك رسول الله حقّاً، فيسكن ذلك جاشئهُ وتقرّ عينُهُ فَيَرْجِع.

(٢٣) وجاء في مسند أحمد أيضاً (٥: ٢٥٧) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «... ولقد رأيته ينزل عليه (تعني الوحي) في اليوم الشديد البرد فينفضم عنه، وإنّ جبينه ليتفصّد عرقاً».

(٢٤) في المعاجم: طرأ: طرأ وطرأ. ولم أجد (طريان) التي ذكرها المؤلف رحمه الله.

[الناس] (٢٥) إذا قذفوها، فإنها صديقة بشاهد القرآن، والصديق أشفق على خلق الله مما هو على نفسه.

السابع: فيما يكون عذرها إذا اعترضت، وأنكر عليها ما جاءت به.

فهذه سبع قواض لو سلط أحدها على جبل لتصدع! ويكفيك قولها عند ذلك (٢٦): ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾ فأي مقام من أتبلي بمثل هذه الأعضاء دفعة واحدة فصبر وشكر؟

ويعضد ما قلناه في علو مقامها في ذلك الحال قوله تعالى (٢٧): ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ﴾ الآية، إلى قوله (٢٧): ﴿يَغْيِرُ حِسَابَ﴾.

وذلك أن زكريا عليه السلام كان يجد عندها تلك الفواكه المذكورة في غير أوانها فيقول (٢٧): ﴿أَنْتَى لِكَ هَذَا﴾ يعني بأي عمل بلغت هذا المقام؟ كان عليه السلام يستعظم ذلك المقام في حقها لغيرتها وضعفها، فتقول هي (٢٧): ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾.

أي ليس ذلك مقاماً بلغته بكبير عمل، وإنما هو من فضل الله تعالى، فكأن ما تُشير إليه: أنتم عظماء! لكم المقامات والأحوال، وأنا ضئيلة ضعيفة! فأنتم تُرزقون بسبب وأنا بغير سبب!

ففي قول زكريا عليه السلام: «أَنْتَى لِكَ هَذَا» دليل على ضعف مقامها في الغرفة (٢٨). فإن المقامات عند القوم مرتبطة بعلوم مخصوصة وأعمال

(٢٥) كلمة لم تتضح، ورجحت ما أثبت بمقتضى السياق.

(٢٦) مريم: ٢٣/١٩

(٢٧) آل عمران: ٣٧/٣

(٢٨) أي مقامها الذي كانت تتعبد فيه، وكان غرفة، وهي المُشار إليها في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ والمِحْرَاب: الغرفة.

مخصوصة، وكذلك الأحوال والكرامات أيضاً هبةً من الله تعالى لهم على قدر مقاماتهم.

فلما كان ذلك غاية قبضها وعلاء مقامها في القبض، بسطت من سبعة (٢٩) أوجه:

أحدها: أن كلمها الوليد. قال تعالى: ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي﴾، قرىء بفتح الميم (٣٠).

فقال قوم: ناداها المَلَكُ من مكانٍ مُنخفض عنهما.

وقال آخرون: ناداها الوليد؛ وهو الأظهر لوجهين:

أحدهما: أن (تحت) في حق الوليد أمت (٣١). والثاني: أن تكليم الوليد أنس في الخطاب من كلام المَلَك، على ما تقدّم.

والثاني: من تقاسيم البسط: أن كلمها وليدها ولم يكلمها وليدٌ غيرها؛ لأن تكليم ولدها من بركات أحوالها.

الثالث: أن كلمها في الحين، فإن فيه تنفيس خناق قبضها بسرعة البشارة.

الرابع: أن كلمها بالبشارة: ﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾.

الخامس: أن أخبرها أنه سري؛ أي رفيع القدر عند الله تعالى. وما يُحبُّ أحد أن يكون غيره أحسن منه إلا ولده.

(٢٩) في سورة البقرة ٢٤٥/٢ ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون﴾ قال القرطبي «والله يقبض ويبسط» هذا عام في كل شيء فهو القابض الباسط.

(٣٠) قرىء بكسر الميم: «مِنْ تَحْتِهَا» وقرىء بفتح الميم «مَنْ تَحْتِهَا». (وانظر معجم القراءات القرآنية ٤: ٣٩).

(٣١) أقرب إلى المقصد، ومجرى القصّة.

السادس: أنه لما كلمها الوليدُ استبشرت بأنه سيقيم حُجَّتَها عند قومها كالذي فعل.

السابع: وهي البشارة العظمى التي تثبت أن مقامها عند الجذع كان أعلى من مقامها في الغرفة. وهو قوله تعالى لها: ﴿وَهَـؤُلَـئِـى إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا غَـنِيًّا﴾.

وتُتصوّر الكرامةُ في هَـزْـها من أحدَ عَشَر وجهاً:

أحدها: أنه نبهها على بركة يدها بأن تمسّ الشيء فيظهر عليه بركة ذلك الممسّ. كما جاء في الصحيح^(٣٢) عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفث، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه وأمسحُ عنه بيده رجاءَ بركتها.

وكما قيل^(٣٣):

لو مسّ عوداً سلوباً لاكتسى ورقاً
ولو دعا ميتاً في القبر لبأه

الثاني: أن الملموس كان جذعاً، والجذع في اللسان هو: ساق النخلة إذا جذّ رأسها. يقول العرب: على كم جذع بيتك مبني؟ وجاء في الخبر^(٣٤): «فَحَنَّ الجذعُ إليه» وكانت أسطوانةً في المسجد. وقال تعالى^(٣٥): ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ ولا يكون الصلب إلا في

(٣٢) في مسند الإمام أحمد (٦: ١١٤).

(٣٣) في اللسان: شجرة سليب: سلبت ورقها وأغصانها ووردت سلوب صفة للناقة التي ترمي ولدها؛ وقال: ناقة سالب وسلوب، مات ولدها أو ألقته لغير تمام؛ وكذلك المرأة. وظبية سلوب وسالب: سلبت ولدها.

(٣٤) في مسند الإمام أحمد (١: ٢٤٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخطب إلى جذع قبل أن يتخذ المنبر، فلما اتخذ المنبر وتحول إليه حن عليه، فأناه فاحتضنه فسكن؛ قال: ولو لم احتضنه لحن إلى يوم القيامة.

(٣٥) طه: ٧١/٢٠

الحَشَب. فصَحَّ أَنَّ ساقَ النَّخلةِ إِنَّمَا يُسمَّى جذعاً إذا جُزَّ رأسه، وإذا جُزَّ رأسَ النَّخلةِ يبست فلا تُلَقَّح ولا تُورَق بعد، فلَمَّا لَمَسْتَه اخْضَرَ في الحين!.

الثالث: أَنَّ نبتت فيها أغصانٌ وورَقٌ، ورؤوسُ النخلِ إذا قُطعت لا تخلف.

الرابع: أَنَّ أثمرت في الحين والنَّخل لا تثمر إلا بعد رِيحٍ في أيامٍ كثيرة.

الخامس: أَنَّ صارت رُطباً في الحين.

السادس: قوله: ﴿جَنِيًّا﴾ أي حان قَطاها فصلحت للجَنِي، فإنها قد تسمى رُطباً في أوَّل نُضجها قبل أن تصلح للجَنِي، على جهة المجاز.

وهنا لطيفةٌ، وهي أَنَّ الله تعالى آَنَسها بأن أراها مثلاً بالجذع اليابس حين اخْضَرَ من غير سَقْيٍ، وبعد يُبْسِه اخْضَرَ وأثمر في الحين كما [ولد] عيسى عليه السَّلام من غير فحل، وتكلَّم في الحين، وتَمَّ خَلْقُه دفعةً، ووُلِدَ في الحين، فَتِلْكَ بِتِلْكَ.

السابع: أَنَّ هَزَّتْها فَتساقطت. ومعلومٌ أَنَّ هَزَّ مِثْلها على ما هي عليه من ضَعْفها ونَفَاسها لِسُوقِ النَّخل لا يُسْقَط الرُّطب، فإن كان أُعْطيت في الحين قوَّةً تَهْزُّ بها النَّخلَ فَتسقط رطبها فَخَرَقَ كبير^(٣٦)، وإن تساقطت الرُّطب لِلمِسِّها إِيَّاهَا فَخَرَقَ آخرٌ أكبرُ منه!

الثامن: قوله لها^(٣٧): ﴿فَكُلِّي واشْرَبِي﴾ فإنَّ فيه بشارَةً بسرعة الخَلاص من أَلْيَها، فإنَّ النُّفْسَ لا تَأْكُل ولا تشرب إلا بعد مُدَّةٍ لشغلها بِأَلْمِها.

(٣٦) أي خرق للمعتاد، وإعجاز.

(٣٧) مريم: ٢٦/١٩

التاسع: أَنَّهُ بَشَّرَهَا بِحَصُولِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ عِنْدَهَا، لِأَنَّ كَانَتْ
بَارِضٍ فِلَاةً، فَإِنَّ النَّاسَ يَخَافُونَ عَدَمَهُمَا فِي الْفُلُوتِ.

العاشر: قوله لها^(٣٨): ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ فعلت بكلامه الخارق أَنَّهُ
لا يكذبها فَأَيْسَتْ.

الحادي عشر: أَنَّهُ عَلَّمَهَا كَيْفَ تَجِيبُ إِذَا سَأَلَهَا قَوْمُهَا فِي قَوْلِهِ
لَهَا^(٣٩): ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾.

أَلَا تَرَى إِلَى طُمَأْنِينَتِهَا إِلَى (مباراة)^(٤٠) ولدها، كَيْفَ أَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا
تَحْمِلُهُ ظَاهِرًا لَهُمْ. وَقَدْ كَادَتْ^(٤١) تَفْرُّ بِهِ إِلَى بَلَدٍ آخَرَ أَوْ تُخْفِيهِ مَا
اسْتَطَاعَتْ فَلَا يَشْعُرُ بِهِ قَوْمُهَا؟ فَلَمَّا طَابَتْ نَفْسُهَا بِهِ فِي إِقَامَةِ حُجَّتِهَا عِنْدَ
قَوْمِهَا أَتَتْهُمْ بِهِ تَحْمِلُهُ ظَاهِرًا لَهُمْ.

فهذه رحمك الله سبعة أحوال ثَوَّبَهَا رَبُّهَا عَلَيْهَا بِثَمَانِيَةِ عَشْرٍ حَالًا،
سَبْعَةٌ مِنْهَا قَبْلَ الْهَزِّ، وَأَحَدٌ عَشْرٌ بَعْدَهُ، كُلُّهَا تَتَضَمَّنُ مِنَ الْبَسْطِ وَالْأَنْسِ
وَالْكَرَامَاتِ مَا يَدُلُّ عَلَى رَفْعَةِ شَأْنِهَا وَعِزَّةِ مَكَانِهَا عِنْدَ رَبِّهَا. فَكَيْفَ تُبْخَسُ
هَذِهِ الصَّدِيقَةُ فِي حَقِّهَا وَتُحْطَ عَنْ مَقَامِهَا فِي الْهَزِّ؟!

ويعضد ما رُمناه من علو المقام لَهَا فِي ذَلِكَ الْوَقْتُ صَحَّةُ الشَّبهِ فِي
قَوْلِهِ تَعَالَى لِأَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ أَرَادَ تَعَالَى أَنْ يُرِيَهُ
عَاقِبَةَ صَبْرِهِ وَبِرْكَةَ تَصَرُّفِهِ وَفَائِدَةَ رُكُضِهِ وَثَمَرَةَ لَمْسِهِ الْأَرْضَ بِأَخْمَصِيهِ.
وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمِيَاهَ لَا تَنْبَعُ بِسَبَبِ الرُّكُضِ عَلَى مَجَرَى الْعَادَةِ.

وإِنَّ الرُّكُضَ يَخْرُجُ مَخْرَجَ الْهَزِّ حَرْفًا بِحَرْفٍ.

(٣٨) مريم: ٢٦/١٩

(٣٩) مريم: ٢٦/١٩

(٤٠) فِي الْأَصْلِ الْمَخْطُوطُ: «مبارات» غير واضحة ومهملة من النقط؛ وكأنها كما رُسمت: مبارأة.
- وفي اللسان: بارأت فلاناً برئت إليه وبريء إليّ.

(٤١) فِي الْأَصْلِ الْمَخْطُوطُ: «كانت». ورجحت قراءة «كادت» لاستقامة المعنى.

وكذلك قوله تعالى لموسى عليه السلام^(٤٢): ﴿اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾
أراد تعالى أن ينبع له الماء بواسطة الضرب حتى تظهر كرامته عند بني إسرائيل.
وكذلك في البحر حين ضربه فانفلق^(٤٣).

وكذلك عيسى عليه السلام كان يركض القبور فيحيي الله به الموتى،
ويلمس الطين فيصير طائراً بإذن الله.

وكذلك نبينا عليه السلام لمس الماء فنبع من بين أصابعه، ولمس الطعام
فنما وزيد فيه، وتفل في بئر فعذبت وكثر ماؤها، وتفل في عين علي كرم الله
وجهه فبرأت من داء الرمد، وشربت أم أيمن بوله فبرأت من داء البطن، وتفل
على رجل أبي بكر الصديق رضي الله عنه في الغار حين لسعته العقرب فبرئ
في الحين^(٤٤).

فليت شعري ما الذي أغفل أولئك الجلالة^(٤٥) عن هذه الأدلة حتى يغضوا
من مقام مريم عليها السلام بالهز وهو الأعلى، كما ترى أيها اللبيب الفطن
المتناصف؟!

(٤٢) البقرة: ٦٠/٢ والأعراف: ١٦٠/٧ والشعراء: ٦٣/٢٦

(٤٣) تراجع الآية الكريمة من صورة الشعراء: ٦٣/٢٦

(٤٤) تراجع كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض (طبعة البجاوي بدار إحياء
الكتب العربية):

- نبع الماء ٤٠٢ - ٤٠٥

- وتكثير الطعام ببركته ودعائه ٤١٠، ٤١٢، ٤١٦

- وتفجير الماء.

- وإبراء ذوي العاهات (العين) ٤٥٣ - ٤٥٤

- وشرب المرأة بوله ٩٠

(٤٥) في الأصل: الخلّة، وهو تصحيف صوابه: الجلّة، أي العظماء السادة، يعني أهل الإشارة
(الصوفية) الذين ذكرهم في أول حديثه عن مريم فقال: «... وذلك أن معظم أهل الإشارة
رحمهم الله أصفقوا على أن مريم عليها السلام كان مقامها في الغرفة أعلى مما كان عند
الخلّة».

فإن قيل: إنما كانت تلك الأفعال منهم على سبيل إظهار المعجزة لكونهم أنبياء، ومريم عليها السلام لم تكن نبيّة؟

قلنا: ليس الأمر كذلك بدليل أنهم لو تحدّوا بتلك الخروق من غير تناولٍ منهم لها فوقعت على وفق تحدّيتهم بها لصحّت المعجزة، وإذا صحّت المعجزة دون التناول باللمس والضرب، عُلِمَ أنَّ تلك الأفعال وقعت إكراماً لهم زائداً على ثبوت المعجزة. وأيضاً فإنّ اللمس والضرب والتفّل ليس من قبيل المعجزات؛ فإنّه مُعتاد؛ والمُعتاد لا يكون معجزة.

فهذا هذا، ومن اعترض من المقلّدة بالجُزَافِ فعليه الدّليل، ولا دليل؛ فإن القوم الذين قالوا ذلك لم يأتوا بدليلٍ سوى ما نُقرّره من أنّ التوكّل فوق الكسب.

وهذه مسألة قد حَفِيت فيها الأقدام، واضطربت الأفهام؛ والأظهرُ فيها أنّ الكسب مع التوكّل إعلاء، فإنّه يقع بالظاهر ويبقى الباطن متوكّلاً، فإذا تصوّر الجمع بين الظاهر والباطن فالكسب الحلال ممّن جَمَعَ بينهما، فهو إعلاء مقام، لكونهما مقامين وعمليين، فلا مُنافرة بين التوكّل والكسب لاختلاف المجال. ومريم عليها السّلام صديقة. ومن بعض مقامات الصديق الجمع بين الكسب والتوكّل.

وفي الكسب فائدة كثيرة^(٤٦)، فإنّه مما ينفعُ النَّاسَ، ويُصلحُ شؤونهم، ويقوم بمنافعهم في لباسهم وأقواتهم.

فلو ترك النَّاسُ الكسب بالجملة لهلكت الأرض ومَنْ عليها، فقد تصوّرت فيه المنفعة العظمى.

وقد جاء عنه عليه السّلام أنّه قال^(٤٧): «سيّد القوم خادِمُهُم».

(٤٦) في الأصل: فائدة كثيرة. وتقرأ أيضاً - من جهة المعنى - «فائدة كبيرة».

(٤٧) ورد الحديث في كشف الخفاء (١: ٥٦١)، وضعّفه.

وجاء عنه عليه السلام أنه قال (٤٨): «الناس عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله».

والمنفعة على ضربين: دُنْيَوِيَّةٌ وَأُخْرَوِيَّةٌ

فالأخروية: إرشاد المكلّف وتعليمه ما يلزمه من وظائف التكليف.

والدُنْيَوِيَّة: معالجة الدّائِمِشَة بالأسباب العادية التي يقوم بها أوْدُ الحاجات وإبقاء رَمَقِ الحياة. فقد انحصرت المنفعة الدُنْيَوِيَّة في الكسب، وفيه أيضاً سببٌ للمنفعة الأخروية، فإنّه لولا سدّ الجَوْعَة وسرّ العَوْرَة على مُقتضى الشرع ومجرى العادة لم تكن حياة ولا تُصوّر عبادَة. فأهلاً بالكسب وأهله فإنهم أحبُّ الناس إلى الله تعالى. وكيف يُعاب الكسب أو يُغضُّ من قدره وقد أثبتته سيّد الرسل صلى الله عليه وسلم لنفسه حيث قال (٤٩): «جُعِلَ رزقي تحت ظلِّ رُمحي» يعني ما يأكل من الغنائم بسبب الكسب بالرُمح. وما فوق مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم مقام.

وأمر الله تعالى داود عليه السلام بالكسب حيث قال له (٥٠): ﴿أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرَ فِي السَّرْدِ﴾ يعني سابغات الدُّرُوع. ولذلك أخبر عليه السلام أنّ داود عليه السلام كان يأكل من كسبه في عمَل الدُّرُوع.

وكذلك جاء في الأثر أنّ سُلَيْمان عليه السلام كان يأكل من عمل الخوص (٥١).

(٤٨) في كشف الخفاء (١: ٤٥٧) برواية: «الخلق كلّهم عيال الله، فأحبّ الخلق إلى الله مَنْ أحسن إلى عياله» وأشار إلى روايات أخر، ونقل عن النووي وابن حجر أنّ الحديث ضعيف، ورَدَ من طرق كلّها ضعيفة.

(٤٩) في مسند أحمد (٢: ٥٠)

(٥٠) سبأ: ١١/٣٤

- وفي سورة الأنبياء: ٨٠/٢١ ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ﴾

(٥١) في صحيح البخاري (٣: ٩) من حديث المقدم رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

وجاء عنه عليه السَّلام أنَّه قال^(٥٢): «اطلبوا الرِّزْق في خَبَايا الأَرْضِ». يعني فيما يُزْرَع. وقال عليه السَّلام لصاحب النَّاقَةِ^(٥٣): «اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ». وهذه الأخبار تدلُّ على إثبات الكسب شرعاً، وأنَّه لا يَقْدَحُ في التَّوَكُّلِ. فخرج من هذه الأحاديث إثبات الكسب شرعاً، وأنَّ مريم عليها السَّلام كان مقامها في تلك الحالة إعلاءً، لكونها جمعت بين الكسب والتَّوَكُّلِ. وقد نظمتُ في ذلك على نقيض ما نظموه في قولهم إذ قالوا^(٥٤):

ألم تر أن الله أوحى لمريمَ إليك، فهزِّي الجذعَ تساقط الرُّطْبُ
فقلت:

لأنَّ جَمَعْتَ بين التَّوَكُّلِ والسَّبَبِ	أما عَلِمُوا أنَّ المقام سَمًا بها
على الحَيْنِ أفناناً وأثْمَرَ بالرُّطْبِ	بأنَّ لمست جذعاً فأَنَعَ رأسُه
ففارت عيونُ طَهَّرته من الصَّخْبِ	كما مَسَّ أَيُّوبُ اليبسَ برجلِه
ففجَّرَ من أرجائها الماءَ فانسكبَ	ومسَّ كليمُ الله بالعودِ صخرَه
طُيُوراً بإذنِ الله أحياءَ تضطربُ	ومسَّ المسيحُ الطَّينَ بالخلقِ فانتشا
ففاضتْ عيونُ الماءِ من خَلَلِ العَصَبِ	ومسَّ يمينُ المصطفى الماءَ نطفَه

فعضَّ على هذه القولة يا أيها المُتَنَاصِفُ الفِطْنُ بالنَّواجِذِ، وشُدَّ عليها كَفُّ الضَّنينِ فإنَّها قولةٌ مقصودةٌ بالبرهان، ونادرةٌ ما أراني سُبقتَ إليها. وأعرِفُ

= «ما أكل أحد طعاماً قطَّ خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإنَّ نبيَّ الله داوود عليه السلام كان يأكل من عمل يده».

(٥٢) الحديث في كشف الخفاء (١: ١٥٤) قال: «رواه أبو يعلى والطبراني والبيهقي بسند ضعيف عن عائشة».

(٥٣) الحديث في كشف الخفاء (١: ١٦١)

(٥٤) في تسجيل القصة القرآنية ورواية مضمونها.

- والنطفة: القليل من الماء، يبقى في دلو أو قربة. ومن خَلَلِ العَصَبِ: أي من خلال عَصَبِ أصابعه عليه السَّلام.

الرَّجَالَ بِالْعِلْمِ، وَلَا يُعْرِفُ الْعِلْمُ بِالرَّجَالِ. فَمِنْ كُلِّ كَلَامٍ مَأْخُودٌ وَمَتْرُوكٌ إِلَّا مِنْ كَلَامِ صَاحِبِ الْقَبْرِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فهذا ما مَنَّ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ فِي تَنْزِيهِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ الْآيِ، وَمَا صَحَّ مِنَ الْأَخْبَارِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يُلْحَقَ بِوَاحِدٍ مِنْهُمْ ذَنْبٌ وَلَا ذَمٌّ. إِذْ لَوْ جَازَ ذَلِكَ عَلَى الْبَعْضِ لَجَازَ عَلَى الْكُلِّ، وَمَنْ قَدَحَ فِي عَرَضٍ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أُلْزِمَ الْقَدَحَ فِي الْكُلِّ.

وقد أجمعوا على أن من قال في زَرْ تَبَيَّ إِنَّهُ وَسَخٌ، يريد بذلك تنقيصه أنه يُقْتَلُ وَلَا يُسْتَتَابُ، احتياطاً على أعراضهم السَّيِّئَةِ أَنْ لَا يُلْحَقَهَا نَقْصٌ، فَإِنَّهُمْ فِي النَّزَاهَةِ وَالْعِصْمَةِ كَأَسْنَانِ الْمِشْطِ، لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ.

وكيف وقد قال تعالى لسيدهم ورئيسهم (٥٥):

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدِهِ﴾ يعني بمكارم أخلاقهم وجميل أفعالهم وأقوالهم وأحوالهم.

وقال تعالى (٥٦): ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجُورَهُمْ﴾.

وهذا هو الحق الذي يُرْغَبُ فِيهِ وَلَا يُرْغَبُ عَنْهُ.

فإياك أيها الْمُقَلِّدُ الْغَيْرُ أَنْ تَسْمَعَ مِنْ كُلِّ نَاعِقٍ غَيِّبٍ يَدْخُلُ الْمِيدَانَ حَاسِراً حَتَّى تَأْتِيَهُ كُلُّ طَعْنَةٍ سُلْكِى نَجْلَاءٍ (٥٧)، فهو لا يعرف ما أَلْزَمَهُ تَعَالَى مِنْ دِينِهِ وَلَا مَا تَخَلَّصَهُ فِي مُعْتَقَدِهِ وَمُعَامَلَتِهِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى فَيَتَكَلَّمُ فِي تَفَاصِيلِ أَحْوَالِ الْمُرْسَلِينَ وَرُؤَسَاءِ الْمُقَرَّبِينَ وَهُوَ لَا يَعْرِفُ النُّبُوَّةَ وَلَا شُرُوطَهَا وَلَا مَا يَجِبُ لَهَا

(٥٥) الأنعام: ٩٠/٦

(٥٦) النساء: ١٥٢/٤

(٥٧) الطعنة السُّلْكِى: المستقيمة. والنجلاء: الطعنة الواسعة.

وَيَسْتَحِيلُ عَلَيْهَا. وقد جاء في الصَّحِيح عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ (٥٨):
«الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ مِنَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءاً مِنَ النَّبُوءَةِ». وجاء في خبر آخر: «مَنْ سَبْعِينَ جُزْءاً فَلَيْتَ شِعْرِي إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلْعُلَمَاءِ الْقِيَامَ بِعِلْمِ سَبْعَةٍ مِنْ هَذِهِ السَّبْعِينَ فَمَا ظَنُّكَ بِالْجَاهِلِ الْغَيْبِيِّ الَّذِي غَايَتُهُ تَقْلِيدُ أُمِّهِ فِي الشَّهَادَتَيْنِ فَهُوَ مِنَ الضُّفَادِ وَالذِّدَانِ فِي ضَحَضَاحِ الْغَيْطَانِ (٥٩)، وَيُرِيدُ أَنْ يَنْهَضَ إِلَى مِظَانِ الْعُقْبَانِ فِي شَمَارِيخِ تَهْلَانِ (٦٠)!!

(٥٨) الحديث في صحيح مسلم (٤: ١٧٧٤) برواية: «رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة» وذكر روايات أخر تؤذي المعنى ذاته؛ وفي رواية: «الرؤيا الصالحة جزء من سبعين جزءاً من النبوة».

(٥٩) الشماريخ، جمع الشُمرُوخ، وهو رأس الجبل. وَتَهْلَان: اسم جبلٍ طويلٍ بالعالية - عالية نجد - في بلاد بني نمير (معجم البلدان: تهلان).

(٦٠) الضُّحَضَاح: الماء اليسير، يصل إلى الكعبيين. والغَيْطَان: جمع الغُوط والغائط، وهو المظتمن الواسع من الأرض.

فصل

[الكلام في إخوة يوسف عليه السلام هل كانوا أنبياء؟].

فإن قال قائل: فإذا نَزَّهْتُمُ الأنبياء عليهم السلام مثل هذا التنزيه فما قولكم في إخوة يوسف عليهم السلام وقد قال بعض من يؤبه^(١) له من المفسرين والمؤرخين القائلين بغير دليل بأنهم كانوا أنبياء؟

فالجواب: أن إخوة يوسف عليه السلام عندما واقَعُوا ما واقَعُوهُ مع أخيه وأبيه لم يكونوا أنبياء وأمَّاء الله ورُسُلِهِ. والدليل على ذلك أن الكتاب العزيز جاء بأنهم واقَعُوا كبائرَ وصغائرَ والإجماعُ منعقدٌ على أن الأنبياء عليهم السلام معصومون من الكبائر؛ واختَلَفُوا في الصغائر^(٢). وقد أقمنا الدليل على عصمتهم من الصغائر بما فيه مَقْنَعٌ فيما تقدَّم.

فأما جُمْلَةُ ما ارتكَبُوهُ منها ففي عشرين آيةً، من قوله تعالى مُخْبِراً عن أبيهم أنه قال ليوسف عليه السلام^(٣): ﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ إلى قوله تعالى مُخْبِراً عن نفسه^(٤): ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾. فتتبع الآيَ تجد العدد المذكور فما أُحِيلَكَ على مُبْهِمٍ ولا على خَبِيرٍ ضَعِيفٍ الإسناد. ومعلومٌ أن الله عَزَّ وَجَلَّ ما أطلق هذه الأقوال وأمثالها على أنبيائه وأصفياه في كتابٍ ولا سُنَّةٍ، ولا أَمْرٍ بإطلاقها عليهم، ولا باعتقادها فيهم.

(١) يؤبه له: يُقَطَّنُ له (أي هو ذو شأن).

(٢) أشهر من قال إن الأنبياء قد تقع منهم الصغائر: المعتزلة. وفي تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضي عبد الجبار عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾: «إن وكزه كان على وجه الدفع لِمَا أراد مخاطبته ولم يظن أنه يؤدي إلى قتله وذلك كالمراءى يودب ولده استصلاحاً له فيؤديه إلى الموت. وهذا من الصغائر التي نجوزها على الأنبياء» ص ٣٠٩

(٣) يوسف: ٥/١٢

(٤) يوسف: ١٠٢/١٢

فأما الكبائر التي فعلوها وهي لا تجوز على الأنبياء عليهم السلام
فخمسة:

- ١ - ظلم الأخ المسلم لا سيما أخ مثل يوسف.
 - ٢ - وعقوق الأب لا سيما أب مثل يعقوب عليه السلام.
 - ٣ - والكذب في قصة الذئب المؤدي إلى فراق أخيه من أبيهم على
حادثة سنه وضعف منته^(٥)، وتفجع أبيهم على فقده حتى ابيضت
عيناه من الحزن.
 - ٤ - وبيعه من الكفرة بثمن بخس على قول^(٦) وهو مؤمن حر وأخوه وابن
نبي.
 - ٥ - ووصمة أخيه يوسف عليه السلام بعد ثبوت نبوته حين قالوا له^(٧):
﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾. فنيزوه بالسرقه حتى الجؤوه أن
يقول لهم^(٨): ﴿أَنْتُمْ شُرُوكُنَا﴾.
- أوهذه - رحمك الله - أخلاق الأنبياء عليهم السلام؟ أويسوغ أيضاً أن
يكذب النبي عشرة أنبياء حتى يقول لهم أبوهم النبي بعدما جاؤوه عشاء
يبكون وقالوا إن يوسف أكله الذئب^(٩): ﴿يَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ
جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ وهذا هو فحوى التكذيب.
- فهذه خمس كبائر، أربعة منها فعلوها على القطع والخامسة التي هي
بيع الحر مختلف فيها فإن الله تعالى يقول^(١٠): ﴿شَرُّهُ﴾ فيحتمل أن تعود

(٥) المنة: القوة.

(٦) أي على قول من قال إن المشتري (السيارة) كانوا من الكفار.

(٧) يوسف: ٧٧/١٢

(٨) يوسف: ٧٧/١٢

(٩) يوسف: ١٨/١٢

(١٠) يوسف: ٢٠/١٢

الهاء عليهم أو على السيارة، وهو الأظهر.

وأما الصغائر فخمس عشرة على أن كل ذنب عَصِي الله تعالى به فهو كبيرة. لكن يتأكد الوعيد على بعضها بما ورد من الظواهر فيتصور فيها الصغر والكبر، كما تقدم.

فمن قال إنهم كانوا أنبياء عندما واقَعُوا هذه الكبائر فيلزم أن يجوز وقوعها على مَنْ سواهم من الأنبياء عليهم السلام لِتَسَاوِيهِمْ فيما يجبُ لهم من العصمة كما سبق، والجائز كالواقع، مع خرق الإجماع الواجب الاتباع في عصمتهم من الكبائر والعياد بالله من شؤم الجهل وأهله!

فإن قيل: ولعل هذه الأفعال كانت في شريعتهم غير كبائر، قلنا: إنما وقع الإجماع على أن كبائر شريعتنا لا تجوز عليهم.

والخمس التي أخبر تعالى عنهم بها كبائر في شريعتنا وأما شرائعهم فما نعلم كبائرهما من صغائرها، ولا كلفنا ذلك.

فصل

ثم يُطْلَبُ هذا الغمر البليد^(١١) بثبوت بُبُوتِهِمْ من أين عَلِمَهَا؟ إن النبوة لا تثبت بالعقول ولا بخبر الواحد الذي لا يحصل به العلم، ولا يثبت أيضاً بقرينة الحال ولا تحميل الأعمال كما زعمت المعتزلة وغلاة الباطنية القائلين باكتساب النبوة. فإن غير النبي من الأولياء قد يصح منه ذلك، وقد يصدر من أهل الرياء من الأعمال والقرائن مثل ذلك^(١٢).

(١١) الغمر: الذي لم يجرب الأمور.

(١٢) ذكر القشيري في ترجمة أبي يزيد البسطامي قوله: «لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى يرتقي في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وجفّظ الحدود وأداء الشريعة» الرسالة القشرية: ٣٩٧ بتحقيق معروف زريق وعلي بلطه جي.

فإن قيل: فإذا لم تصح النبوة من هذه الوجوه فمن أين تصح؟

قلنا: تصح من وجهين: أحدهما أن يأتي النبي في زمان تصح فيه النبوة فيدعي النبوة ويتحدى الناس بالمُعجزة فيفعلها الله له على وفق دعواه.

أو ينص على نبوته نبي آخر نصاً متواتراً لا يحتمل التأويل، كما نص الله تعالى في مُحكم كتابه على الستة والعشرين الذين أولهم آدم وآخرهم محمد عليهم الصلاة والسلام، فهؤلاء هم الأنبياء الذين من أنكر نبوة واحد منهم أو قدح فيها قدحاً يخل بشرط من شروط نبوتهم فهو كافر، حلال الدم والمال مُخلد في نار جهنم بالإجماع المتواتر، فهؤلاء هم الأنبياء حقاً ومن أثبت نبوة غيرهم على التعيين فعليه الدليل، مع أننا نعلم أن ثم أنبياء لله آخر جاء بهم القرآن في قوله تعالى (١٣): ﴿مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقُصِّصْ عَلَيْكَ﴾ لكن لم يقع التنصيص في الكتاب إلا على نبوة عدد من ذكرناه. فاما من ذكر منهم في أخبار الاحاد فمَظنون.

فصل

فإن قيل: ولعل نبوتهم ثبت من الكتاب في قوله تعالى حين عدد الأنبياء عليهم السلام قال (١٤): ﴿وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ﴾.

والأسباط إخوة يوسف وأجدتهم سبط.

قلنا: ليس كما قلت؛ فإن الأسباط في بني يعقوب كالقبائل في بني

= (١٢) وانظر كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل (٣: ١١٩) في تسفيته القول باكتساب النبوة وزعم من زعم أن من بلغ الغاية من الصلاح وطهارة النفس أدركها.

(١٣) غافر: ٧٨/٤٠

(١٤) البقرة: ١٣٦/٢، وآل عمران: ٨٤/٣، والنساء: ١٦٣/٤

إسماعيل. وَاجِدْهُمْ: سَبَط. وَهُمْ اثْنَا عَشَرَ سَبَطاً لاثْنِي عَشَرَ وَلِداً ليعقوب عليهم السَّلام، وَإِنَّمَا سَمَوْا هَؤُلَاءِ أَسْبَاطاً، وهؤلاء قبائل ليفصل بين ولد إسماعيل وولد يعقوب تسميةً. هكذا نصَّ عليه أهل اللغة^(١٥).

فإن قال قائل: فما معنى دُخولهم في العدد مع الأنبياء وليسوا بأنبياء؟.

والجواب: أنَّ القرآن مقصودٌ بالإيجاز الذي هو مِخُّ البلاغة، وكانت النبوة تترى في بني إسرائيل وكان أثْلهم من أولاد يعقوب وهو إسرائيل. فلمَّا عدَّ الله تعالى مَنْ كان قبل من الأنبياء على التفصيل أوجز فقال: «وَالْأَسْبَاطُ» يعني أنبياء الأسباط على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه. ثم خصص بعد ذلك عُظَماءهم بالذكر فقال^(١٦): ﴿وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً﴾ فبدأ بالتفصيل وختم بالتفصيل فتضمَّن الطرفان الواسطة. وصَحَّ التشريف لمن خصَّص بالذكر في الأحاد.

وهذا التخصيص ينظر لقوله تعالى^(١٧): ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ وهما من الملائكة، وقال تعالى^(١٨): ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ وهما من الفاكهة.

وكذلك ذكر معظم الأصناف التي كانت النبوة تترى فيهم ثم خصص عُظَماءهم بالذكر تشريفاً لهم صلوات الله عليهم أجمعين. ومصدق هذا التفسير أنَّ ذكر الأسباط إنما وُضع تسميةً عوضاً من القبائل كما تقدَّم؛ فلو كانوا كلُّهم أنبياء كما زعم الجهلة لكان كلُّ من انتسب من

(١٥) انظر اللسان (سبط).

(١٦) النساء: ١٦٣/٤

(١٧) البقرة: ٩٨/٢

(١٨) الرحمن: ٦٨/٥٥

بني يعقوب عليه السّلام نبياً، وقد قال تعالى (١٩): ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾ وقال تعالى (٢٠): ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ وقال (٢١): ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ اثْنَتِي عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ فَسَمَّاهُمْ أَسْبَاطًا وَأُمَمًا، وَلَمْ يَسْمَهُمْ أَوْلَادًا وَلَا أَبْنَاءً.

فإن قيل: فقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (٢٢): «الحسين سبط من الأسباط»، فمعناه أنه يقوم في العباد، والقيام بحق الله تعالى مقام سبط كما قال تعالى (٢٣): ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ﴾ وقال عليه السّلام في قس (٢٤): «إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يُحْشَرَ أُمَّةٌ وَحْدَهُ» هكذا حكاه الهروي في كتاب الغربيين.

فإن قيل: ولعلهم سُموا أسباطاً - وهم أولادٌ - تجوزاً واتساعاً كما سَمَى النبي صلى الله عليه وسلم: الحسين سبطاً حيث قال: «الحسين سبط من الأسباط» وهو ولد.

قلنا: هذا التجوز إنما صحَّ في الحسين رضي الله عنه لسبق المعرفة بنبوته من وجه آخر، فلو أخبر تعالى أن يهوذا سبط من الأسباط ثم عدده في جملة الأنبياء بلفظ السبط لصحَّت نبوته، وهذا لم يقع فلا حجة للخصم في هذه القولة، ولو صح لما صحَّت نبوته إلا بعد التوبة والإنابة واشتراط العصمة في حال الوهلات كما زعم الخصم.

(١٩) الأعراف: ١٦٨/٧

(٢٠) الصافات: ١١٣/٣٧

(٢١) الأعراف: ١٦٠/٧

(٢٢) الحديث في النهاية في غريب الحديث (٢: ٣٣٤).

(٢٣) النحل: ١٢٠/١٦

(٢٤) جاء في الأغاني (١٥: ١٩٢) في ترجمة قس بن ساعدة أنه: «أَوَّل مَنْ قَالَ فِي كَلَامِهِ: أَمَّا بَعْدُ، وَأَوَّل مَنْ أَتَكَأَ عِنْدَ خُطْبَتِهِ عَلَى سَيْفٍ أَوْ عَصَا، وَأَدْرَكَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ النَّبُوءَةِ، وَرَأَاهُ بِعَظَاظٍ فَكَانَ يَأْتُرُ عَنْهُ كَلَاماً سَمِعَهُ مِنْهُ، وَسُئِلَ عَنْهُ فَقَالَ: يُحْشَرُ أُمَّةٌ وَحْدَهُ».

وأما غير هؤلاء من أهل النظر فتوهموا نبوتهم من قوله تعالى مخبراً عن يعقوب عليه السلام حيث قال (٢٥): ﴿وَتِمْ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾.

وهو لم يمت إلى قريب في اللسان لأن الآل أقرب في اللسان للنبوة من الأسباط لكن «الآل» تحتل البنين وتحتل التبّع (٢٦)؛ قال تعالى (٢٧): ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ أي تبعه. وفي السنة (٢٨): «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ» فذكر الآل ثم ذكر الذرية. فلو كان الآل من الذرية لم يصح العطف.

فإن قيل: ولعل ذكر الذرية بعد ذكر الآل تخصيص التشريف كما قال تعالى (٢٩): ﴿وَمَلَأْ كَيْتَهُ وَرُسُلِهِ وَجَبْرِيلَ﴾.

قلنا: إذا بقيت «لعل» فقد تطرق الاحتمال وأطرد الإشكال. والنبوة لا تثبت بالاحتمال. ويحتمل أن يكون التمام على الآل بما دون النبوة من الولاية والصدقية، وإذا دخلت هذه الاحتمالات لم يصح القطع على نبوتهم في هذه الآية. ومع تسليم هذه التقديرات جداً فلا تصح نبوتهم عند موافقة الأفعال التي ذكر تعالى عنهم أصلاً؛ فإنه كان يؤدي إلى أن يجوز على أنبياء الله عز وجل كل ما فعلوه لصحة التساوي الذي قدمناه. فهذا - رحمكم الله - هو الحق الذي يرغب فيه ولا يرغب عنه.

وبعد هذا التبّع فلا يبقى لقائل مسترّوخ إلى ثبوت نبوتهم إلا من

(٢٥) يوسف: ٦/١٢

(٢٦) اللسان (أول).

(٢٦) غافر: ٤٦/٤٠

(٢٨) في صحيح مسلم (١: ٣٠٦)

(٢٩) البقرة: ٩٨/٢

هذه الوجوه المتقدمة، وهي مظنونة ولا سبيل إلى القطع في واحد منها. فالله الله أيها المسترشد المحتاط على دينه إن لم تكن من أهل النظر القويم على الصراط المستقيم، فما كل سوداء تمرّة ولا كل بيضاء شحمة (٣٠)!

واجتهد فيمن تأخذ عنه دينك، وجنب الجهال مرّة، وجنب وعظانا ومريدنا في هذا الزمان المنكوب المنكوس ألف ألف مرة! فإنهم أضروا على دينك من الأفاعي الصفر (٣١)، لا سيما في هذا العويلم (٣٢) المتهافت الدعيّ في الإرادة بالنوافج (٣٣) ومغالطة البله الأعمار (٣٤) من النساء وفحول النساء فإنهم انتهكوا حرمة الأنبياء عليهم السلام، حتى تشبهوا بهم وربّما أربوا (٣٥) عليهم بادعاء الالهية بالفيض والإشراق (٣٦) الذي ادّعته القرامطة حتى يلقي أحدهم امرأة أو غلاماً فيقول له: «رأيت الله فيك!» إلى غير ذلك من أمور هي أشنع وأبشع من أن تُذكر أو تسخم (٣٧) بها الأوراق.

والذي ورط هؤلاء الأرجاس (٣٨) في هذه الرذائل عدم الزاجر وقلة الغيرة في الدين. فانظر عمّن تأخذ دينك وكيف تأخذه. وقد نصحتك والسلام.

(٣٠) المثل في مجمع الأمثال (٢: ٢٨١)

(٣١) ضرب الأفاعي الصفر مثلاً لشدة السمية.

(٣٢) العويلم تصغير العالم.

(٣٣) النوافج: مؤخرات الضلوع.

(٣٤) الأعمار: جمع الغمر، وهو الذي لم يجرب الأمور.

(٣٥) أربوا عليهم: زادوا.

(٣٦) انظر الملل والنحل للشهرستاني، على هامش الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم (٢: ٣٠)

(٣٧) تسخم: تسود، من السخام، وهو الهباب الأسود المتشكل من الدخان (غاز الفحم). وفي الأصل: تسخم به، وأصلحت العبارة بما يناسب السياق. والأوراق مؤنثة.

(٣٨) الأرجاس: القذرون؛ والرّجس: القذر.

وقد نَجَزَ التَّنْبِيهَ عَلَى التَّنْزِيهِ بِمَعُونَةِ اللَّهِ تَعَالَى .
 ونَسَأَلَ اللَّهَ الَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ وَبَرَأَ النَّسْمَةَ أَنْ يَغْفِرَ عَنَّا فِيمَا وَقَعَ فِيهِ
 مِنَ الْخَطَا وَالْخَطَلِ ؛ بِمَنِّهِ وَلُطْفِهِ وَالْخَتَمَ بِالصَّلَاةِ وَالتَّسْلِيمِ عَلَى
 الْأَنْبِيَاءِ عُمُومًا وَعَلَى نَبِيِّنَا خُصُوصًا وَعَلَى آلِهِ وَآلِهِمْ وَسَلَّمَ
 تَسْلِيمًا .

مجموع نکت من بعض ما خُصَّ
به نبينا عليه السلام

مجموع نكت من بعض ما خص به نبينا عليه السلام

من الكرامات ليلة الإسراء عند لقاء الكليم عليه السلام وما كان بينهما من المراجعة والمُحاورَة في أمر الصلَاة^(١). ثم نُبِّهَ بعد ذلك على فضل هذه الطَّاعة العظيمة وتعدّد أعمالها على التفصيل فروضاً وسُنناً وأجوراً لتتأكد على المصلِّين الرِّغبة في أدائها ويزدجر التَّاركون لها لما فاتهم من خيرها، ولما يتوقَّعون من الوعيد على تركها؛ إن شاء الله تعالى.

فإن [قال] قائل: لِمَ اختصَّ نبينا عليه السلام موسى عليه السلام بخبر

(١) جاء في حديث الإسراء: «... فأوحى الله إليَّ ما أوحى؛ ففرض عليَّ خمسين صلاة في كلِّ يوم وليلة. فنزلتُ إلى موسى صلى الله عليه وسلم فقال: ما قرَّضَ ربُّكَ على أمَّتِكَ؟ قلت: خمسين صلاة. قال: ارجع إلى ربِّكَ، فاسأله التَّخفيف، فإنَّ أمَّتَكَ لا يُطيقون ذلك، فلما نبي قد بَلَوتُ بني إسرائيل وخَبَرْتُهُمْ، قال، فَرَجَعْتُ إلى رَبِّي فقلت: يا رَبِّ! خَفِّفْ على أمَّتِي. فحطَّ عني خمساً. فرجعت إلى موسى فقلت: حطَّ عني خمساً. قال: إنَّ أمَّتَكَ لا يُطيقون ذلك فارجع إلى ربِّكَ فاسأله التَّخفيف. قال: فلم أزل أرجع بين ربِّي تبارك وتعالى وبين موسى عليه السلام حتى قال: يا مُحَمَّد! إِنَّهُنَّ خَمْسُ صَلَوَاتٍ كُلُّ يَوْمٍ وليلة، لكلِّ صلاةٍ عَشْرٌ، فذلكَ خَمْسُونَ صلاة. وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فلم يعملها كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ، فإنَّ عَمَلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا. وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فلم يعملها لم تُكْتَبْ شَيْئًا، فإنَّ عَمَلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةٌ واحدة. قال: فنزلتُ حتَّى انتهيتُ إلى موسى صلى الله عليه وسلم فأخبرتهُ فقال: ارجع إلى ربِّكَ فاسأله التَّخفيف؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فقلت: قد رَجَعْتُ إلى رَبِّي حتَّى استحييتُ منه» صحيح مسلم (١٤٦/١) وانظر الحديث بتمامه ثَمَّة.

الصَّلَاة وتفاوضَ معه فيها وهو في السادسة وقد مرَّ إبراهيم عليه السَّلام في السَّابعة ولم يُخبره بذلك مع أنه أبٌ، ومع قوله تعالى^(٢) ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ فقد شاركه في المِلَّة والأبوة، فَلِمَ أَخَذَ في القِصَّة مع موسى عليه السَّلام ولم يأخذ فيها مع إبراهيم عليه السَّلام مع هذه المَرَّات. وتُصوِّر المسألة مبنيَّ على ما جاء من أنَّ موسى عليه السَّلام في السادسة وإبراهيم عليه السَّلام في السَّابعة. ومَنْ صحَّ عنده أنَّ موسى في السَّابعة وإبراهيم عليه السَّلام في السادسة فلا عَرَوَ أن يتفاوض مع أوَّل من لقي من الأنبياء؛ وإن صحَّ أنَّ موسى عليه السَّلام في السادسة وإبراهيم عليه السَّلام في السَّابعة كما تقدم فلا بدَّ من ذكر اختصاصه معه في المفاوضة وذلك يحتمل خمسة أوجه:

الأوَّل: منها أن يكون موسى عليه السَّلام سأله إذ مرَّ به، وإبراهيم عليه السَّلام لم يسأله فلمَّا لم يسأله لم يُخبره.

الثاني: أنه اختصَّ موسى بالمُفاوضة لأنه قد حنَّكته معالجة بني إسرائيل قبله، وجربهم فلم يَفُوا بما كُلفوا، وإبراهيم عليه السَّلام بُعث بالموعدة الحسنة، فلم يُقَبَل في الإيمان، فلم تقع طاعة، فلم تُتصوَّر تجربة؛ وإن كان قبْلَهُ أَفْذاذُ من الناس فالنادر لا يحكم به. وَيَعُضُّ هذا التفسير قولَ موسى عليه السَّلام له: «ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسأله أن يخفِّفَ عن أمتك. فَإِنِّي قد عالجت بني إسرائيل قبْلَكَ» الحديث فقصد عليه السَّلام موسى لأنَّه كان مُجَرَّباً.

الثالث: أن إبراهيم عليه السَّلام أبٌ وموسى أخٌ، وكان في معلوم الله تعالى أن يُسَعِّفَ موسى عليه السَّلام من وَجْهِه ولا يُسَعِّفه من وَجْهِه، حيث قال له موسى عليه السَّلام بعد فرض الخمسة: «ارجعْ إِلَى رَبِّكَ فقال: إِنِّي أُسْتَحْيِي» فيسوغ هذا في مراجعة الأخ ولا يسوغ في مراجعة الأب.

الرَّابِع: أن موسى عليه السَّلام كان له حظٌّ في أجور هذه الأُمَّة في

قوله عليه السلام لَمَّا أُخْبِرَ بتضعيف أجور أمة أحمد وفضلهم على جميع الأمم: «قال ربي اجعلني من أمة أحمد»^(٣).

قاله يفأوضه في ذلك ليحلب حلباً له شطره، قال تعالى لنبيِّنا عليه السلام^(٤): ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ قال المفسِّرون^(٥): يعني إذ قضينا في فضلك وفضل أمتك حتى قال موسى: «رَبِّ اجعلني من أمة أحمد».

الخامس: أن يكون قصده لموسى للشبهة التي كانت بينه وبين نبيِّنا عليه السلام في البعث بالسيف والتنجيم في العقوبة، وكانت خصوصاً في بني إسرائيل بامتداد الأيام وكثرة السامعين المطيعين له، وكثرة التَّبَع، فإنه ما بَعْدَ تَبَعِ نبيِّنا عليه السلام في الآخرة مَنْ هو أكثر من تبع موسى عليه السلام كما جاء في الخبر^(٦). ومصحح الشبهة في هذه الوجوه قوله تعالى^(٧): ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ فاخصَّه بالشبهة في الإرسال دون غيره.

فهذه أوجه يتصور فيها التخصيص بالانحياش والمفاوضة إلى موسى عليه السلام.

(٣) حديث.

(٤) سورة القصص: ٢٨/٤٤

(٥) انظر القرطبي (٢٩١/١٣)

(٦) في مسند الإمام أحمد (٤٢٠/١) من حديث عبد الله بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأَنْبِيَاءُ بِأُمَمِهَا وَتَبَاعِهَا مِنْ أُمَمِهَا، فَجَعَلَ النَّبِيَّ يَمُرُّ وَمَعَهُ الثَّلَاثَةُ مِنْ أُمَّتِهِ، وَالنَّبِيَّ مَعَهُ الْعَصَابَةُ مِنْ أُمَّتِهِ، وَالنَّبِيَّ مَعَهُ النَّفَرُ مِنْ أُمَّتِهِ، وَالنَّبِيَّ مَعَهُ الرَّجُلُ مِنْ أُمَّتِهِ، وَالنَّبِيَّ مَا مَعَهُ أَحَدٌ، حَتَّىٰ مَرَّ عَلَيَّ مُوسَىٰ بْنُ عِمْرَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي كَبْكَبَةٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَلَمَّا رَأَيْتَهُمْ أَعْجَبُونِي، قُلْتُ: يَا رَبِّ مَنْ هَؤُلَاءِ، فَقَالَ: هَذَا إِخْوَك مُوسَىٰ بْنُ عِمْرَانَ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، قُلْتُ: يَا رَبِّ فَأَيْنَ أُمَّتِي؟ قَالَ: انْظُرْ عَنْ يَمِينِكَ، فَإِذَا الظُّرَابُ ظُرَابَ مَكَّةَ قَدْ سُدَّ بِوُجُوهِ الرِّجَالِ. قُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا رَبِّ، فَقَالَ: أَمَّتُكَ، قُلْتُ: رَضِيتُ يَا رَبِّ...» إلى آخر الحديث.

(٧) سورة المزمل: ١٥/٧٣

وأما فوائد فرض الصلاة في ذلك المقام فلنذكر منها ما منَّ الله تعالى به على جهة الاختصار، وهي تنقسم أربعة أقسام:

قسم في فضلها على سائر العبادات.
وقسم في فضل نبيِّنا عليه السَّلام على سائر الأنبياء وإظهار إكرامه في ذلك المقام عند الملائكة الأعلى.
وقسم في اهتمامه بأمره واحتياطه عليهم في طلب التخفيف عنهم.
وقسم في لطفِ الله تعالى بهم حيث حطَّ عنهم كُلفة خمسٍ وأربعين وأبقى لهم أجرَ الخمسين.

فأما فضلها على سائر العبادات

أولاً: لكونها فُرِضَتْ في المقام الأسنى على بساط العزَّة بحضرة الملائكة الأعلى، وفي هذا تنويه بهذه الطاعة وتشريف لها على سائر العبادات، حتى إنَّ الله تعالى يسأل الحَفَظَةَ في كُلِّ يومٍ وليلة^(٨): كيف تركتم عبادي؟ فلا يذكرون له من أعمال البرِّ في التَّرك والإتيان سوى الصَّلَاة وذلك لما سبق لها من العلم بفضلها وتعظيمها حين فرضت في ذلك المقام.

وأما من جهة التَّعليل فإنَّها عبادة تشمل الجسد ظاهراً وباطناً، وتجمع عبادات الملائكة كما شهد الخبر^(٩) أنَّ منهم قُوماً، ومنهم رُكَّعٌ ومنهم سُجَّدٌ، ومنهم ذاكرون مُسَبِّحُونَ حَامِدُونَ؛ فهذه الأحوال كُلُّها قد جمعتها الصلاة

(٨) في المَوْطَأ (١٧٠/١) من حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يتعاقبون فيكم: ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر، وصلاة العصر، ثم يُعْرَجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون».

(٩) ينظر تفسير سورة (الجنِّ) في كتب التفسير، مثل الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (١٢/١٩) وما بعدها.

حتى [لا] يفوت ابن آدم عملٌ من أعمال الملائكة، مع ما جاء في الأخبار من الحُض عليها وتعظيم الوعد والوعيد على فعلها وتركها في كتاب الله تعالى وسُنَّة رسوله.

وأيضاً فإنَّ فُرُوض الصَّلَاة أكثر من سائر الأعمال كما سيأتي إن شاء الله تعالى عند تعداد فُرُوضها، وقد قال عليه السَّلام^(٩): «إن الله يقول: ما تقرب إليَّ عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه». فَمَا كانت الطَّاعة أكثر فُرُوضاً كانت أفضل.

وأما ظهور نبينا عليه السَّلام وتقدُّمه في ذلك المحلِّ فلا تحويه الرُّقُوم، ولا تحيط به ثاقبات الفهوم. لكنَّا نقتصر منه على بعض ما تضمَّنه إكرام الله تعالى له في أمر الصَّلَاة؛ والله المستعان. وَهُوَ يَنْقَسِم أربعة^(١٠) عشر قسماً:

أحدها: أَنَّهُ كان وافداً على الله تعالى، وضيفُ الكريم كريم، فَاتَّحَفَه بهذه التَّحفة التي هي أُمُّ الطاعات ورأس المعاملات كما تقدم.

الثاني: أَنَّ فَرْضَها خمسين وفي مَعْلُومِهِ تعالى نَسَخُ تِسْعَةِ أَعْشَارِها لِيُظْهَرَ جَاهَهُ عند المَلَأِ الأَعْلَى في السُّؤال والإِجابة؛ فلو فَرَضَ الخَمْسَةَ في أَوَّلِ وَهْلَةٍ لَمْ يَظْهَرِ ذَلِكَ الْجَاهُ، كما لو قَدَّرْتَ كريماً وَقَدَّ عَلَى مَلِكٍ عَظِيمٍ فَأَحْسَنَ لَهُ كما يَنْبَغِي لِسَعَةِ مَمْلَكَتِهِ، ثُمَّ أَمَرَهُ أَنْ يُلْزِمَ قَوْمَهُ خَمْسِينَ وَظِيفَةً، ثُمَّ قَبَلَ شَفَاعَتَهُ فِي أَكْثَرِها، أَتَرَى كان يَخْفَى [على] وُزَرَاءِ ذَلِكَ المَلِكِ وَحَاشِيَتِهِ مَكَانُ هَذَا الوَافِدِ عَلَيْهِ؟

الثالث: أَنَّهُ لَمْ يَحْطِها عَنْهُ جُمْلَةٌ بَلْ نَجَّمَهَا عَلَيْهِ تِسْعَ مَرَّاتٍ، وَذَلِكَ لِيُؤَكِّدَ

(٩) في مسند الإمام أحمد (٢٥٦/٦) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قال الله عز وجل: مَنْ أَذَلَّ لِي وَلِيًّا فَقَدْ اسْتَحَلَّ مُحَارَبَتِي، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءِ الْفَرَائِضِ...».

(١٠) في الأصل: «أَحَدَ عَشَرَ...».

إكرامه عند الملائكة، حتى يعلموا بسطه له، وبأينه في تكرار الإسعاف مع تكرار السؤال.

الرابع: أنه لم يُخطئه في هذا التكرار إلا بعد أن فارق البساط، وانصرف ثم رجع، وذلك زيادة في الإكرام، وذلك أن الوفود إذا فارقت بساط الملوك بعد قضاء الحوائج لا ينبغي لها أن ترجع في طلب حوائج أخرى، فلئن رجع وافد منهم في طلب حاجة أخرى، فهو أدل دليل على تأكيد كرامة هذا الراجح في طلب الحاجة الأخرى. فأعجب بها كرامة إذ رجع تسع مرات فأسعفه الملك في كلها. وأعجب من ذلك أنه تعالى لم يسعفه تسع مرات [إلا] في جنس واحد، وأنه قد تصلح المراجعة في المختلفات، فأكرم بها إذ كانت في الجنس الواحد.

الخامس: أنه تعالى لما علم أنه لا يسعفه في حط شيء من الخمسة ألقى عليه الحياة، فقال له موسى: ارجع إلى ربك. فقال: إني أستحيي، فلو رجع ولم يسعفه لأنخرم نظام الجاه. فيما قدّمناه من الكرامة وفي ذكره الحياة أيضاً لموسى عليه السلام أدب معه، ليعلمه أن الرأي ما رآه موسى عليه السلام لولا أنه منعه الحياة.

نور الله صدورنا وعقولنا وأعاننا على تعظيم الأكابر وإبراز بعض مناقبهم السنية.

السادس: وهو أن حط عنه وعن أمته معظم الكلفة، وأبقى لهم أجر العدد كما سبق حين قال: «هي خمس وهي خمسون. ما يبدل القول لدي» يعني خمساً في العدد وخمسين في الأجور.

السابع: أنه بشره أن سائر أعمال البر المفروض والمنذور تجري على حكم الصلاة وتضعيف الأجور من قوله: «ومن هم بحسنة فعلها كتبت عشرًا».

الثامن: بَشْرُهُ أَنَّهُ يَضَاعَفُهَا إِلَى سَبْعِ مِائَةٍ وَيَزِيدُ.

التاسع: أَنَّهُ بَشَّرَهُ أَنَّ مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ وَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ حَسَنَةٌ وَاحِدَةٌ.

العاشر: أَنَّهُ بَشَّرَهُ أَنَّ مَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ وَعَمِلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةٌ وَاحِدَةٌ.

الحادي عشر: أَنَّهُ بَشَّرَهُ أَنَّ مَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ وَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تَكُتَبْ شَيْئًا.

الثاني عشر: وهو ما اختص به من السُرْعَةِ فِي قَطْعِ الْمَسَافَةِ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ أُسْرِيَ بِهِ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى، ثُمَّ صُعِدَ بِهِ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، وَعَادَ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى فِي مَنَاجَاةِ الْكَلِيمِ عَلَيْهِ السَّلَامُ تِسْعَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ إِلَى مَنْزِلِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ أَوَّلَ اللَّيْلِ قَبْلَ الْفَجْرِ، وَهَذِهِ الْمَسَافَاتُ كَيْفَ مَا قُدِّرَتْ أَبْعَادُهَا فَهُوَ أَمْرٌ لَا يُحَدُّ وَسُرْعَةُ حَرَكَاتٍ لَا تُتَخَيَّلُ، لَا سِيَّما مَعَ شَهَادَةِ الْأَدْلَةِ الْعَقْلِيَّةِ أَنَّ الْجُزْءَ إِنَّمَا يَقْطَعُ بِالْحَرَكَاتِ جُزْءًا بَعْدَ جُزْءٍ بِحَرَكَةٍ بَعْدَ حَرَكَةٍ وَأَنَّ الطَّفَرَةَ مُحَالٌ.

وَأَمَّا مَا ظَهَرَ مِنْ فَضْلِ أُمَّتِهِ، فَمَنْ أَجَلَهُ وَبَسْبِهِ وَحُسْنِ وَسَاطَتِهِ، فَلَا نَحْتَاجُ أَنْ [نُرْخِي] عَنَانَ الْقَوْلِ فِيهِ، فَثَبَّتَ بِهَذَا أَنَّ سُرْعَةَ الْحَرَكَاتِ وَبُطْأَهَا إِنَّمَا تَرْجِعُ لَكثْرَةِ اللَّبْثِ فِي الْأَحْيَانِ لَا لِنَفْسِ الْحَرَكَاتِ فَإِنَّ الْحَرَكَةَ إِنَّمَا يَقْطَعُ بِهَا جُزْءٌ بَعْدَ جُزْءٍ بِشَهَادَةِ الْعَقْلِ.

الثالث عشر: وذلك أَنَّهُ احْتَاطَ عَلَى أُمَّتِهِ وَسَأَلَ عِنْدَ الْمَنَاجَاةِ الرَّفْقَ بِهِمْ وَالتَّخْفِيفَ عَنْهُمْ وَاخْتَارَ قِضَاءَ حَوَائِجِهِمْ وَلَمْ يَخْتَرْ لِنَفْسِهِ وَلَا سَأَلَ لَهَا، وَهَذِهِ غَايَةُ الْفَضْلِ الَّذِي لَا يُبَارَى فِيهِ، فَإِنَّ الْوَافِدَ عَلَى الْمُلُوكِ إِنَّمَا يَقْدَمُ سَوَّالٌ حَاجَتُهُ، وَهُوَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدَّمَ سَوَّالَ حَاجَةِ رَعِيَّتِهِ وَلَمْ يَسْأَلْ لِنَفْسِهِ، وَيَنْظُرُ لِذَلِكَ مَا جَاءَ عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ^(١١): «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ وَاخْتِبَاتٌ دَعْوَتِي شَفَاعَةٌ لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

(١١) فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ (١/١٨٨) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ يَدْعُوهَا. فَأَرِيدُ أَنْ أُخْتَبِيَ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

ويروى: «أدخرت دعوتي شفاعتي لأمتي يوم القيامة».

فصح فضل أُمته بسببه، فإنه ذَكَرَهُمْ ونَوَّهَ بهم واختار لهم وألح في السؤال على الله تعالى حتى قُضِيَتْ حوائجهم، فأَيُّ مِنَّةٍ لِنَبِيِّ كَمِنتِهِ علينا؟ فصار فضلهم تَبَعاً لفضله، وكرامتهم تَبَعاً لكرامته، فجزاه الله عنا خير ما جزي نبياً عن أُمته.

ومع ما قدّمنا من الفوائد - وهي الرَّابِعة عشرة ثلاث فوائد عظيمة المَوْقع في مسائل الاعتقاد عقلاً وشرعاً، وقد كثر فيها مكابرة أهل البدع ومثابرتهم:

الأولى: إثبات جواز الأمر من الله تعالى بما لا يريد وقوعه، فإنه تعالى أمر بالخمسين ولم يرد وقوعها من المكلفين.

الثانية: وهي بَطْلَانُ ادّعائهم استحالة الأمر من الأمر بما لا يريد وقوعه، وفي هذه القصة إثبات ما أحالوه.

الثالثة: وهي جواز نسخ الحكم قبل وقوع العمل به، فإنهم يَأْبُون ذلك، فصح أنه أمر بالخمسين ونسخ منها خمسة وأربعين، فإن قالوا إنه وقع بعضه وهو اكتساب النبي عليه السَّلام العِلْمُ بها والإرادة لفعلها، وكلاهما عبادة؛ فالجواب عنه: أن المأمور بها إنما هي الصَّلوات المنسوخة التي هي حركات وأصوات ونيّات وعزم يتجدّد عند افتتاحها، وهذه هي الصَّلابة المعلومة في الشرع، ولا تسمّى النية والعلم صلاة على الانفراد.

فهذا رحمك الله بعض ما تيسر من التفقّه في بعض حديث الإسراء. فإن مَنْ الله تعالى وساعدت الحياة فعسى تَتَذَبَّرُ سائر الحديث بما يفتح الله وهو حسبنا ونعم الوكيل.

فصل

وها أنا أنبه بعد هذا على ما شرطناه في تقديم هذه الطاعة العظيمة على سائر المعاملات، وتعداد أعمالها على التفصيل، ظاهراً وباطناً، فروضاً وسنناً وأجوراً.

فأما التنبيه على فضلها والترغيب فيها، لما جمعت من إعداد الطاعات وتضعيف الأجور عليها، وتحريض المكلف على آدابها فاعلم - رحمك الله - أن جميع أعمال الطاعات سوى الإيمان المصحح لها على ضربين: ظاهر وباطن.

فالظاهر على ضربين: أصوات وأكوان.

والباطن على ضربين: علوم ونيات.

والقدرة الحادثة تتعلق بجميع هذه الكائنات، ثم جميعها تنقسم في الشرع قسمين: فروض ومندوبات. وكلها عبادات ومعاملات، لكن المفروض منهما أرفع درجات وأمت للقربات، كما جاء عن سيد السادات صلى الله عليه وسلم أفضل الصلوات حيث قال^(١٢): «إن الله تعالى يقول: ما تقرب إلي عبدي بمثل أداء المُفترَضات».

فصل

لكن إذا نظرت إلى هذه الصلاة المكتوبة وجدت أعداد فروضها وسننها يشق على سائر أعداد الأعمال المشروعة. فإذا عدت صلاة شهر وجدتها زادت على طاعات العمر فروضاً وسنناً. فأول الفروض ظاهراً

(١٢) في مسند الإمام أحمد (٢٥٦/٦) من حديث عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «وقال الله عز وجل: ... وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء الفرائض...» الحديث.

من سواها كَلِمَةُ الإِخْلَاصِ^(١٣)، وفرضها مرة في العمر، وما سوى ذلك فمندوب إليه؛ وكذلك الحج من استطاع إليه سبيلاً.

وأما فرضُ الزكاة فمرة في السنة، لِمَنْ وجبت عليه.

وأما فرض الصَّوم فشهر في كل سنة.

وأما فرض الجهاد فإذا دَهَمَكَ الْعَدُوُّ، أو أَمَرَكَ إِمَامُ الْوَقْتِ. وهاتان الحالتان قد تقع ولا تقع.

وأما التَّوْبَةُ فَتَجِبُ عَلَى مَنْ أَذْنَبَ، وهي غير معيّنة العدد.

فصار على هذا معظم العدد في المفروضات دون عدد فروض الصلوات المكتوبة.

[وأما] الصوم فإذا عدت عمر سبعين سنة الذي هو رأس المعترك تجد صومك فيها خمسة وخمسين شهراً، بعد إخراج سني الطفولية التي هي خمس عشرة سنة.

وإن قابلت عدد الصلوات بأعداد أيام الصوم في العمر قابلت بعده فرض صلاة يوم وليلة، وكذلك أعداد الزكاة، على ما تقدم.

فصارت كلمة الإخلاص والزكاة والصوم والحج مئة فرض واثنى عشر فرضاً، فقد فضلت أعداد فروض الصلوات الخمس في الشهر سائر أعداد المفترضات في العمر بثمانية وثلاثين فرضاً، وهي رُبْعُ العدد المتقدم جملةً بجملة^(١٤).

(١٣)* يعني شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

(١٤) هذه حاشية لأحد مالكي النسخة إبراهيم بن أحمد بن محمد الملاء، وقد ترجمنا له في ذيل مقدّمة التحقيق؛ قال رحمه الله: «أقول إيضاح هذا المقام يحتاج إلى بسط كلام، وذلك أنه قد مر من قبل أن رأس معترك العمر هو سبعون سنة، وأن الباقي من ذلك بعد إسقاط سنّ عدم التكليف خمس وخمسون، وأن فرض الصوم فيها كل سنة شهر يبلغ =

فصل

وأما التفصيل فأضعاف لا يكاد يحصرها العدد ظاهراً وباطناً على حسب ما تقدمت القسمة، فأما ظاهر اللفظ المفروض فهو ثلاث: أم القرآن وتكبيرة الإحرام والسلام، على ما صح في المذهب من غير خلاف من خالف في بعضها، على أن من خالف في بعضها لم يختلف في كونها طاعة، وغرضنا إنما هو تكثير الطاعات وتضعيف الأجر عليها.

فأما عدد حروف أم القرآن بالمضاعفة المشددة منها وحروف المد واللين فمئة حرفٍ وأحد وعشرون حرفاً، اضربها في سبعة عشر التي هي عدد ركعات اليوم واللييلة صار منها ألفا حرفٍ وسبعة وخمسون حرفاً؛ فأضيف لها عدد حروف تكبيرة الإحرام والسلام اللذين هما أحد وعشرون بحرفين مشددين وحرفين ممدودين، صار الكل ألفين ومئة واثنين وستين حرفاً؛ فأضيف لها الأفعال المفروضة التي هي مئة فعلٍ وتسعة عشر فعلاً صار العدد ألفي فرضٍ ومئتي فرضٍ وأحداً وثمانين فرضاً؛ ضيف لها

= مجموعهُ خمساً وخمسين فرضاً، فاجتمع من هذين الفرضين المتكررين كل سنة مئة وعشر فروض. وإذا أضفت إلى هذا المبلغ من العدد فرض الإخلاص الذي هو في العمر مرة، وفرض الحج الواجب في العمر مرة، بلغ المجموع كما قال المصنف قدس الله روحه مئة واثنين وعشرين فرضاً، وأما فرض الجهاد فإنه قد يقع في العمر وقد لا يقع، وفرض التوبة فليس له عدد معين، كما صرح بكل مما ذكرناه المصنف فيما قبل، فلهذا لم يضمها في العدد إلى المبلغ المذكور، فهذه جملة العبادات المفروضة في العمر، فإذا قوبلت بهذه الصلوات المفروضة في شهر كانت صلاة الشهر مئة وخمسين فرضاً؛ فتفضل أعداد فروض الصلوات في الشهر حينئذ سائر أعداد المفترضات في الشهر ثمانية وثلاثين فرضاً، وهي ربع العدد المتقدم جملة بجملة؛ فهذا توضيح إشكال هذا المقام، وكشف ما عليه من الغطاء واللتام.

حرر ذلك، وقرره حين المطالعة إبراهيم بن الملا أحمد بن الملا محمد الشهير بابن الملا المحدث الأثري الحلبي العباسي، لطف الله تعالى به وبأصوله وفروعه وعفا عنهم وغفر لهم.

تحريراً في أواسط جمادى الأولى سنة ١٢٠٢٨هـ.

فرض التَّوَجُّهِ إلى القبلة قياماً وقعوداً سبعين مرَّةً، صارت ألفين وثلاث مئة وأحداً وخمسين فرضاً؛ فإذا صَحَّ هذا العددُ ضُفَّ لَهُ ضِعْفُهُ من النِّيَّاتِ عند فعلها والعلوم بها إذ لا يصحُّ عملٌ منها إلا بنيةً وعِلْمٍ، صار منها سبعة آلاف فرض وثلاث مئة وخمسون فرضاً؛ ضُفَّ لها ضِعْفُهَا في السَّنَنِ أقوالاً وأفعالاً ونياتٍ وعلوماً صارت أربعةَ عَشَرَ ألفَ طاعةٍ وسَبْعَ مئة طاعةٍ، تتضمَّنُها الصَّلوات الخمس في كل يوم وليلة.

على أَنَّ السَّنَنَ أَكْثَرُ عدداً، لكن قصدنا الاختصار بالحذف ولتقابل التَّضْعِيفُ فيسهل العدد ضاعفها بِعَشْرَةِ أمثالها من الأَجور عليها؛ إذ قد صَحَّ وثبت أَنَّ الحسنة بِعَشْرَةِ أمثالها^(١٥)، صارت مئة ألف حسنة وسبعاً وأربعين ألف حسنة. ثم إِنَّ هذا العدد الذي نَبَّهَكَ الله عليه في التَّضْعِيفِ إنما هو أَسُّ شرعيٍّ في عدد الأَجور بمثابة الواحد في العدد، فأخبرك الله تعالى أنه جعل أقل الأَجور في التَّضْعِيفِ عشرة ثم زاد إلى سبع مئة، ثم زاد إلى أن يُوفَّى الصَّابرون أجورهم بغير حساب؛ يعني عندهم لكونهم لا يُطِيقون حَصْرَهُ، فَإِنَّ كُلَّ ما خَلَقَ الله تعالى يجب أن يكون عنده معدداً مُحَاطاً به على التَّفْصِيلِ كما قال تعالى^(١٦): ﴿وَأَحْصَى كُلُّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾.

فصل

ولما استغرق العدد في أمر الصلاة سائر الطاعات لم نتعرَّض لعدد طاعات الطَّهارة لحصول المقصود في الكثرة، على أَنَّ هذا العدد - على كثرته - إنما هو فيما هو في وسع البشر وأما ما هو في معلوم الله تعالى من

(١٥) انظر الحاشية ذات الرِّقْم: ١.

(١٦) سورة الجن: ٢٨/٧٢.

عدد الحركات والأصوات والنيَّات وانتقالِ أجزاء جسم المصلِّي في الأحياز والجهات بجملة هذه الأعراض التي لا يصحُّ بقاؤها، فهو عدد ينفرد الباري تعالى به دون الخلق، وكلُّ واحدٍ منها عملٌ في معلوم الله تعالى مُعَدَّد، خَلَقَهُ في المُكَلَّفِ وأضافَهُ إليه عَمَلًا وَكَسَبًا فقال تعالى (١٧): ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ وقال تعالى (١٨): ﴿وَلَا يَظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾، ﴿وَلَا يَظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ (١٩) أَيُّ لَا يَنْقُصُونَ وَلَا يُبَخِّسُونَ وقال تعالى (٢٠): ﴿وَمَا أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾. وقال تعالى (٢١): ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾. وقال تعالى (٢٢): ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ. وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَقَرٌّ﴾ ومجموع هذه الآي تدلُّ على أن كلَّ عَرَضٍ عمل برأسه يقع الجزاء عليه تفصيلًا، فلا يُظَنُّ أَنَّ السَّجْدَةَ مثلاً عمل واحد له عشرٌ من الأجور، بل كلَّ عَرَضٍ فردٍ في كل جزءٍ فردٍ من الإنسان عَمَلٌ برأسه، له عشر حسنات تفضَّل بها علينا أكرم الأكرمين، ثم إذا كان هذا التضعيف يصحُّ للفدِّ، فما ظنُّك به في حقِّ المُصَلِّي في الجماعة، وأمَّا من صلى في الحَرَم فقد غمض الجليّ وأتى الوادي فطمَّ على القرِّي (٢٣)! فهذا هذا ولا يهلك على الله إلا هالك.

فصل

فإن كان هذا التضعيف العظيم من أعداد الأجور يصحُّ للمصلِّي في اليوم والليلة، فما ظنُّك بصلاة شهر؟ وأينك من صلاة سنة؟ وما أدراك من

(١٧) سورة الزلزلة: ٧/٩٩ - ٨

(١٨) سورة النساء: ٤٩/٤، وسورة الإسراء: ٧١/١٧

(١٩) سورة النساء: ١٢٤/٤

(٢٠) سورة الطور: ٢١/٥٢

(٢١) سورة الكهف: ٤٩/١٨

(٢٢) سورة القمر: ٥٣ - ٥٤/٥٤

(٢٣) طمَّ على القرِّي: غَطَّاه، وملأه؛ والقرِّي: مجرى الماء إلى الرُّوْضَةِ.

صلاة العمر؟! فسأل الذي فلق الحبة، وبرأ النِّسمة ومَن على عباده المُغْرَقين في الذُّنوب بفرضها لتكفير سيئاتهم، وعلى المُؤَفِّقين لرفع درجاتهم، أَنَّ يُتِمَّ نعمته علينا بصحة أدائها والاصطبار عليها بِمَنه وَطُولِه.

فصل

فتأمَّل، رحمك الله، إلى هذه العبادة وما حَوَتْ من أسباب السَّلامة، وتحصيل الدَّرجات، والفوز بالمَثُوبات، حتى يتفطن لمؤكِّدات الكتاب والسَّنة في الحَضِّ عليها والاعتبار بها في غير ما آية وَحبر.

أما الآيات فكقوله تعالى^(٢٤): ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾.

وقوله تعالى^(٢٥): ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾.

وقوله تعالى^(٢٦): ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾.

وقوله تعالى^(٢٧): ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾.

وقوله تعالى^(٢٨): ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾. فذكر ذهاب السيئات بإزاء ذكر الصلاة لأنه من أجلها وسببها.

وانظر كيف أكد تعالى في أدائها حين خَفَّفَ من غيرها فقال^(٢٩):

(٢٤) سورة النساء: ١٠٣/٤

(٢٥) سورة البقرة: ٢٣٨/٢

(٢٦) سورة طه: ١٣٢/٢٠

(٢٧) سورة العنكبوت: ٤٥/٢٩

(٢٨) سورة هود: ١١٤/١١

(٢٩) سورة المزمل: ٢٠/٧٣

﴿فَأَقْرُوا مَا تَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ وقال تعالى (٣٠): ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾.

ولو تتبعنا القرآن كله لوجدت هذه التشبيهات في أي لا تحصى عدة، ويكفيك أن جعلها الله تِلْوَ الإيمان: قال تعالى (٣١): ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾.

فلم يعطف على توحيدِهِ إِلَّا بالصلاة، وقال (٣٢): ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾، وقال (٣٣): ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾.

فحيث ما ذكر الإيمان أُرْدِفَ بها حتى قالوا: وإنما سميت صلاة لكونها تِلْوُ الإيمان مأخوذة من المُصَلِّي وهو الفرس الذي يلي السابق من الحلقة، لكون أنفه عند صَلَوِي السابق وهما عِرْقَانِ فِي الْفَخْذِ.

فصل

وأما الأخبار فكقوله صلى الله عليه وسلم (٣٤): «أَوَّلُ مَا يُنْظَرُ فِيهِ مِنْ عَمَلِ الْعَبْدِ الصَّلَاةُ، فَإِنْ قُبِلَتْ مِنْهُ نَظَرَ فِي مَا بَقِيَ مِنْ عَمَلِهِ، وَإِنْ لَمْ تُقْبَلْ مِنْهُ، لَمْ يُنْظَرْ فِي شَيْءٍ مِنْ عَمَلِهِ». وقوله (٣٥): «إِنَّمَا مِثْلُ الصَّلَاةِ كَمِثْلِ

(٣٠) سورة المجادلة: ١٣/٥٨

(٣١) سورة طه: ١٤/٢٠

(٣٢) سورة البقرة: ٣/٢

(٣٣) سورة التوبة: ١٨/٩

(٣٤) في الموطأ (١/١٧٣): «عن مالك، عن يحيى بن سعيد، أنه قال: بلغني أن أول ما يُنْظَرُ فِيهِ مِنْ عَمَلِ الْعَبْدِ الصَّلَاةُ. فَإِنْ قُبِلَتْ مِنْهُ، نَظَرَ فِي مَا بَقِيَ مِنْ عَمَلِهِ، وَإِنْ لَمْ تُقْبَلْ مِنْهُ، لَمْ يُنْظَرْ فِي شَيْءٍ مِنْ عَمَلِهِ».

(٣٥) في الموطأ (١/١٧٤): «عن مالك، أنه بلغه عن عامر بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه، أنه قال: كان رجلان أخوان، فهُلِكَ أَحَدُهُمَا قَبْلَ صَاحِبِهِ بِأَرْبَعِينَ لَيْلَةً، فَذُكِرَتْ فَضِيلَةُ الْأَوَّلِ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «أَلَمْ يَكُنِ الْآخِرُ مُسْلِمًا؟» قالوا: بلى يا =

نَهَرَ غَمْرٌ عَذِبٍ بِيَابٍ أَحَدَكُمْ . . .» إلى قوله: «فَإِنَّكُمْ لَا تَدْرُونَ مَا بَلَغَتْ بِهِ صَلَاتُهُ». وقوله صَلَّى الله عليه وسلّم: «خَمْسُ صَلَوَاتٍ كَتَبَهُنَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْعِبَادِ . . .» إلى قوله: «كَانَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدٌ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ. وَمَنْ لَمْ يَأْتِ بِهِنَّ فَلَيْسَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدٌ» الحديث. وقوله عليه السّلام، في سؤال الله الملائكة، على جهة المَبَاهَاةِ بِالْمُصَلِّينَ^(٣٧): «كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي» الحديث. وقول عمر رضي الله عنه لعمّاله^(٣٨): «إِنَّ أَهَمَّ أُمُورِكُمْ عِنْدِي الصَّلَاةُ، فَمَنْ حَفِظَهَا وَحَافِظَ عَلَيْهَا حَفِظَهُ اللَّهُ، وَمَنْ ضَيَّعَهَا فَهُوَ لَمَّا سِوَاهَا أَضْيَعُ».

فجعلها أهم الطاعات، وآكد القربات.

ألا ترى حيث فُرِضَتْ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى بِحَضْرَةِ الْمَلَائِكَةِ الْمُكْرَمِينَ وَمَشْهَدِ الرُّسُلِ الْكَرَامِ، وَالسَّادَاتِ الْأَعْلَامِ، كَمَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ.

وكيف أَيَّسَّنَا مِنْ نَسَخِهَا وَنَسَخَ بَعْضُهَا، فَقَالَ^(٣٩): «هِيَ خَمْسٌ، وَهِيَ خَمْسُونَ. لَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ». فعرفت أنها من الله صِدْقٌ؛ أَيَّ حَتْمٍ. وما عسى أَنْ أُطِيلَ فِي أَمْرٍ هُوَ أَظْهَرُ مِنْ أَنْ يُحْتَاجَ فِيهِ إِلَى تَطْوِيلٍ، وَلِنُكْتِفِ

= رسول الله، وكان لا بأسَ به، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: «وما يُدْرِيكُمْ مَا بَلَغَتْ بِهِ صَلَاتُهُ؟ إِنَّمَا مَثَلُ الصَّلَاةِ كَمَثَلِ نَهْرِ غَمْرٍ عَذِبٍ، بِيَابٍ أَحَدَكُمْ، يَتَحَسَّمُ فِيهِ كُلُّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، فَمَا تَرَوْنَ ذَلِكَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ؟ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْرُونَ مَا بَلَغَتْ بِهِ صَلَاتُهُ». (٣٦) في الموطأ (١/١٢٣) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقول: «خَمْسُ صَلَوَاتٍ كَتَبَهُنَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى الْعِبَادِ؛ فَمَنْ جَاءَ بِهِنَّ، لَمْ يُضَيَّعْ مِنْهُنَّ شَيْئًا، اسْتَخْفَأَ بِحَقِّهِنَّ؛ كَانَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدٌ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ؛ وَمَنْ لَمْ يَأْتِ بِهِنَّ، فَلَيْسَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدٌ؛ إِنْ شَاءَ عَذِبُهُ، وَإِنْ شَاءَ أَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ». (٣٧) انظر الحديث بتمامه في الحاشية (٨).

(٣٨) في الموطأ (٦/١) عن مالك، عن نافع، مولى عبد الله بن عمر، أن عمر بن الخطاب كَتَبَ إِلَى عَمَّالِهِ: «إِنَّ أَهَمَّ أُمُورِكُمْ عِنْدِي الصَّلَاةُ. فَمَنْ حَفِظَهَا وَحَافِظَ عَلَيْهَا، حَفِظَ دِينَهُ؛ وَمَنْ ضَيَّعَهَا فَهُوَ لَمَّا سِوَاهَا أَضْيَعُ. . .» الحديث.

(٣٩) انظر الحاشية (١).

بقوله صلى الله عليه وسلم^(٤٠): «أَرِحْنَا بِهَا يَا بِلَالُ». يعني بالصلاة،
وبقوله صلى الله عليه وسلم^(٤١): «وَجَعَلْتُ قُرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ».

فصل

فتأمل أيُّها العاقل الموفق لهذه العِلْقَةِ الثمينة، والأمانة المصونة،
والْحُظُوةَ الضَّمِينَةَ لك بالسَّلامة والعناية المكيِّنة، وشُدَّ عليها كف
الضَّنين^(٤٢)، واحفظها حفظ الْمُؤْتَمَنِ الأمين، ذخيرةً ليوم الافتقار،
وَجُنَّةً^(٤٣) بينك وبين النَّار.

فصل

لكن إياك أيُّها المصلِّي مع ما تقدَّم لك أن يبسطك الرجاء بكثرة
الأجور فتَهْوِي بك في دَرَكَاتٍ^(٤٤) الغرور، وعالج هواك بأن تعلم أن
حصول الفضل لا يصح إلا بأربعة شروط وهي:

العلمُ بتفاصيل أحكامها؛

والإخلاص في كل ظاهر منها وباطن لله تعالى؛

وحضور القلب عند أدائها في كل لحظة، لأنَّه مالَك منها إلا ما

عَقَلْتَ، كما جاء في الخبر^(٤٥)؛

(٤٠) في مسند الإمام أحمد (٣٧١/٥) من حديث علي رضي الله عنه أنه قال: «سمعت رسول
الله صلى الله عليه وسلم يقول: قُمْ يَا بِلَالُ فَأَرِحْنَا بِالصَّلَاةِ».

(٤١) في مسند الإمام أحمد (١٢٨/٣) من حديث أنس رضي الله عنه، أنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه
وسلم قال: «حَبِّبْ، إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا: النِّسَاءَ وَالطُّيْبَ، وَجَعَلْ قُرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ».

(٤٢) الضَّنين: البخيل.

(٤٣) الجُنَّة: كلُّ ما يقي الإنسان، ويستره.

(٤٤) الدَرَكَات: جمع الدَّرَكَةِ، وهي المنزل من منازل جهنم، بعكس الدَّرَجَةِ التي هي
المنزلة من منازل الجنة.

(٤٥) في مسند الإمام أحمد (٢٠٤/٣) عن أنس بن مالك أنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم دَخَلَ
المسجد فرأى حبلاً ممدوداً بين ساريتين... فقال: «لَتَصِلَ مَا عَقَلْتُ فَإِذَا غُلِبْتَ قَلْتَنَّم».

ورؤية التقصير فيها بعد الفراغ منها.

كان الحسين بن علي؛ رضي الله عنهما؛ إذا توضأ للصلاة تغيّر لونه واضطربت فرائضه^(٤٦)؛ فسئل عن ذلك فقال: أتدرون بين يديّ من أقف! أتدرون من أخاطب!؟

فهذا هذا، وأننى لنا بذلك، ومن أين؟ وحسبنا ما نعلم من تفریطنا وغفلتنا. وإذا صحّت هذه، وقلّ ما تصحّ، فالأمر بعد موقوف على السابقة. ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم.

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾^(٤٧).

فصل

وأما أنت أيها التارك البطل المنهمك في غلوائٍ التعطيل، المرتبك^(٤٨) في طماعية الأمل المّخيل^(٤٩)، الذي يسمع الأذان في كلّ يوم وليلة خمس مرّات، وأنت وادع القلب مطمئنّ الجوارح لا تصحو من سكرتك، ولا تتيقّظ من غامض غفلتك، كأنك لم تُفرض عليك، وكأنّ المطلوب بها غيرك. ولتعلم أنّ كلّ ما سبق من أفراد العدد في الأعمال الصالحة المفروضة عليك مثل عددها من الآثام في التّرك، لكون جزاء السيئة بمثلها.

وأنت مع ذلك في دنياك: أبطش من عقاب^(٥٠)! وأحذر من

(٤٦) الفرائض: جمع الفريضة، وهي اللّحمة بين الجنّ والكثف.

(٤٧) سورة يونس: ٥٨/١٠.

(٤٨) ربّك فلاناً: القاء في وحلّ فارتبك فيه واضطرب.

(٤٩) المّخيل: المخادع؛ وأصله في السحاب الذي تحسّبه مطراً فيُخلف.

(٥٠) من أمثال العرب: «أبصر من عقاب» و«أبطش من دؤسر»، ودؤسر إحدى كتائب

النعمان بن المنذر. (انظر جمهرة الأمثال ٢٣٩/١ و ٢٥٣/١).

غُرَابٌ^(٥١)! ذِئْبٌ عَتَمَ، وَضَبْعٌ قَرَمٍ^(٥٢)، جَمَاعٌ مَنَاعٌ، عِغْرِيةٌ نِفْرِيةٌ^(٥٣)،
تَنْتَهَرُ الْفُرْصَةَ، وَتَغْتَنِمُ مِنْ قِمَامَةِ أَخِيكَ الْقَبْصَةَ^(٥٤)، وَتَخْدَعُ مَنْ سِوَاكَ وَلَوْ
فِي نُفْثَةٍ^(٥٥) سِوَاكَ، لِتَحْصَلَ بِهَا شَهَوَاتِكَ، وَتُجَاهِرَ مَنْ يَطَّلِعُ عَلَيْكَ فِي
خُلُوتَاتِكَ.

كما قيل^(٥٦):

مَا أُمِيلَ النَّفْسَ إِلَى الْبَاطِلِ وَأَهْوَى الدُّنْيَا عَلَى الْعَاقِلِ
تُرْضِي الْفَتَى فِي عَاجِلٍ شَهْوَةً لَوْ خَسِرَ الْجَنَّةَ فِي الْآجِلِ
فَإِنْ ادَّعَيْتَ الْجَهْلَ بِمَا يَلْزُمُكَ، فَمَا أَعْلَمَكَ بِمَا لَا يَلْزُمُكَ. وَإِلَّا
فَانْظُرْ كَيْفَ تُجْهِدُ أَيَّامَكَ، وَتَصْرِفَ غَوَائِلَكَ، وَتَنْصِبَ شَرَكَكَ وَجِبَائِلَكَ
لِتَصِيدَ نَزْرَ^(٥٧) خَسِيسٍ، بِخَبْثِ مَكَائِدَ لَا يَتَفَطَّنُ لَهَا إِبْلِيسُ.

يَا بَائِسُ يَا فَقِيرُ، يَا دُودَةَ الْحَرِيرِ، تَبْنِي عَلَى نَفْسِكَ سِرَادِقَ^(٥٨)
نَحْسِكَ وَبِخْسِكَ^(٥٩)!

كما قيل^(٦٠):

-
- (٥١) جمهرة الأمثال (١/٣٩٦).
(٥٢) القَرَمُ: شِدَّةُ الشَّهْوَةِ إِلَى اللَّحْمِ.
(٥٣) يَقُولُونَ: عِغْرِيةٌ نِفْرِيةٌ، وَعِغْرِيتٌ نِفْرِيتٌ، وَعُقَارِيَةٌ نُفَارِيَةٌ، وَغَيْرَ ذَلِكَ، وَكُلُّ ذَلِكَ عَلَى
الْإِتْبَاعِ.
(٥٤) الْقَبْصَةُ: مَا تَتَنَاوَلُهُ بِأَطْرَافِ أَصَابِعِكَ.
(٥٥) النُّفْثَةُ: أَرَادَ النُّفَاطَةَ، وَهِيَ الشُّطْبَةُ مِنَ السُّوَاكِ تَبْقَى فِي الْفَمِ فَتَنْفُثُ.
(٥٦) الْبَيْتَانِ مِنْ أَوَّلِ قَصِيدَةِ أَبِي إِسْحَاقَ الْإِلْبِيرِيِّ: (ديوانه: ٥٩)
(٥٧) النَّزْرُ: الْقَلِيلُ.
(٥٨) السَّرَادِقُ: مَا يُمَدُّ فَوْقَ صَحْنِ الْبَيْتِ، وَالْبَيْتُ مِنَ الْقُطْنِ؛ وَأَرَادَ بِهِ مَا تَنْسُجُهُ الدُّودَةُ عَلَى
نَفْسِهَا مِنْ خِيوطِ الْحَرِيرِ، شَبَّهَ بِهِ مَا يَجْنِيهِ الْإِنْسَانُ وَيَجْمَعُهُ مِنْ مَالٍ وَلَا يُنْفِقُهُ، فَهُوَ لِلْوَرَثَةِ؛
كَمَا أَنَّ الدُّودَةَ تَجْمَعُ الْحَرِيرَ فَيَأْتِي مَنْ يَأْخُذُهَا.
(٥٩) الْبَخْسُ: التَّقْصُصُ، وَالظُّلْمُ.
(٦٠) لَمْ أَعْثَرِ عَلَيْهِ فِي مَصَادِرِي.

تَجْمَعُ مَا تَتْرُكُهُ حَسْرَةً لِوَارِثٍ أَوْ آمِلٍ أَمَلَكْ
أَقْرَبُهُمْ مِنْكَ وَأَذْنَاهُمْ إِلَيْكَ مَنْ فِي حُفْرَةٍ أَنْزَلَكْ
وَرَاخَ مِنْ قَبْرِكَ مُسْتَعْجِلًا فَتَشَّ مِنْ فَرْحَتِهِ مَنْزِلَكْ
وَحَلَّ مَا أَخْفَيْتَ مِنْ عُقْدَةٍ كُنْتَ بِخِيَلٍ أَنْ يَرَاهَا مَلَكْ!

قال بشر بن الحارث رحمه الله عليه (٦١): «لابن آدم في ماله ثلاث حَسَرَات؛ يَجْمَعُهُ كُلُّهُ، وَيَتْرُكُهُ كُلُّهُ، وَيُسْأَلُ عَنْهُ كُلُّهُ».

وكما قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في خطبة خطبها (٦٢):
«رَفَعْتُمُ الطِّينَ، وَوَضَعْتُمُ الدِّينَ، وَضَيَّعْتُمُ الْمَسَاكِينَ، وَتَشَبَّهْتُمُ بِالذَّهَاقِينِ،
فَالْحَقْتُمُ بِالْمَلَاعِينِ!».

أيُّهَا الْمُغَالِطُ لِنَفْسِهِ، الْمُتَغَافِلُ عَنْ هَيْلِ التَّرَابِ عَلَيْهِ فِي رَمِيهِ، رَاجِعْ
بَصِيرَتَكَ، وَسَدِّدْ نَحِيزَتَكَ (٦٣)، وَقَدِّرْ أَنْكَ الْمَطْلُوبَ وَحَدِّكَ.

قال الله تعالى (٦٤): ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ يَا رَوَّاعُ (٦٥)، يَا
خَدَّاعُ ﴿لَا وَزَرَ﴾ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (٦٦). فافرغ إلى عقلك من
غَمَرَاتِ (٦٧) حِسْبِكَ، وَصَيِّرْ يَوْمَكَ خَيْرًا مِنْ أَمْسِكَ، حَذَارِ حَذَارٍ فَجَأَكَ
الْمَوْتُ، فَبادِرْ إِلَى التَّوْبَةِ قَبْلَ الْمَوْتِ. جَعَلْنَا اللَّهَ وَلِيَّاكُمْ مِمَّنْ قَالَ وَفَعَلَ،

(٦١) بشر بن الحارث المشهور بالحافي، من الأئمة الزهاد المتصوفة المحدثين، أخذ
الحديث عن مالك وشريك وغيرهما، توفي سنة (٢٢٧). انظر ترجمته في: سير أعلام
النبلاء (١٠٠ - ٤٦٩) وانظر مصادر ترجمته ثمة.

(٦٢) لم ترد في نهج البلاغة.

(٦٣) نحيزة الإنسان: طبيعته.

(٦٤) سورة مريم: ٩٥/١٩

(٦٥) الرِّوَّاعُ: الثَّغْلُبُ.

(٦٦) سورة القيامة: ١١/٧٥ - ١٢

(٦٧) الغَمَرَات: جَمْعُ الغَمَرَةِ، وهي الشَّدَّة، والازدحام.

وَأَمْرًا فَاثْتَلَّ، بِفَضْلِهِ بِمَنْهُ، وَلَا جَعَلْنَا مَمَّنْ يَرَى الْقَدَى فِي عَيْنِ أَخِيهِ وَلَا يَرَى
الْجَذْعَ فِي عَيْنِهِ (٦٨).

وبالله التوفيق وبه أستعين، وهو حسُّبنا ونعم الوكيل، ولا حول
ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصَلَّى عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ
وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا.

كَمَلْ بِحَمْدِ اللَّهِ وَمَنْهُ وَحُسْنِ تَوْفِيقِهِ، وَوَقَعَ الْفَرَاغُ مِنْ تَحْرِيرِهِ عَلَى يَدِ
الْفَقِيرِ إِلَى اللَّهِ، الْخَاطِئِ الْمَذْنِبِ، الرَّاجِي عَفْوِ رَبِّهِ الْكَرِيمِ، إِسْحَاقَ بْنِ
مَحْمُودَ بْنِ بَلَكُوَيْهِ بْنِ أَبِي الْفَيَّاضِ الشَّاهِرِ خَوَاسْتِي الْبُرْجَرْدِيِّ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ
وَلِوَلَدَيْهِ وَلِجَمِيعِ أُمَّةٍ مُحَمَّدٌ بِرَحْمَتِهِ الْوَاسِعَةِ.

وذلك في الخامس عشر من صفر، سنة ست وأربعين وستمائة،
بالقاهرة المحروسة المعزّية.

والأصل الذي انْتُسِخَ مِنْهُ كَانَ مُقَابِلًا بِأَصْلِ الْمُؤَلِّفِ رَحِمَهُ اللَّهُ
عَلَيْهِ.

والحمد لله وحده، وصلواته عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَعِترَتِهِ
الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ.

قال عبد الله الرَّاجِي رَحِمَتُهُ وَمَغْفِرَتُهُ: مُحَمَّدٌ رِضْوَانُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ
عَبْدِ الرَّزَاقِ بْنِ أَحْمَدَ الدَّايَةِ الْمَكِّيِّ أَرُومَةَ الدَّمَشْقِيِّ الصَّالِحِيِّ أَصْلًا، الدُّومِيَّ
وَلَادَةً وَإِقَامَةً.

نجز - بحمد الله وتوفيقه - النظر في كتاب تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم
حِثَالَةُ الْأَغْيَاءِ لِأَبِي الْحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ أَحْمَدَ الْأُمَوِيِّ السَّبْتِيِّ غُرَّةَ يَوْمِ الثَّلَاثَاءِ،

(٦٨) مِنْ حَدِيثٍ فِي كَشْفِ الْخَفَاءِ (٥٤٣/٢)، وَنُصُّهُ: «يُبَيِّنُ أَحَدُكُمْ الْقَدَى فِي عَيْنِ أَخِيهِ،
وَيَنْسَى الْجَذْعَ فِي عَيْنِهِ».

تاسع محرّم الحرام عام إحدى عشرة وأربع مئة وألف (١٤١١) من هجرة سيدنا
ونبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم وزاده تشريفاً وتكريماً، الموافق الحادي
والثلاثين من شهر تمّوز من عام تسعين وتسع مئة وألف ١٩٩٠ من مولد عيسى
المسيح عليه السّلام .

كتب الله لي هذا الجهد في الأعمال المقبولة، وأجزل لي مثوبته
ورضوانه بعفوه ومنّهِ، إنّه ذو الطّول والفضّل؛

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه .

والحمد لله رب العالمين

فهارس الكتاب

١. فهرس الآيات.
٢. فهرس الحديث.
٣. فهرس الشعر.
٤. فهرس الأعلام.
٥. فهرس موضوعات الكتاب.

١. فهرس الآيات

رقم الآية	الصفحة
سورة البقرة (٢)	
٣	﴿الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة﴾ ١٦٣.....
٣٤	﴿وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ ٥٤.....
٣٦	﴿فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما﴾ ٧١.....
٦٠	﴿اضرب بعصاك الحجر﴾ ١٣٢.....
٦٥	﴿كونوا قردة خاسئين﴾ ٦٩.....
٩٨	﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ ١٤٢.....
١٢٤	﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ ٥٤.....
١٢٥	﴿بَيْتِي﴾ ٥٩.....
١٣٦	﴿إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ﴾ ١٤١.....
١٥٦	﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ ٢٦.....
٢٣٨	﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوَسْطَىٰ﴾ ١٦٢.....
٢٥٣	﴿مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ ٧٤.....
٢٥٩	﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ ١٠٣.....
٢٥٩	﴿أَنِّي يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ٦٤.....
٢٦٠	﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ ١٠١، ٩٧، ٩٦، ٨٦، ٦٤.....
٢٧٢	﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ ٥٦.....

سورة آل عمران (٣)

﴿يُؤَيِّدُ الْخَيْرَ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾	٢٦
﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾	٢٨
﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾	٣١
﴿وَكَلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ﴾	٣٧
﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾	٣٨

سورة النساء (٤)

﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾	٢٣
﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾	٤٩
﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾	٦٥
﴿مَنْ يَطْعِ الرِّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾	٨٠
﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾	١٠٣
﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾	١٢٤
﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَمْ يَفْرَقُوا بَيْنَ أَحَدٍ﴾	١٥٢
﴿وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾	١٦٣

سورة المائدة (٥)

﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾	١١٠
------------------------------------------------------	-----

سورة الأنعام (٦)

﴿هَذَا رَبِّيَ هَذَا أَكْبَرُ﴾	٧٨
﴿وَحَاجَّةُ قَوْمِهِ، قَالَ أَتَحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾	٨٠
﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ﴾	٨٣

سورة الأعراف (٧)

﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾	٢٢
﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾	٢٢
﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾	٣٢

فهرس الآيات

١٧٥

رقم الآية	الصفحة
٤٣	﴿ونزعنا ما في صدورهم من غلٍ إخوانا على سُرُرٍ متقابلين﴾ ١١٠
٨٩	﴿وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربّنا﴾ ١١٩
١٥٦	﴿عذابي﴾ ٦٠
١٦٠	﴿وقطعناهم اثني عشرة أسباطاً أمماً﴾ ١٤٣
١٦٨	﴿وقطعناهم في الأرض أمماً منهم الصالحون﴾ ١٤٣
٢٠٠	﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله﴾ ٧١

سورة التوبة (٩)

١٨	﴿من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة﴾ ١٦٣
١١٤	﴿فلما تبين أنه عدو لله تبرأ منه﴾ ١٢

سورة يونس (١٠)

٥٨	﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا﴾ ١٦٦
----	-----------------------------------------------------

سورة هود (١١)

٣٦	﴿أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن﴾ ٨٣
٣٧	﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مُّغْرَقُونَ﴾ ٧٩
٤٠	﴿إلا من سبق عليه القول﴾ ٧٩
٤٢	﴿يا بني اركب معنا﴾ ٧٩
٤٣	﴿سأوي إلى جبل يعصمني من الماء﴾ ٧٩
٤٣	﴿لا عاصم اليوم من أمر الله﴾ ٧٩
٤٣	﴿وحال بينهما الموج﴾ ٨٠
٤٥	﴿ربّ إنّ ابني من أهلي وإنّ وعدك الحقّ﴾ ٨٠ ، ٧٨ ، ٦٤
٤٦	﴿يا نوح إنه ليس من أهلك﴾ ٨٠
٤٦	﴿فلا تسألن ما ليس لك به علم﴾ ٨٠
٤٦	﴿إني أعظك أن تكون من الجاهلين﴾ ٨١
٧٢	﴿يا ويلتا أألدُ وأنا عجوز﴾ ١٠٧
٧٣	﴿أتعجبين من أمر الله﴾ ١٠٧
١١٤	﴿وأقم الصلاة طرفي النهارٍ وزلفاً من الليلٍ إنّ الحسنات يذهبن السيئات﴾ ١٦٢

رقم الآية الصفحة

سورة يوسف (١٢)

﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ...﴾	١١٣	٣
﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾	١٣٨	٥
﴿وَيَتَمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ		٦
مَنْ قَبْلَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾	١٤٤	
﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾	١١٣	٨
﴿بَلِ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا...﴾	١٣٩، ٣٤	١٨
﴿وَشَرُّوهُ﴾	١٣٩	٢٠
﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾	٤٤	٢٢
﴿وَوَرَّادَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾	٤٤	٢٣
﴿هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ		٢٤
إِنَّهُ لَا يَفْلَحُ الظَّالِمُونَ﴾	٤٨	
﴿ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قُطِعْنَ أَيْدِيهِنَّ﴾	٤٨	٥٠
﴿وَمَا أَبْرَأُ، نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾	٤٨	٥٣
﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾	٩٤	٧٠
﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾	١٣٩	٧٧
﴿أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا﴾	١٣٩	٧٧
﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾	١١٣	٩٥
﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾	١٣٨	١٠٢

سورة الرعد (١٣)

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ...﴾	٢٤	٣١
------------------------------------------------------	----	----

سورة إبراهيم (١٤)

﴿وَاجْنِبْنِي﴾	١١٩	٣٥
﴿وَاجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾	٤٩	٣٥

سورة الحجر (١٥)

﴿وَلَا تَمْدُدْ عَيْنِيكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَاهُ بِزَوْجٍ مِنْهُمْ...﴾	٨٥	١٨
------------------------------------------------------------------------	----	----

الصفحة	رقم الآية
٥٩.....	﴿روحي﴾ ٢٩
٥٩.....	﴿قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون﴾ ٣٣
٦٩.....	﴿ادخلوها بسلام آمين﴾ ٤٦
١١٩.....	﴿ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون﴾ ٩٧

سورة النحل (١٦)

١٤٣.....	﴿إن إبراهيم كان أمةً قانتاً لله﴾ ١٦
٦٩.....	﴿ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين﴾ ٢٩

سورة الإسراء (١٧)

٧٠.....	﴿كونوا حجارةً أو حديداً﴾ ٥٠
٥٨.....	﴿أأسجد لمن خلقت طيناً﴾ ٦١
٥٨.....	﴿أأريتك هذا الذي كرمت علي﴾ ٦٢
٦٨.....	﴿واستفزز من استطعت منهم﴾ ٦٤
١١٩ ، ٤٩.....	﴿ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك﴾ ٨٦

سورة الكهف (١٨)

٤٣.....	٢٣ - ٢٤ ﴿ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً﴾ ٤٣
٨٥.....	﴿ولا تعد عينك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا﴾ ٢٨
١٦١.....	﴿لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها﴾ ٤٩
١٢٤.....	﴿وما أنسانيه إلا الشيطان﴾ ٦٣
٨١.....	﴿فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً﴾ ٧٠
٤٢.....	﴿لا تؤاخذني بما نسيت﴾ ٧٣
١٢٤.....	﴿فأردت أن أعيها﴾ ٧٩

سورة مريم (١٩)

٨٧.....	﴿وأتيناها الحكم صبياً﴾ ١٢
١٢٧.....	﴿يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً﴾ ٢٣
١٢٩.....	﴿فكلي واشربي﴾ ٢٦
١٣١.....	﴿وقري عيناً﴾ ٢٦

رقم الآية	الصفحة
٢٦	﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا...﴾ ١٣١
٣٠	﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ ٨٧
٥٨	﴿وَمَنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾ ٦٧
٩٥	﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ ١٦٨

سورة طه (٢٠)

١٤	﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ ١٦٣
١٥	﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ ٧٢
٢١	﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ ٦٨
٢٢	﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضًا مِنْ غَيْرِ سَوَاءٍ﴾ ٦٩
٣٩	﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى﴾ ١١٢
٣٩	﴿يَأْخُذْهُ عَدُوِّي وَعَدُوُّ لِي﴾ ١١٠
٤٠	﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾ ١١١
٤١	﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ ١١٢
٧١	﴿وَلَا صَلْبَنَّاكُمْ فِي جَزوعِ النَّخْلِ﴾ ١٢٩
١٢٢	﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ ٦٧
١٣٢	﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ ١٦٢

سورة الأنبياء (٢١)

٥٧	﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ ٩٣
٨٤	﴿وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾ ١٢٣
٨٧	﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ ١١٧، ١١٥

سورة الحج (٢٢)

٤١	﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ...﴾ ١٢٢
٧٨	﴿مَلَّةَ أَبِيكَمِ إِبْرَاهِيمَ﴾ ١٥٠

سورة المؤمنون (٢٣)

٩٧ - ٩٨	﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ...﴾ ٧١
١٠١	﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ...﴾ ١٠٩

رقم الآية	الصفحة
١٠٨	﴿اٰخِسُوْا فِيْهَا وَلَا تَكَلِّمُوْنَ﴾..... ٦٩
سورة الفرقان (٢٥)	
٢٧	﴿يَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾..... ١١٠
٧٠	﴿فَاُولٰٓئِكَ يَبْدُلُ اللّٰهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾..... ٤٧
سورة الشعراء (٢٦)	
١٩	﴿وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ...﴾..... ١١١
٩٠	﴿وَإِذَا مَرَضْتَ فَهُوَ يَشْفِيكَ﴾..... ١٢٤
٢٢٧	﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾..... ٢٦
سورة القصص (٢٨)	
٧	﴿فَإِذَا خَفْتُ عَلَيْهِ فَأَلْقِيَهُ فِي الْيَمِّ﴾..... ٦٩
١٥	﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾..... ١١١
١٥٠	﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾..... ١٠٨
١٥	﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾..... ١٢٤
٢٨	﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا...﴾..... ١٠٨
٤٤	﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ...﴾..... ١٥١
٥٦	﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾..... ٥٦
سورة العنكبوت (٢٩)	
٤٥	﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾..... ١٦٢
سورة لقمان (٣١)	
٢٧	﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ...﴾..... ٢٤
سورة الأحزاب (٣٣)	
٤	﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ...﴾..... ٥٠ - ٦١
٥	﴿وَادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾..... ٥٠
٣٧	﴿وَإِذْ يَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ:
	أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ...﴾..... ٥٠، ٥٣، ٥٤، ٥٥، ٥٧، ٥٩، ٦٠، ٦١

رقم الآية	الصفحة
٣٩ ﴿الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه...﴾	٥٧
٥٨ ﴿إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله...﴾	٥٦
سورة سبأ (٣٤)	
١١ ﴿أن اعمل سابغات وقدر في السرد﴾	١٣٤
١٣ ﴿يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل﴾	٤٠
سورة الصافات (٣٧)	
٨٩ ﴿إني سقيم﴾	٩٣
١٠١ ﴿حليم﴾	٨٨
١١٣ ﴿ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين﴾	١٤٣
١٤٢ ﴿فالتقمه الحوت وهو مليم﴾	١٢٨ ، ١١٧
سورة ص (٣٨)	
٢١ - ٢٤ ﴿وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب﴾	٢٩ ، ٢٨
٢٣ ﴿إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة﴾	٩٤
٢٣ ﴿أكفليها﴾	٥٦
٢٤ - ٢٥ ﴿وظن داوود أنما فتناه﴾	٣٦ ، ٣١
٣٤ ﴿ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب﴾	٣٧
٤١ - ٤٢ ﴿واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطان﴾	
بنصب وعذاب...﴾	١٢٢ - ١٢١
٤٢ ﴿اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب﴾	١٢٦
٤٤ ﴿إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب﴾	١٢٦
٧٦ ﴿أنا خير منه﴾	٥٨
سورة الزمر (٣٩)	
٥٢ ﴿أولم يعلموا أن الله يسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾	١١٨
سورة غافر (٤٠)	
٢٨ ﴿وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه﴾	١١٠

الصفحة	رقم الآية
١٤٤.....	﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ ٤٦
١٤١.....	﴿مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصِصْ عَلَيْكَ﴾ ٧٨
سورة فصلت (٤١)	
٦٨.....	﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ ٤٠
سورة الزخرف (٤٣)	
١٠٩.....	﴿الْأَخْلَاءَ. يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ ٦٧
٦٩.....	﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ ٧٠
سورة الحجرات (٤٩)	
١٠٩.....	﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ ١٠
سورة الذاريات (٥١)	
٢٩.....	﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ. إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ..﴾ ٢٤
٨٧.....	﴿وَبَشِّرُوهُ بَغْلَامٍ عَلِيمٍ﴾ ٢٨
سورة الطور (٥٢)	
١٦١.....	﴿وَمَا أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ ٢١
سورة القمر (٥٤)	
٩٩.....	﴿مُتَّعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ ٨
١٦١.....	٥٢ - ٥٣ ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزَّيْرِ. وَكُلَّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٍ﴾
سورة الرحمن (٥٥)	
١٤٢.....	﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ ٦٨
سورة المجادلة (٥٨)	
١٦٣.....	﴿فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ ١٣
سورة الحشر (٥٩)	
٥٨.....	﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ ٧

رقم الآية	الصفحة
٩	﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾ ٣٥
٢١	﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً﴾ ٢٤
سورة التغابن (٦٤)	
١٤	﴿يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدو لكم فاحذروهم﴾ ١١١
سورة الطلاق (٦٥)	
٧	﴿ومن قدر عليه رزقه﴾ ١١٧
سورة القلم (٦٨)	
٤٨	﴿فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت﴾ ١١٧ ، ١١٩
٤٩	﴿لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم﴾ ١١٩
سورة المعارج (٧٠)	
٤٣	﴿يوم يخرجون من الأجداث سراة﴾ ٩٩
سورة نوح (٧١)	
٢٦	﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾ ٨٢
٢٧	﴿إنك إن تذرهم يضلوا عبادك﴾ ٨٣
سورة الجن (٧٢)	
٢٨	﴿وأحصي كل شيء عدداً﴾ ١٦٠
سورة المزمل (٧٣)	
١٥	﴿إنا أرسلنا إليك رسولاً شاهداً عليكم﴾ ١٥٣
٢٠	﴿فافقرؤوا ما تيسر منه وأقيموا الصلاة﴾ ١٦٣
سورة القيامة (٧٥)	
١١ - ١٢	﴿لا وَّزَرَ. إلى ربك يومئذ المستقر﴾ ١٦٨
سورة عبس (٨٠)	
٣٤ - ٣٦	﴿يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه﴾ ١٠٩

رقم الآية	الصفحة
	سورة الفجر (٨٩)
٣٠ ﴿جَنَّتِي﴾	٦٠.....
	سورة الشمس (٩١)
١٣ ﴿نَاقَةَ اللَّهِ﴾	٦٠.....
	سورة الضحى (٩٣)
٧ ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾	١١٢.....
	سورة الزلزلة (٩٩)
٧ - ٨ ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾	١٦١.....
	سورة الهمزة (١٠٤)
٦ ﴿نَارَ اللَّهِ﴾	٦٠.....

٢. فهرس الحديث

الصفحة

٧٤.....	«آدم نبيّ مكلّم»
٥٥.....	«أخذ الرّاية زيد فأصيب...»
١٥٦.....	«أدّخرتُ دعوتي شفاعتي لأمتي يوم القيامة»
١٥٠.....	«ارجع إلى ربّك فاسأله أن يخفّف عن أمتك...»
١٥٠.....	«ارجع إلى ربّك، فقال: إنّي أستحيي...»
١٦٥.....	«أرحنا بها يا بلال»
١٣٥.....	«اطلبوا الرّزق في خبايا الأرض»
١٣٥.....	«اعقلها وتوكل»
١٣٧.....	«الرّؤيا الصّالحة من الرجل الصّالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»
٥١.....	«اللّهم إنّي عدلتُ فيما أملك فاغفر لي ما لا أملك»
١٤٤.....	«اللّهم صلّ على محمّد وعلى آله وأزواجه وذريته»
١٣٤.....	«الناس عيال الله وأحبّهم إلى الله أنفعهم لعياله»
.....	«أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلّا الله»
١٥٧.....	«إنّ الله تعالى يقول: ما تقرب إليّ عبدي بمثل أداء المفترضات»
١٥٣.....	«إنّ الله يقول: ما تقرب إليّ عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه»
١٦٤.....	«إنّهم أموركم عندي الصّلاة...»
٤٢.....	«إنّما أنا بشر أنسى كما تنسون»

الصفحة

- «إنما مثل الصَّلَاة كمثل نهر غمر عذب...» ١٦٤.....
- «إني لأرجو أن يُحشر أُمَّةٌ وحده» ١٤٣.....
- «أول ما ينظر فيه من عمل العبد الصَّلَاة...» ١٦٣.....
- «بينما إبراهيم عليه السلام يمشي على ساحل البحر إذ مرَّ بدابة...» ٩٥.....
- «جعل رزقي تحت ظل رمحي» ١٣٤.....
- «الحسين سبط من الأسباط» ١٤٣.....
- «حمل أخى يونس أعباء الرسالة فانفسخ تحتها كما ينفسخ الربيع» ١٢٠.....
- «خمس صلوات كتبهنَّ الله على العباد...» ١٦٤.....
- «قال: ربِّي اجعلني من أمة أحمد» ١٥١.....
- «كيف تركتم عبادي...» ١٥٢ - ١٦٤.....
- «لكلِّ نبيِّ دعوة، واختبأت دعتي شفاعة لأمتي يوم القيامة» ١٥٥.....
- «لم يكذب إبراهيم عليه السلام في الإسلام إلا ثلاث كذبات» ٩٥.....
- «ما كان لنبي أن يكون له خائنة الأعين» ٨٥.....
- «من عشق وكنتم وعفَّ ومات مات شهيداً» ٥٢.....
- «من همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة...» ٤٤.....
- «من همَّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب له» ٤٦.....
- «نحن أحقُّ بالشك من إبراهيم» ٩٦.....
- «هي خمس وهي خمسون، ما يبذل القول لدي» ١٥٤، ١٦٤.....
- «والخير كله في يدك، والشر ليس إليك» ١٢٤.....
- «وجعلت قرّة عيني في الصَّلَاة» ١٦٥.....
- «ولا تفضلوني على يونس بن متى» ١١٩.....
- «ومن همَّ بحسنة فعملها كتبت عشرًا» ١٥٤.....

٣. فهرس الشعر

- ألم تر أن الله أوحى لمريم
إليك فهزي الجذع تساقط الرطب
(؟) ١٣٥
- أما علموا أن المقام سما بها
لأن جمعت بين التوكل والسبب
(علي بن أحمد السبتي، ابن حمير) ١٣٥
- لو كنت عاتبي لسكن لوعتي
أملني رضاك وزرت غير مراقب
(؟)
- أحب بلاد الله ما بين منعج
إلي وسلمي أن يصبو سحابها
(رفاعة بن قيس الأسدي، أو غيره) ١٠٦
- إذا ذهب العتاب فليس ود
ويبقى الود ما بقي العتاب
(؟) ١١٨
- أقبلت فلاح لها
عارضان كالسبح
(؟)
- تجمع ما تركه حصرة
لوارث أو آمل أم لك
(؟) ١٦٨
- فيا رب يوم قد لهوت و ليلة
بأنسة كأنها خط تمثال
(امرؤ القيس) ٤٠
- لعل عتبك محمود عواقبه
فرئما صحت الأجسام بالعلل
(المتنبي) ٧٧ - ١١٨
- ما أميل النفس إلى الباطل
وأهون الدنيا على العاقل
(أبو إسحاق الإبري) ١٦٧
- هممت ولم أفعل وكدت وليتني
تركت على عثمان تبكي حلائله
(ضابي بن الحارث البرجمي) ٤٤
- لو مس عوداً سلوباً لاكتسى ورقاً
ولو دعا ميتاً في القبر لباه
(؟) ١٢٩

٤. الأعلام

- آدم (عليه السلام): ١٣، ٢٣، ٤٤، ٦٤،
٦٦، ٦٨، ٨٧٠، ٧٤، ٧٦-٧٧،
٩٧، ١٤١.
- إبراهيم (عليه السلام): ١٣، ٤٨، ٦٤،
٨٩، ٩٢، ٩٦-٩٧، ١٠٠، ١٠٢،
١٠٤، ١٠٧، ١٠٩، ١١٩، ١٥٠.
- إبراهيم بن الملاء أحمد بن الملا محمد:
١٠، ١٥.
- أحمد بن أحمد بن محمد العجمي
الوفائي: ٧.
- أحمد بن محمد اللخمي (أبو العباس):
١٤، ٧٥.
- أحمد بن الملاء محمد: ١٥.
- إسحاق (عليه السلام): ١٤١.
- أبو إسحاق الفيروزآبادي: ١٠.
- إسحاق بن محمود بن ملكويه (ملكونة)
الشابّر خواستي البرجردي: ٩، ١٦٩.
- إسماعيل (عليه السلام): ١٤٢.
- امرؤ القيس: ٤٠.
- أوريا: ٢٥، ٢٧.
- أم أيمن: ١٣٢.
- أيوب (عليه السلام): ١٣، ٦٥، ١٢٣،
١٢٥، ١٣١، ١٣٥، ١٤٢.
- بحيرا الراهب: ٨٧.
- بخت نصر البابلي: ١٠٥.
- بروكلمان: ٧.
- بشر بن الحارث: ١٦٨.
- أبو بكر بن ثابت الخطيب البغدادي: ١٠.
- أبو بكر الصديق (رضي الله عنه): ١٣٢.
- أبو بكر بن العربي الإشبيلي الأندلسي:
١٤، ٥٨.
- جبريل: ٦٢+١٤٢.
- جرادة (زوجة سليمان): ٣٧.
- الحسين بن علي (رضي الله عنه): ١٤٣،
١٦٦.
- الحصري الأموي: ١٤.

عبدالرحمن بن عوف (رضي الله عنه):

٣٣

عزير (عليه السلام): ١٣، ٦٤، ١٠٤،

١٠٥

عزير أباطة: ١٢

علي أحمد باكثير: ١٢

علي بن أحمد السبتي الأموي (أبو

الحسن، ابن حمير): ١٠-١١

علي الجارم: ١٢

علي بن أبي طالب (رضي الله عنه): ٥٣،

١٣٢، ١٦٨

عمر أبو ريشة: ١٢

عياض (القاضي): ٨

عيسى (عليه السلام): ٣٩، ٤١، ٨٧،

١٠٥، ١٢٥، ١٣٠، ١٣٢، ١٣٥،

١٤٢

فرعون: ٨٦، ١١٠-١١٢

القاضي عياض: (انظر: عياض).

قيس بن عامر (المجنون): ٥١

أبو لهب: ٥٤

لوط (عليه السلام): ٣٩

ليلي العامرية (حبيرة المجنون): ٥١

المحيي: ١٥

محمد (صلى الله عليه وسلم): ٩-١٠،

١٣، ٢٣، ٢٨، ٣٣، ٤٠، ٤٣،

٤٩-٥٤، ٥٦-٦٢، ٦٤، ٦٩،

٧١، ٧٤، ٨٣-٨٥، ٨٧،

٩٥-٩٦، ١١٢، ١١٩-١٢٠،

١٢٤، ١٢٦، ١٢٩، ١٣٢،

ابن حمير (انظر: علي بن أحمد السبتي

الأموي).

الخضر (عليه السلام): ٨١

الخليل (عليه السلام): (انظر إبراهيم).

دانيال: ١٠٥-١٠٦

داوود (عليه السلام): ١٣، ٢٥، ٢٧-.

٢٨، ٣١-٣٣، ٣٥-٣٦، ٥٥،

٩٤، ١٣٤، ١٤٢

الزركلي: ١٥

زكريا (عليه السلام): ١٠٥، ١٢٥، ١٢٧

زيد بن حارثة (رضي الله عنه): ٢٥،

٩٧

زينب بنت جحش (رضي الله عنها): ٢٥،

سعد بن الربيع: ٣٣

سليمان (عليه السلام): ١٣، ٢٥،

٣٧-٤١، ٤٣، ١٣٤، ١٤٣

السُّوطي: ٧-٨

الشافعي (الإمام): ١٠

الشريف المرتضى (علي بن الحسن): ٧،

١١

شُعَيْب (عليه السلام): ١٢٠

شمس الدين الحمصاني: ٨

صخر (أحد الشياطين): ٣٨، ٣٩

عائشة (رضي الله زعنهما): ١٢٩

ابن عباس (رضي الله عنهما): ٤٣

أبو العباس بن القاص (؟) الطبري: ١٠

عبد الحميد جودة السَّحَّار: ١٢

- میکال: ١٤٢
نوح (عليه السلام): ١٣، ٣٩، ٦٤، ٨٣-٧٨
هارون (عليه السلام): ١٤٢
أبو هريرة (رضي الله عنه): ٧٤
هشام المؤيد: ١٤
يحيى (عليه السلام): ٨٧، ١٠٥
يعقوب (عليه السلام): ٣٤، ١١٤، ١٣٩، ١٤١-١٤٤
يهودا: ١٤٣
يوسف (عليه السلام): ١٣، ٣٠، ٤٣، ٤٥، ٤٧، ٦٥، ٩٤، ١١٢-١١٣، ١٣٨-١٣٩
يونس (عليه السلام): ١٣، ٦٤، ١١٥-١١٧، ١١٩، ١٤٢
- ١٣٤-١٤٠، ١٤١، ١٤٣، ١٤٩، ١٥١-١٥٢، ١٥٤-١٥٧، ١٥٣-١٦٥، ١٦٩
محمد بن محمد (ابن الملاء): ١٥
محمد بن محمد بن محمد الغزالي (حجة الإسلام، أبو حامد): ١٠
مريم (عليها السلام): ١٣٠، ٦٥، ٦٧، ١٢٥، ١٣٢، ١٣٥
مصطفى صادق الرافعي: ١٢
منلا حاجي (قاضي قضاة تبريز): ١٥
موسى (عليه السلام): ١٣، ٤٢، ٦٥، ٦٨، ٨١، ٨٣-٨٤، ١٠٥، ١٠٨، ١١٠-١١٤، ١٢٢، ١٣٢، ١٥٠-١٥٢، ١٥٤-١٥٥

٥. فهرس موضوعات الكتاب

الصفحة	
٢٠ - ١	مقدمة التحقيق
	* * *
٢٦ - ٢٣	مقدمة المؤلف
٣٦ - ٢٧	ذكر ما اختلقوه في قصة داود عليه السلام
٤٣ - ٣٧	شرح قصة سُلَيْمَان عليه السَّلام
٤٩ - ٤٤	شرح قصة يوسف عليه السَّلام
٦٣ - ٥٠	شرح قصة نَبِيَّنا عليه الصلاة والسَّلام
٦٥ - ٦٤	فصل في ما وقع من بعض قصص الأنبياء
٧٧ - ٦٦	شرح قصة آدم عليه السَّلام
٨١ - ٧٨	شرح قصة نوح عليه السلام (في محاورته مع ابنه)
	فصل [في شرح قصة نوح عليه السَّلام في دعائه على قومه،
٨٥ - ٨٢	وامتناعه عن الشفاعة الكبرى في الآخرة]
	شرح قصة إبراهيم عليه السَّلام [في استدلاله بالثلاثة الكواكب،
١٠٢٨ - ٨٦	وفي الأقوال الثلاثة التي قال إنها كذبات، وفي طلبه رؤية كيفية إعادته البعث]
١٠٨ - ١٠٣	شرح قصة عزيز عليه السَّلام
١١٤ - ١٠٨	شرح قصة موسى عليه السَّلام
١٢٠ - ١١٥	شرح قصة يونس عليه السَّلام

الصفحة

- شرح قصّة أيّوب عليه السّلام ١٢٤ - ١٢١
 فصل [استطرد في تبين أنّ مقام مريم عليها السلام عند هزّ
 هزّ الجذع ليس أقلّ من مقامها في الغرفة] ١٣٧ - ١٢٤
 فصل [في إخوة يوسف: هل كانوا أنبياء؟] ١٤٥ - ١٣٨

* * *

- مجموع نكت من بعض ما خصّ به نبيّنا عليه السلام من الكرامات ليلة الإسماء
 عند لقاء الكلّيم عليه السلام وما كان بينهما من
 المراجعة والمحاورة في أمر الصلاة ١٤٧
 لم يختصّ نبيّنا عليه السلام موسى بخبر الصلاة والتفاوض معه ١٥١ - ١٤٩
 فوائد فرض الصّلاة في ذلك المقام (عند الملأ الأعلى) ١٥٦ - ١٥٢
 التنبيه على فضل الصّلاة على سائر العبادات (ظاهراً وباطناً،
 فروضاً، وسنناً، وأجوراً) ١٦٢ - ١٥٧
 مؤكّدات الكتاب والسّنة في الحضّ على الصّلاة ١٦٦ - ١٦٢
 تحذير تارك الصلاة ١٦٩ - ١٦٦

